د. محي الدين محسب
أستاذ العلوم اللغوية - جامعة المنيا

الإدراكيات

أبعادٌ إبستمولوجيةٌ وجهاتٌ تطبيقية





الإدراكيات

أبعادٌ إبستمولوجيةٌ وجهاتٌ تطبيقية

د. محي الدين محسب

أستاذ العلوم اللغوية - جامعة المنيا

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ/٢٠١٧م



الإدراكيات أبعادٌ إبستمولوجيةٌ وجهاتٌ تطبيقية

تأليف : أ.د.محي الدين محسب

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية:(2016/8/4136)

ردمك ISBN 978 9957 74 615 5

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ-٢٠١٧م



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع

عمان - وسط البلد - شارع الملك الحسين

ص.ب 712577 عمان (11171) الأردن

هاتف 4655 877 فاكس 4655 875 6 962+

dar_konoz@yahoo.com

E-mail: info@darkonoz.com

تصميم الغلاف والإخراج الفني : دار كنوز المعرفة

الإهداء

إلى أستاذي محمود فهمي حجازي
وشيخي عبدالعزيز المانع
وإلى الكبير مصطفى غلفان
والرائعين : وليد العناتي . . وحافيظ إسماعيلي

المقدمة

يضم هذا الكتاب خمس مقالات تتعلق جميعاً بما أسميه (الإدراكيات) ترجمة لـ Cognitive sciences . وتتدرج هذه المقالات من البدء في المقالة الأولى بتقديم صورة تاريخية وإبستمولوجية عامة ، ثم في المقالة الثانية بتقديم معالجة مصطلحية للتلقي العربي لمصطلح cognition وقرينه مصطلح perception مع ربط القضية المصطلحية بالتحولات الإبستمولوجية التي شهدتها الإدراكيات منذ نشأتها في عقد الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي . وفي المقالة الثالثة محاولة لتقديم التطور العميق الذي أحدثته المقاربة الإدراكية في دراسة ظاهرة (الاستعارة) . أما المقالة الرابعة فهي عن أثر الإبستمولوجيا الإدراكية في قضية (الترجمة) ، أو - بالأحرى - في تعميق أبعاد (ما لا يترجم) بين اللغات والثقافات . وينتهي الكتاب بالمقالة الخامسة التي تضمنت جانباً من الدور الذي لعبته الإدراكيات في علاقتها بالدرس الأدبي ؛ وهو جانب التأسيس الجديد لعلمية النقد الأدبي .

وهذه المقالات في مجملها أرجو لها أن تجسد محاولة مخلصة تستهدف وقوف القارئ العربي على جوانب من ذلك المشروع المعرفي الذي أُطلِق عليه (الثورة الإدراكية) ، والذي استثمرته - فيما أعلم - كلُّ العلوم الإنسانية ، بالإضافة إلى الرياضيات والعصبونيات والحاسوبيات والأحياء وغيرها طوال عقود النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي ومطلع قرننا الحالي .

أسأل الله التوفيق والسداد . .

د . محي الدين محسب

الإدراكيات:
إطلالة تاريخية إبستمولوجية

«الأكثر أهميةً هو أن الثورة الإدراكية تُمثّل في معالجة العقل والوعي منعطفاً مضاداً لتلك المعالجة القديمة التي امتدت لقرون»[1]

Roger Sperry

نبذة:

هذه المقالة تحاول أن تقدم للقارئ العربي استظهاراً للجذور التاريخية والإبستمولوجية لنشأة العلوم الإدراكية التي نطلق عليها هنا مصطلح (الإدراكيات) . فما بين العودة إلى جذور بعيدة لمقولات الإدراكيات ولنظرياتها ، والعودة إلى جذور أكثر قرباً ، يتنوع هذا الاستظهار ، وتتنوع أبعاده . ومن خلال معالجة ذلك نأمل أن تقدم المقالة إضاءات كاشفة لحركة الأفكار والمفاهيم الإدراكية ؛ أي أن تقدم إضاءةً للإبستمولوجيا الإدراكية نفسها التي نُظِر إليها على أنها (ثورة) في تاريخ العلم .

يقول آرثر لافجوي (١٨٧٣ - ١٩٦٢) - المنظّر الأشهر في فلسفة تاريخ الأفكار في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي - «إن الأفكار هي أكثر الأشياء هجرةً في العالم . . . مما يجعل ظهورَها الأول على المشهد في أحد مجالات التاريخ المميزة بشكل تقليدي - وغالباً ما يكون ذلك في الفلسفة -

---

(1) Roger W. Sperry (1993):The Impact and Promise of the Cognitive Revolution. In: American Psychologist, Vol. 48. No. 8. 878-885.pdf On:

www.radford.edu/~tpierce/622%20files/Sperry%20(1993)%20...

يَعْبُرُ إلى دستة مجالات أخرى»[1] .

وفي الحقيقة فإنني أتصور أن مجال الإدراكيات هو أكثر مجال معرفي وعلمي يصدُق فيه هذا القول ؛ حيث يتسع الامتداد الزمني لجذور هذا المجال ولمنابع إرهاصاته لتتأكد مقولة جاردنر عنه بأنه «ذو ماض طويل ، وذو تاريخ قصير نسبياً»[2] . ومن ثم تتعدد زوايا المقارنة والتتبع فيحاول بعض الدارسين أحياناً استظهار جذور بعيدة لمقولات الإدراكيات ولنظريات الإدراكيين حتى يمتد النظر إلى أن يصل إلى القول بأن محاولات فهم العقل وعملياته تعود على الأقل إلى الفلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون[3] . وفي أحيان أخرى يمتد الاستظهار إلى جذور أقرب تتمثل في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، حيث كان ثمة اهتمام كبير بتفسير العمليات الإدراكية المتضمنة في الانتباه والذاكرة ، وتفسير تجربة الوعي[4] الذي سيعود الاهتمام به مجدداً في تسعينيات القرن العشرين[5] . وبطبيعة الحال فإن استظهار الإرهاصات في الجذور الأكثر قرباً من بزوغ الإدراكيات هو أمر لا يخلو من الإشارة إليه أيُّ وصف تاريخي تحليلي لنشأتها . وفي هذا المدى التاريخي الطويل نجد أن هذا

---

(1) Maurice Mandelbaum: The History of Ideas, Intellectual History, and the History of Philosophy. In:

History and Theory, Vol. 5, Beiheft 5: The Historiography of the History of Philosophy (1965), pp. 33-66. P. 39, n. 18. On:

isites.harvard.edu/.../Mandlebaum%20The%20History%20of%20Ideas%...

(2) Howard E. Gardner (1987): The Mind's New Science: A History of the Cognitive Revolution. P.9. New York: Basic Books.

(٣) انظر مدخل (cognitive science) في : Stanford Encyclopedia of Philosophy على :

http://seop.illc.uva.nl/entries/cognitive-science/

(4) Shaun Gallagher and Dan Zahavi (2008): The Phenomenological Mind: An Introduction to Philosophy of Mind and Cognitive Science. P.3. Routledge.

(5) Ibid. p.3

الاستظهار لجذور الإدراكيات تارة يذهب إلى مدرسة علمية أو فلسفية بعينها ، وتارة يذهب إلى عالم أو مفكر بعينه ، وتار ثالثة يذهب إلى نظرية إدراكية معينة . وحول كل ذلك سنكتفي بالوقفات التالية .

يربط بعض الباحثين بين الإدراكيات ومدرسة (الجشطالت Gestalt) في علم النفس التي ازدهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهذا الربط يتعلق بصفة بخاصة بفكرة أن العقل mind ينبثق من الخصائص الفيزيقية للدماغ brain ، ويتعلق بالأفكار المتصلة بالإدراك عموماً ، وبالإدراك البصري خصوصاً[١] . وما يزال في الإدراكيات أصداء المبدأين الجشطالتيين الشهيرين :

* مبدأ الشمول : ويعني أن أي تجربة وعي يجب أن تُفحص بشكل شمولي . وقد قاد هذا المبدأ إلى نظرية تكامل التعدد الصيغي multimodal integration ؛ أي التكامل في المعالجة الإدراكية للمثيرات الواردة من حواس متعددة .
* ومبدأ التشاكل النفسي الطبيعي psychophysical isomorphism : الذي يقرر العلاقة بين الوعي والعمليات الفسيولوجية الكامنة تحته[٢] .

وفي مقاربة الإدراكيّ الشهير (رونالد لانجاكر) أشار إلى علم النفس

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Riccardo Luccio (2011): Gestalt Psychology and Cognitive Psychology. in: Humana. Mente Journal of Philosophical Studies , Vol. 17, 95-128. Pdf on: www.humanamente.eu/PDF/Issue17_Paper_Gestalt%20...

(2) Abraham S. Luchins & Edith H. Luchins (2015): Isomorphism in Gestalt Theory: Comparison of Wertheimer's and Köhler's Concepts. In: GESTALT THEORY, (2015: Vol. 37, No.1, 69-100. On: gth.krammerbuch.at/sites/default/../Reprint_Luchins.pdf

الجشطالتي فلاحظ التماثلات بين البنى اللغوية وجوانب الإدراك الحسي البصري[1] .

كذلك نجد ربطاً بين الفلسفة الظاهراتية والإدراكيات على أساس أنهما «كلتيهما تعالجان سؤال المقصود من معنى الإنسان ، وكيف أننا قادرون على التفاعل فيما بيننا ومع العالم»[2] . ولقد تأسست عام ٢٠٠٠ الجمعية الدولية للظاهراتية والعلوم الإدراكية (IAPCS) ، وفي عام ٢٠٠٢ صدر عن دار سبرنجر بهولندا Springer العددُ الأول من مجلة (الظاهراتية والعلوم الإدراكية) . وفي ذلك دلالة واضحة على قوة الصلات المعرفية (الإبستمولوجية) بين الإدراكيات والظاهراتية .

ويذهب استظهار الجذور إلى بيان أدوار ريادية لهذا أو ذاك من العلماء أو الفلاسفة . فأحد الباحثين - مثلاً - يذهب إلى أن عالِم النفس الألماني (أوتو سيلز Otto Selz: 1881- 1943) هو رائد مبكر في البحث الإدراكي[3] ، بل هو - في نظر باحث آخر - أحد أهم طلائع الثورة الإدراكية ؛ حيث أكّد دور التشكلات والخططات الذهنية في توجيه عمليات التفكير والإبداعية[4] . وهناك

(1) langacker, 1987: Foundations of Cognitive Grammar. Vol1: Theoretical Prerequisites. Stanford University Press. P. 122.

(2) Charles Dale Hollingsworth: (2005): Martin Heidegger s Phenomenology and the Science of Mind. P.1. A Thesis Submitted to the Graduate Faculty of the Louisiana State University and Agricultural and Mechanical College in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master of Arts. On: etd.lsu.edu/.../unrestricted/Hollingsworth_thesis.pdf

(3) Michael Price: The little-known roots of the cognitive revolution. on: http://www.apa.org/monitor/2011/09/otto-selz.aspx

(٤) للمزيد من التفصيل حول إبستمولوجيا علم النفس عند أوتو سيلز ، وبخاصة تأثيره في فيلسوف العلم الشهير كارل بوبر . انظر :

Michel ter Hark: Popper, Otto Selz and Meinong's Gegenstandstheorie. On: www.rug.nl/research/portal/files/14455566/Popper_otto_selz_and.pdf

من يرى أن ليف فيجوتسكي Vygotsky (١٨٩٦- ١٩٣٤) وإيمانه بالأصول الثقافية الاجتماعية للبنى الإدراكية الذهنية يمثل حلقة في تاريخ الإدراكيات ، بل يذهب فراولي إلى أن هناك «إدراكيات فيجوتسكية Vygotskyan cognitive science»(١) . ولدى مؤرخي الإدراكيات الأوروبيين فإن فيجوتسكي وبياجيه يمثلان الجذور الأوروبية في علم النفس المضاد للسلوكية التي تزامنت سيطرتها في أمريكا مع أعمالهما الإدراكية الرائدة . لقد كان فيجوتسكي وبياجيه مدافعين رئيسيين عن أن العقل الإنساني هو نتاج عمليات بيولوجية وثقافية ، وأن دراسة هذا العقل لا يمكن تحقيقها بدون دراسة آليات النمو التي منها تنبثق القدرات الإدراكية الذهنية والتي تقيّد تنظيم هذه القدرات(٢) . ومن ثم يرى هؤلاء المؤرخون أن جورج ميللر(٣) شوّه تاريخ الإدراكيات عندما لم يأخذ بجدية إسهامَ هذين العالمين الأوروبيين ؛ فلم يشر إلى ريادتهما التي سبقت النشأة الأمريكية للإدراكيات .

ويذهب باحث آخر إلى أن للنظور الإدراكي له جذوره الفلسفية التي يمكن اقتفاؤها في التراث الفلسفي لكل من ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) وكانت Kant (١٧٢٤-١٨٠٤)(٤) . وهنا يلاحظ أن من الإدراكيين من يرى أن الإدراكيات

---

(1) Rosemary Luckin: A Review of: (William Frawley (1997): Vygotsky and Cognitive Science: Language and the Unification of the Social and Computational Mind. Harvard University Press). in: Computational Linguistics. Volume 34, Number 3. PDF on: http://www.aclweb.org/anthology/J98-3010

(2) Jacques Vauclair and Patrick Perret: The cognitive revolution in Europe: taking the developmental perspective seriously. In: TRENDS in Cognitive Sciences Vol.7 No.7 July 2003. On: cogprints.org/3587/1/vauclair_Perret_TICS_03.pdf

(٣) سنعود للحديث عنه لاحقاً .

(4) Edward E. Sampson (1981): Cognitive Psychology as Ideology. In: American Psychologist, July, (733), on: psycnet.apa.org- EE Sampson - American psychologist

تصوّب أخطاء فلسفة ديكارت التي أخذت بـ(ثنائية العقل/ الجسد)، وتصوب فلسفة كانت التي أخذت بـ(مقولة العقل المتعالي)[1]. ومع ذلك فهناك من يصل به الأمر بالنسبة إلى كانت إلى القول بأنه هو «الجد العقلي لعلم الإدراك المعاصر؛ وبخاصة في التبني الواسع لرأيه في أن المدخلات الحسية يلزمها لكي تُثار استعمالُ حالات تصورية أو شبه تصورية، وكذلك رأيه في أن العقل نظام من الوظائف التي تقع خلف المشاهدة»[2]، ثم تقسيمه عملَ العقل إلى قسمين: ملكة الحساسية Sensibility، ووظيفتها هي التقاط المعلومات الحسية الخام، وملكة الفهم understanding المخصصة لتنظيم هذه المادة الخام في تجربة متسقة وذات معنى. وكان من رأي كانت أن الملكة الأولى لا تستدعي الاهتمام؛ ومن ثم خصص جهده الأكبر لتحليل ملكة الفهم[3].

وهناك في تاريخ الجذور أو الإرهاصات الإدراكية اهتمام بالإشارة إلى إسهامات علماء ينتمون إلى المدرسة السلوكية التي قامت الإدراكيات لتقويضها[4]. وهنا لا بد من الإشارة إلى ما يقرره العالمان برايان جينز وميلدريد

---

(١٧) انظر:

George Lakoff and Mark Johnson: (1999): Philosohy in the Flesh: The Embodied Mind and its Challenge to Western Thought. published by Basic Books.

(2) Andrew Brook: Kant and Cognitive Science. pdf on:
http-server.carleton.ca/~abrook/papers/kant-and-cognitive...

(3) Chalmers, D. J., French, R. M. & Hofstader, D. R. (1992): High-level perception, representation, and analogy: A critique of artificial intelligence methodology. In: Journal of Experimental and Theoretical Artificial Intelligence 4:189-211. On:
cognitrn.psych.indiana.edu/rgoldsto/courses/concepts/chalmershigh.pdf

(٤) هناك من يرى أن الإدراكيات ما هي إلا استمرار للسلوكية الآلية mechanistic behaviorism. انظر:
Alan Costall (2004): From Darwin to Watson (and Cognitivism) and Back Again: The Principle of Animal-Environment Mutuality. in: Behavior and Philosophy, 32, 179-195. On: www.behavior.org/resources/159.pdf

شو من أنه على الرغم من سيطرة المبادئ السلوكية فإنها لم تكن سيطرة كاملة على علم النفس[١] . لقد كان ثمة مقاربات متوازنة مثل قيام أستاذ علم النفس في جامعة برنستون كارول برات (1979 -1894) Carroll Pratt بتقديم الاستبطان والسلوك بوصفهما مَوردين للمعطيات النفسية ؛ وذلك في كتابه (منطق علم النفس الحديث) سنة ١٩٣٩م الذي أشار فيه إلى تأثره بمدرسة الجشطالت ، وإلى تسمية مشروعه باسم (الوضعية النقدية Critical Positivism)[٢] . ومثل ما قدمه ألبورت عام ١٩٤١ حين قال عند توليه رئاسة الجمعية النفسية الأمريكية : «إذا كنا نشعر بالرضا أن علم النفس اليوم يصبح بشكل متزايد تجريبياً ، وآلياً ، وكمياً ، وقانونياً ، وتحليلياً ، وإجرائياً ، فيجب أيضاً أن نكون على حذر من أن نستسلم بشكل استعبادي لهذه المزاعم . لم لا نسمح لعلم النفس بوصفه علماً أن يكون أيضاً عقلانيا ، وغائياً ، وكيفياً ، وذاتياً ، وشمولياً ، وغير إجرائي»[٣] .

ولقد كان ثمة اختراقات أخرى من داخل السلوكية نفسها . ومن ذلك على سبيل المثال ما يقرره احد الباحثين من أن عالم النفس السلوكي (إدوارد تولمان : ١٨٨٦-١٩٥٩) كان المعْبر الواصل بين السلوكية والنظرية الإدراكية ؛ وذلك حين زعم - متأثراً بتلقيه لنظريات الجشطالت - أن كل أفعال الكائن الحي تتجه إلى هدف معين عن طريق الإدراكات الذهنية التي هي وعي الكائن الحي بالروابط الممكنة/ المحتملة بين أفعال معينة ونتائج معينة[٤] . ومن خلال هذه النظرة أقر تولمان بوجود متغيرات توسطية intervening variables بين الدافع والاستجابة

(1) Brian R. Gaines and Mildred L. G. Shaw: Personal Construct Psychology and the Cognitive Revolution. p. 2. On: cpsc.ucalgary.ca/~gaines/reports/PSYCH/SIM/SIM.pdf

(2) Carroll Pratt (1939): The Logic of Modern Psychology. pP. Xi, xii. The Macmillan Company.

(3) Brian R. Gaines and Mildred L. G. Shaw: op cit. p. 2.

(4) Hjalmar Wennerstr?m: Chapter six: A transition to modern cognitivism. on: bi.snu.ac.kr/.../Tolman%20and%20the%20Gestaltists.pdf

تحيل إلى حالات ذهنية لاواعية[1]. وما دمنا في إطار الاختراقات التي حدثت بشكل مضاد للسيطرة السلوكية فإننا نشير إلى كل من كارل لاشلي[2] (١٨٩٠ - ١٩٥٨) Karl Lashley وتلميذه دونالد هيب Donald Hebb (١٩٠٤- ١٩٨٥)، وبخاصة دورهما في تأسيس النظرية النفسية العصبونية neurological-psychological theory.

ففي مقالته عام ١٩٥١م بعنوان (مشكلة النظام التسلسلي في السلوك) رفض لاشلي تفسيرات السلوكيين السابقين مثل واطسون (١٨٧٨ -١٩٥٨) وغيره التي كانت تقول بالتسلسل الانعكاسي للمتوالية السلوكية

[الإثارة الناجمة من الحركة ن تؤدي إلى الحركة ن+١، والإثارة الناجمة من هذه تؤدي إلى الحركة ن+٢، والإثارة الناجمة من هذه تؤدي إلى الحركة ن+٣ . . . وهكذا].

وبدلاً من ذلك التفسير دلل لاشلي على تفسير ذي توجه إدراكي أكثر حيث ذهب إلى أن التتابعات السلوكية يتحكم فيها بشكل نمطي خططٌ مركزية لها طابع هرمي[3].

وعندما ظهر كتاب هيب (تنظيم السلوك: نظرية نفسية عصبونية The Organization of Behavior: A neuropsychological theory) عام ١٩٤٩ كان ثمة حركة متنامية في علم النفس يقودها ب. سكينر Skinner تنبذ كل

---

(1) Thomas H. Leahey (1992): The Mythical Revolutions of American Psychology. P. 313. In: American Psychologist. February 1992, Vol. 47, No. 2, 308-318. On: www.le.ac.uk/pc/jrb/Approach/Leahey92.pdf

(٢) كان لاشلي ضمن المشاركين في ندوة هيكسون Hixon Symposium التي يعدها جاردنر الميقات الزمني لانطلاق الإدراكيات.

(3) David A. Rosenbaump; Rajal G. Cohen; Steven A. Jax; Daniel J. Weiss; Robrecht van der Wel (2007): The problem of serial order in behavior: Lashley's legacy. In: Human Movement Science 26 (2007) 525-554. On: gandalf.psych.umn.edu/users/schrater/schrater.../LashleysLegacy.pdf

التفسيرات الإدراكية للسلوك وتقلل من قيمة ربطه بالأسس الفسيولوجية . وجاء كتاب هيب ليكون نقطة تحول بعيداً عن هذا التوجه . ففي هذا الكتاب يصر هيب على أن مشكلة فهم السلوك هي مشكلة فهم العمل الكلي للجهاز العصبي والعكس صحيح[1] . ومع ذلك لا بد أن نشير هنا إلى ما قاله هيب عام ١٩٦٠ في خطاب رئاسته لجمعية علم النفس الأمريكية من أن النزعة الإدراكية الجديدة ترتبط بشكل جوهري بإطار الدافع - الاستجابة ، وهو الإطار السلوكي المعروف ، على الرغم من أن الإدراكيين ليسوا على وعي بهذه الحقيقة[2] . ويقول ريموند كلاين إن معارضة هيب المبدئية للسلوكية المتطرفة وتأكيده على فهم ما يحدث بين المثير والاستجابة (الإدراك الحسي ، والتعلم ، والتفكير) ساعد في جعل الطريق واضحاً أمام الثورة الإدراكية . لقد كانت رؤيته لعلم النفس كعلم بيولوجي ، واقتراحه العصبوني النفسي بخصوص تجمع الخلايا cell-assembly تجديداً للاهتمام بعلم النفس الفسيولوجي . ومنذ وفاته ظلت أفكار هيب تمارس تأثيراً متنامياً على هؤلاء المعنيين بالعقل (العلوم الإدراكية) ، وبالدماغ (العصبونيات) ، وبكيفية تجهيزات الدماغ للعقل (العصبونيات الإدراكية)»[3] .

وفي سياق الحديث ذاته عن الجذور نجد اهتماماً بعالم النفس التجريبي دونالد برودبينت Broadbent (1926 (١٩٢٦-١٩٩٣) صاحب كتاب (الإدراك الحسي والتواصل Perception and Communication الذي ظهر عام ١٩٥٨ ؛ والذي قدم فيه انتقادات كثيرة لنظرية (الدافع والاستجابة) السلوكية ، وكان من

---

(1) Raymond M. Klein (2011): Donald Olding Hebb. In: Scholarpedia, 6(4):3719. on: www.scholarpedia.org/article/Donald_Olding_Hebb

(2) Alan Costall (2004): From Darwin to Watson (and Cognitivism) and Back Again: The Principle of Animal-Environment Mutuality. P.8 n°3. in: Behavior and Philosophy, 32, 179-195. On: www.behavior.org/resources/159.pdf

(3) Raymond M. Klein: The Hebb Legacy. Pdf on: http://www.psych.ualberta.ca/%7Ebbcs99/hebb%20legacy.html

أوائل من استخدموا تشبيه الإدراك الذهني البشري بالحاسوب لوضع إسهامات جادة في تحليل هذا الإدراك . وفي كتابه المشار إليه يقول برودبينت «إن علماء النفس حذرون هذه الأيام من التسليم بوجود أحداث داخل الكيان العضوي . وفي هذا الاتجاه يمكنهم استمداد الدعم من الفيزياء الحديثة التي اضطرت لأن تأخذ في الحسبان العلاقة بين عملية الملاحظة والمفاهيم المستخدمة في التنظير»[1] . كذلك يقول برودبينت «إن من المفضل أن نشرح الحقيقية الفسيولوجية بالإشارة إلى دورها في وظيفة نفسية مفهومة جيداً»[2] .

وفي بعض الأحيان يتجه البحث عن الجذور إلى فرع علمي إدراكي بعينه ؛ فيقال مثلاً عن (اللسانيات الإدراكية) إنها «الوريث الشرعي لتراث أقدم ، يعود إلى ما قبل هيمنة السلوكية في علم النفس منتصف القرن العشرين التي منها حرر العلمُ الإدراكي الكلاسيكي (الجيلُ الأول) علومَ العقل[3] . هذا التراث الأقدم الذي تركز في علم النفس ولكنه أخذ بكثافة من علم الأحياء واللسانيات والفلسفة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ، كان نوعاً من الإدراكيات الطليعية التي تمثلت في تراث (علم نفس اللغة) الألماني من فونت Wundt وعبر علم نفس الجشطالت إلى بوهلر Bohler ، وفي الإبستمولوجيا التكوينية عند بالدوين وبياجيه ، وفي النظرية الاجتماعية الإدراكية حول الذاكرة عند بارتليت ، وفي النظريات الاجتماعية الوراثية عند فيجوتسكي وميد Mead حول نمو اللغة والإدراك الذهني ، وبطبيعة الحال في اللسانيات ذات التوجه الاجتماعي النفسي في أمريكا (بواز ، سابير ، وورف) وفي أوروبا (مييه ،

(1) Broadbent, D. E. (1958): Perception and Communication. p. 302. Pergamon Press.

(2) Ibid. p. 305

(3) Chris Sinha (2001): Cognitive Linguistics, Psychology and Cognitive Science. Draft Chapter for D. Geeraerts and H. Cuyckens (Eds.) Handbook of Cognitive Linguistics. On: citeseerx.ist.psu.edu/viewdoc/download?doi=10.1.1.20.6827...pdf

باختين ، فولوسينوف) ، وكذلك في وظيفية مدرسة براغ (ياكوبسون ، موكاروفسكي ، تروبتسكوي)»[1] .

وأحيانا يتجه الحديث عن الجذور إلى أحد فروع الفرع نفسه ؛ وذلك كالحديث عن جذور أحد فروع (اللسانيات الإدراكية) وهو (اللسانيات الإدراكية الإثنية[2] cognitive ethnolinguistics) المعنية ببحث العلاقة بين الثلاثية (اللغة والثقافة والعقل) فيقال إن جذور هذا الفرع تعود إلى المدرسة العلمية الألمانية[3] .

وأحياناً أخرى يتجه البحث إلى نظرية إدراكية معينة فيقال مثلاً إن نظرية (الأنماط الأصلية prototypical للمفاهيم) تعود إلى بعض أفكار الفيلسوف الألماني فيتجنشتين (١٨٨٩- ١٩٥١)[4] وبخاصة «ملاحظته الشهيرة أن الأشياء التي يغطيها مصطلحٌ واحد غالباً ما تتشارك في تشابه عائلي a family

---

(1) Ibid. p.1

(٢) تمثل المحاور التالية الجوانب الأساسية في المعالجة داخل اللسانيات الإدراكية الإثنية : (١) رؤية العالم (٢) القيم الكامنة تحت هذه الرؤية للعالم (٣) النمط الأصلي كعنصر في الرؤية اللغوية للعالم (٤) التعريف الإدراكي كمنهج لوصف التنميطات (٥) وجهة النظر والمنظور (٦) التنميط (٧) الذات الواضعة للتصور وللتنميط . وتأخذ اللسانيات الإدراكية الإثنية عدة تسميات أخرى منها : اللسانيات الثقافية ، وعلم الثقافة اللغوي linguo-culturology ، واللسانيات الأنثروبولوجية ، واللسانيات الأنثروبولوجية الثقافية ، والأنثروبولوجيا اللغوية . للمزيد انظر :

Jerzy Bartminski (2009): Linguistic worldview as a problem of cognitive ethnolinguistics. P. 3. In: SCLA, Praha, October 15-17 On:

languages.uchicago.edu/scla/handouts/SCLC2009Bartminski.pdf

(3) Jerzy Bartminski (2009): Linguistic worldview as a problem of cognitive ethnolinguistics. P. 3. In: SCLA, Praha, October 15-17 On:

languages.uchicago.edu/scla/handouts/SCLC2009Bartminski.pdf

(4) Paul Thagard (2009): Why Cognitive Science Needs Philosophy and Vice Versa? p. 238. In: Topics in Cognitive Science 1 (2009) 237-254 Cognitive Science Society, Inc. on:

cogsci.uwaterloo.ca/Articles/whycogsci.2009.pdf

خصائص ماهية جامعة مانعة كما resemblance[1]، ولا يجمعها بالضرورة كانت تقول نظرية الحد الأرسطية . وهذا الربط بين نظرية الأنماط الأصلية ونظرية فيتجنشتين ورد بوضوح عند روش وميرفيز Rosch and Mervis – وهما رائدا التحقق التجريبي من النظرية الأولى – في مقالة مشتركة لهما عام ١٩٧٥م أخذت في عنوانها مفهوم فيتجنشتين نفسه : (التشابهات العائلية : دراسات في البنية الداخلية للمقولات)[2] .

أما نظرية (الإدراك المتجسدن embodied cognition) فيُذكَر أن ملامحها تأسست عند ميرلوبونتي (١٩٠٨ – ١٩٦١)[3]، بل قبل ذلك عند جون ديوي (١٨٥٩ – ١٩٥٢) في رأي باحث آخر[4] . وبمناسبة ذكر هذين العلمين فإننا نجد رائدين إدراكيين كبيرين – لاكوف وجونسون – يوجهان لهما منذ مستهل كتابهما (الفلسفة في اللحم الحي) تقديراً استثنائياً واضحاً يعبران فيه عن

---

(1) Margolis, Eric and Laurence, Stephen, "Concepts", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Spring 2014 Edition), Edward N. Zalta(ed.), URL = http://plato.stanford.edu/archives/spr2014/entries/concepts/

وللمزيد من التفصيل حول مفهوم (التشابه العائلي) في فلسفة فتجنشتين انظر : د . محمد غاليم : تصور السمات الدلالية : نموذج فتجنشتين وبعض امتداداته في النظرية اللسانية الحديثة . ص٩ وما بعدها ، في مجلة اللسانيات العربية (مركز الملك عبد الله لخدمة اللغة العربية– الرياض) : العدد ١ يناير ٢٠١٥م .

(2) Rosch and Mervis (1975): Family Resemblances: Studies in the Internal Structure of Categories. Pp. 574- 575. In: COGNITIVE PSYCHOLOGY 7, 573-605 (1975). On: matt.colorado.edu/teaching/categories/rm75.pdf

(3) John Mingers (2001): Embodying information systems: the contribution of phenomenology. P.114 . in: Information and Organization 11 (2001) 103-128. On: www.elsevier.com/locate/infandorg

(4) Krist Vaesen (2014): Dewey on Extended Cognition and Epistemology. In: Philosophical Issues, 24, Extended Knowledge. On:
home.ieis.tue.nl/kvaesen/Dewey_ONLINE.pdf

دَينهما الإبستمولوجي لهما بوصفهما نموذجين لـ(الفلاسفة المسئولين إمبريقياً[1] empirically responsible philosophers) . وإذا كانت نظرية الشبكة العصبونية neural-network theory تحتل مكانة محورية في نظرية الجسدنة الإدراكية فإن هيوبرت دريفوس يذهب إلى أن هذه النظرية تدعم ظاهراتية ميرلوبونتي[2] . وفي مجلة (السيميائية الإدراكية) ثمة مقالة علمية مهمة جاءت تحت عنوان (تجسيد اللغة والتذاوت Fleshing : تمحيص تراث ميرلوبونتي في اللسانيات الإدراكية)[3] وفيها يفحص بول سامبر «كيف أن عمل اللسانيات الإدراكية في المفهمة conceptualization والتذاوت intersubjectivity[4] تردد أصداءَ تأملات ميرلوبونتي القديمة في فكرة التذاوت التي هي العامل المفتاح في الجسدنة واللغة»[5] .

هذه الإشارات المتناثرة حول جذور العلوم الإدراكية ظلت بحاجة إلى دراسة تاريخية منظمة . ولعل الدراسة المهمة التي تستحوذ على تقدير علمي واضح لدى المعنيين بتاريخ العلوم الإدراكية ؛ وأعني بها دراسة الدكتور هوارد جاردنر

(1) George Lakoff and Mark Johnson (1999): Philosophy in the Flesh: The Embodied Mind and its Challenge to Western Thought. Basic Books.

(2) Hubert L. Dreyfus: The Current Relevance of Merleau-Ponty's Phenomenology of Embodiment. on: The Electronic Journal of Analytic Philosophy, (4 Spring 1996).

(3) Paul Sambre; Fleshing out Language and Intersubjectivity: An Exploration of Merleau-Ponty s Legacy to Cognitive Linguistics. Pp. 188- 223. In: Journal of Cognitive Semiotics. Vol. 4 No. 1. On: www.cognitivesemiotics.com

(٤) «التذاوت مفهوم يشير إلى تعلم الذوات الفردية المستقلة كيفية قراءة كل ذات منها لعقل الذات الأخرى لكي يتم لهما التفاعل» -انظر هذا التعريف في :

Riccardo Fusaroli, Paolo Demuru, Anna M. Borghi: The Intersubjectivity of Embodiment. p.1. on: pure.au.dk/portal/files/47919167/0_Intro.pdf

(5) Ibid. p. 188

(العلم الجديد للعقل : تاريخ الثورة الإدراكية)(١) تمثل وفاء سديداً بهذا الغرض . غير أن ثمة حقيقة يلزم التنبه إليها والوعي بها . وهي أننا تحت عنوان (الإدراكيات) لا نتحدث عن كيان معرفي متجانس ومنسجم وموحد . فنحن في الحقيقة نجد أن ثمة في أدبيات الإدراكيات تبادلاً في استخدام الصيغتين (cognitive sciences) بالجمع و(cognitive science) بالمفرد . وحول هذه المسألة يقول فيلسوف الإدراكيات الفرنسي دنيال آندلر «إن كثيراً من المداد أُريق حول مسألة المفرد/ الجمع . ففي فرنسا صيغة الجمع هي الحالة العادية ، أما صيغة المفرد (وهي نادرة) فتدل على تأكيد التوحيد النظري الذي لا يدعمه معظم المشتغلين في المجال . وفي الإنجليزية يمكن أن تُستخدَم صيغة science كـ(اسم جمع) - كما في (science) ببساطة ، أو كما في (social science) وكلاهما شائع - ولا يتضمن التزاماً بأطروحة الوحدة . وهذا هو أيضاً المعنى الذي تستخدم به صيغة science في الإنجليزية ، بوصفها الصيغة الأكثر شيوعاً ، وبوصفها الصيغة المحايدة (غير الموسومة بالمصطلح اللساني) ، أما صيغة الجمع فتدل على محاولة التخلي عن الوحدة (كواقع أو كأفق) . ولقد كان ذلك هو اختيار محرري موسوعة MIT في العلوم الإدراكية MIT Encyclopedia of Cognitive Sciences . ففي هذا المثال يبدو النحو متقلباً ولا يمكن الاعتماد عليه في تقديم أي غرض مفيد»(٢) .

وفي دراسة حديثة (٢٠١٣) تبدأ فصلها الأول بعنوان (العلوم الإدراكية وحدة أم كثرة؟) يدفع دوسون نظرية وحدة العلم الإدراكي قدماً فيضع كتابه على هذا الأساس مع تصور مؤداه أن العلم الإدراكي هو الآن في طور ماقبل

(1) Howard Gardner: (1987): The Mind's New Science: A History of the Cognitive Revolution. Basic Books.

(١) انظر :

Daniel Andler (2005): Cognitive Science. On:

ftp://ftp.cordis.europa.eu/pub/foresight/docs/kte_cognitive.pdf

النموذج العلمي pre-paradigmatic وفق مصطلح توماس كون في بنية الثورات العلمية ؛ بمعنى أننا إزاء عدد من رؤيات العالم تحاول أن تحدد المجال العلمي وأن تسيطر عليه[١] .

ولعله مما يزيد المسألة تعقيداً أن (الإدراكيات The cognitive sciences) تُطلق على ثلاث موجات : موجة الخمسينيات التي اقتلعت السلوكية وأسست الحقل ، وكانت كلمتها المفتاح الأساسية هي (المعلومات) . والموجة الثانية في السبعينيات ووضعت في الصدارة المادةَ والطاقة ، وكانت كلمتها المفتاح هي (الدماغ) . والموجة الثالثة تتجسد في النظرية التطورية ومسائل النمو ، وكلمتها المفتاح الرئيسية هي (التغيير)[٢] . وإزاء تلك الحقيقة فإن الربط بين الإدراكيات والجذور التاريخية قد ينصرف إلى التأثيرات والتماثلات الخاصة بموجة معينة دون الأخريين .

وعلى أية حال فإننا في سياق التأصيل التاريخي الذي قدمه جاردنر نجد أن ثمة معالم بالغة الأهمية والدلالة على أن المسرح العلمي منذ عقدي الثلاثينيات والأربعينيات - على الأقل- من القرن الميلادي الماضي كان يتهيأ بصعود تدريجي إلى التحول لظهور هذه الإبستمولوجيا الجديدة .

فهل هذا التحول يمكن أن يضيئه تعريفات العلم الإدراكي؟ لنأخذ مثلاً التعريفين الآتيين للـ(العلم الإدراكي) : الأول هو أنه «الدراسة العلمية المتداخلة

---

(١) انظر :

Michael R.W. Dawson (2013): Mind, Body, World: Foundations of Cognitive Science. Published by AU Press, Athabasca University

(٢) انظر :

Luca Tommasi, Mary A. Peterson and Lynn Nadel (eds.): (2009): Cognitive Biology: Evolutionary and Developmental Perspectives on Mind, Brain and Behavior. P. 4. The MIT Press Cambridge, Massachusetts.

الاختصاصات للعقل»[1] . والثاني تعريف فيلسوف الإدراكيات الفرنسي دانيال أندلر ؛ وهو «العلم الإدراكي يضم تنويعـة من العلوم والمقـاربات بهـدف تقـديم تفسير علمي متكامل للعقل : حالاته ، وعملياته ، ووظائفه»[2] . ومن الواضح أن مثل هذه التعريفات تؤكد حقيقة مهمة أشار إليها الباحثون وهي أن هذا العلم - شأنه شأن العلوم الثرية - يتحدى التعريفات البسيطة . وفي تصوري أن التعريف التالي ربما يكون أكثر نجاعة في تغطية مشروع العلم الإدراكي بتطوراته المتتابعة : «العلم الإدراكي هو الدراسة العلمية للعقول والأدمغة ، سواء أكانت عقولاً حقيقية أم اصطناعية ، إنسانية أم حيوانية»[3] .

ومن الواضح أنه في بؤرة هذا التعريف تقع الغاية المستهدفة ؛ وهي دراسة العقل . وبالنسبة إلى العقل الإنساني فإن هذه الغاية هي بطبيعة الحال الوصول إلى «تطوير نظرية عن الإدراك الذهني تكون قوية بالقدر الذي يمكّنها من شمول كل القدرات الذهنية الإنسانية»[4] .

والسؤال الذي آن له ان يطرح بعد العرض السابق هو : هل ثمة بداية محددة لقيام مشروع العلم الإدراكي؟ وهنا يبدو أن ثمة بدايتين مختلفتين :

* هيوارد جاردنر[5] - مؤرخ الإدراكيات الكبير - يبدأ مع ندوة هيكسون

---

(1) Jay Friedenberg & Gordon Silverman. op cit, p.2.

(2) Daniel Andler (2009): Philosophy of Cognitive Science. In: A. Brenner & J. Gayon, eds., French Studies in the Philosophy of Science: Contemporary Research in France, Springer, 2009. pp. 255-300. On:

http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:FppC38KgiNIJ:andler.dec.ens.fr/pdf/

(3) Lynn Nadel and Massimo Piattelli-Palmarini (2002): What is Cognitive Science?. In: General introduction to: L. Nadel (Editor-in-Chief) The Encyclopedia of Cognitive Science . Macmillan. on: dingo.sbs.arizona.edu/~massimo/publications/PDF/LN&MPPIntro.pdf

(4) Catherine L. Harris: Language and Cognition . P.1; pdf on: www.bu.edu/psych/charris/papers/Encyclopedia.pdf

(5) Howard Gardner, The Mind's New Science. Op cit, ch. 2.

The Hixon Symposium في معهد كاليفورنيا للتقنية التي عقدت في خريف عام ١٩٤٨ ، وكان موضوعها (آليات المخ في السلوك Cerebral Mechanisms of Behavior) ، وقد التقى فيها لمدة أسبوع تسعة عشر عالماً من أعلام عدة حقول علمية (الرياضيات ، والكيمياء ، والتشريح ، والعصبونيات ، وعلم النفس ، والتحليل النفسي) ، وقد نشرت أوراق هذه الندوة ومناقشاتها عام ١٩٥١م . ويرى (جاردنر) أن هذه الندوة تمثل بداية الانطلاق نحو تطوير نظريات عن العقل تستطيع الإقلاع بعيداً عن مقاربات دوسوسير ، وعن المنهجية السلوكية في علم النفس وفي اللسانيات ، وعن مقاربات فرويد السيكولوجية ، وعن تقاليد فلسفية تجريدية وتأملية ممتدة .

* جورج ميللر[١] (١٩٢٠ - ٢٠١٢م) - أحد الرواد المؤسسين لعلم النفس الإدراكي وللسانيات النفسية . يبدأ مع (ندوة نظرية المعلومات Symposium on Information Theory) التي عقدت في معهد ماساتشوسيتس للتقنية MIT ، والتي نظمتها جماعة خاصة معنية بنظرية المعلومات في الحادي عشر من سبتمبر عام ١٩٥٦م .

وأيا ما كانت نقطة البداية فإننا نقول إن العلوم الإدراكية cognitive sciences التي نقصدها انبثقت في منتصف القرن العشرين . وبطبيعة الحال لا بد أن نشير إلى بعض المعالم المهمة في رحلة الإدراكيات خلال النصف الثاني من القرن الميلادي الماضي . ففي عام ندوة ماساتشوسيتس (١٩٥٦)[٢] تظهر

---

(1) Miller, George A. (2003). "The cognitive revolution: a historical perspective". TRENDS in Cognitive Sciences 7 (3): 141-14

(٢) من المفارقات الدالة أن هذا العام نفسه (١٩٥٦) هو الذي شهد تكريساً لتحول (علم النفس الفرنسي) إلى تبني النموذج السلوكي الوضعي ، متخلياً بذلك عن تراث ممتد من سعي هذا العلم ، ومعه جهود عالم الاجتماع موس Mauss ، لتأسيس علم عام موحد يدرس الإنسان في كليته wholeness of man ؛ الكلية النفسية للفرد ؛ أي لجسده ووعيه [p. 111] وليس الإنسان مجزأ على عدة أنظمة علمية . ولقد تجسد هذا التكريس في قيام بول فريس Paul Fraisse عام ١٩٥٦م بإنشاء مجلة =

مقالة جورج ميللر الرائدة في الإدراكيات، والتي استحوذت على انتشار علمي هائل، وجاءت تحت عنوان (الرقم السحري ٧ زائداً اثنين أو ناقصاً اثنين: بعض القيود على قدرتنا على تشغيل المعلومات)٥٨، وفيها يدلل على أن مدى الذاكرة القصيرة الأمد short-term memory لدى البشر لا يتسع لأكثر من سبعة عناصر (قد تزيد إلى تسعة، أو تنقص إلى خمسة) في وقت واحد، سواء كانت هذه العناصر نغمات، أو أرقاماً، أو كلمات، أو تعبيرات مركّبة phrases؛ الأمر الذي يعني أن الذهن البشري محصور بالرقم ٧؛ أي بسبع وحدات (أسماها ميللر بالقِطَع chunks) تزيد أو تنقص اثنتين.

ويأتي عام ١٩٦٠ ليتأسس على يد جورج ميللر، وجيروم برونر Jerome Bruner في الولايات المتحدة (مركز الدراسات الإدراكية Center for Cognitive Studies) في جامعة هارفارد.

وفي عام ١٩٧٣ يبدأ مصطلح (العلوم الإدراكية) حياته على يد هاف كريستوفر لونجيت - هيجنز Hugh Christopher Longuet-Higgins (١٩٢٣-٢٠٠٤م) الذي جمع بين الاشتغال بالكيمياء النظرية ودراسة الذهن البشري والذكاء الاصطناعي. ففي تعليقه على التقرير الذي قدمه ميشيل جيمس ليتهيل M.J. Lighthill (١٩٢٤-١٩٩٨) للمجلس العلمي البريطاني عن وضعية (الذكاء الاصطناعي) كتب هيجنز: «إن السؤال: ما العلم أو العلوم التي من

= علم النفس الفرنسي Psychologie Franfaise التي تبنت المنظور السلوكي .[p. 116] وبطبيعة الحال فهذا نموذج للتأثير الأمريكي، وللتأثر بأثر رجعي، في مسيرة العلوم الحديثة. للتفصيل انظر:

Franqoise Parot (2000): Psychology in the Human Sciences in France, 1920-1940: Ignace Meyerson's Historical Psychology. in: History of Psychology 2000,Vol. 3, No. 2, 104-121. On: psycho.univlyon2.fr/sites/psycho/../pdf/Meyerson.pdf

(1) The Magical Number Seven, Plus or Minus Two: Some Limits on Our Capacity for Processing Information . On:
homepage.psy.utexas.edu/homepage/class/../MagicNumberSeven.pdf

المحتمل أن تشريها دراسات الذكاء الاصطناعي؟ يمكن أن يتلقى الآن إجابة تمهيدية ؛ وهي : [يشريها] كلُّ هذه العلوم التي تتصل مباشرة بالفكر والإدراك الإنسانيين . هذه العلوم الإدراكية cognitive sciences ربما يمكن تجميعها تحت أربعة اتجاهات رئيسة :

١- الاتجاه الرياضي Mathematical : ويشمل المنطق الصوري ، ونظرية البرامج ولغات البرمجة ، والنظرية الرياضية في التصنيف وفي بنى البيانات المركبة .

٢- الاتجاه اللساني : ويشمل الدلاليات ، والتركيب ، والصوتيميات ، والصوتيات .

٣- الاتجاه النفسي : ويشمل سيكولوجية الإبصار ، والسمع ، واللمس .

٤- الاتجاه الفيزيولوجي Physiological : ويشمل دراسة وظائف الأعضاء الحسية ، والدراسة المفصلة لمختلف أعضاء الدماغ brain»[١] .

وفي عام ١٩٨٠ يرسم دون نورمان للعلوم الإدراكية جدول أعمال يتكون من اثنتي عشرة مسألة هي كما في الجدول التالي[٢] :

---

(1) H C Longuet-Higgins: Comments on the Lighthill Report and the Sutherland Reply on: http://www.chilton-computing.org.uk/ inf/literature/reports/ lighthill _report/ p004.htm

(2) Norman, D. A. (1980). Twelve issues for cognitive science. In: Cognitive Science, 4, ١-٣٢ نقلاً عن:

Michael Cole: Culture and Cognitive Science. P.7. in: Outlines: No. 1, 2003. Pdf on: lchc.ucsd.edu/People/MCole/Culture-n-Cognition.pdf

Don Norman's (1980) 12 Issues for Cognitive Science

جدول دون نورمان (١٩٨٠) : ١٢ مسألة في العلم الإدراكي

Belief Systems	Consciousness	Development
أنساق الاعتقاد	الوعي	النمو
Language Perception	Interaction	Emotion Learning
تعلم العواطف	التفاعل	إدراك اللغة
Performance	Memory Skill	Thought
الأداء	مهارة الذاكرة	التفكير

وما إن نصل إلى أواخر عقد الثمانينيات حتى يتضح لمؤرخي الإدراكيات أن هناك مركزين يسيطر على كل واحد منهما مفاهيمُ للإدراكيات مختلفة جذرياً عن المفاهيم التي يتبناها الآخر : الأول في الـ MIT والدوائر القريبة منه في الساحل الشرقي للولايات المتحدة، والثاني في كاليفورنيا[١] .

ووفق قائمة موسوعة ويكيبيديا فإن هناك في الولايات المتحدة وحدها حالياً ثلاثاً وخمسين مؤسسة (جامعة ومعهداً ومركزاً) تمنح درجات علمية في العلوم الإدراكية[٢] .

وفي هذا السياق التاريخي الوجيز للعلوم الإدراكية يشار إلى ستة رواد شهيرين، وإلى المجال الرئيس الذي برز فيه الإسهام الإدراكي لكل منهم : جورج ميللر (في : علم النفس الإدراكي)، وجون مكارثي J. McCarthy ومارفن مينسكي Marvin Minsky وألين نيوويل Allen Newell وهربرت سيمون Herbert

(1) Daniel Andler (2009): op cit, p. 3, note 2

(٢) انظر (List of institutions granting degrees in cognitive science) في Wikipedia

Simon (في : الذكاء الاصطناعي)[١] ونوام تشومسكي (في : اللسانيات) . ومن ثم اعتُبِر هؤلاء هم مؤسسو (العلم الإدراكي) .

وفي سياق الإشارة إلى هؤلاء الرواد لا بد من التنبه هنا بصفة خاصة إلى أن عدّ تشومسكي من بينهم لا يعني إلا وضعه ـــ أو استرجاعه- لمكانة (العقل) في دراسات العلوم اللسانية . فهو قد قدّم أطروحته الجريئة التي ذهبت إلى أن اللسانيات تشكل فرعاً من فروع علم النفس ، وبالتحديد علم النفس الإدراكي . أما ما عدا ذلك فإن أحد أهم مجالات العلوم الإدراكية ؛ وأعني به اللسانيات الإدراكية ، يمثل ثورة مضادة لمشروع تشومسكي اللساني نفسه . وفي هذا السياق يشير عبد الرزاق بنور إلى عدد من العلماء الذين انفصلوا عن النظرية التوليدية وعن علم الدلالة الصوري ، وأعلنوا أنفسهم من العرفانيين (= الإدراكيين) ، ولا يُستثنَى من هؤلاء إلا جاكندوف الذي رفض الفصل بين النظريتين ، بل حاول أن يوفق بينهما على أنهما نظرية واحدة[٢] .

ويمكن في هذا السياق أن نشير إلى تلك الانتقادات التي قدمها جورج لاكوف وهنري ثومبسون في مقالتهما المشتركة (تقديم النحو الإدراكي) عام ١٩٧٥م . لقد تأسست هذه الانتقادات على ما توصلت إليه تجارب اللسانيين النفسيين ؛ لتذهب إلى أن «الأنحاء grammars ليست إلا مجموعات من استراتيجيات إنتاج الجمل وفهمها . . . وأن البنية اللغوية محددة تماماً بالتمثيل الإدراكي للمعنى»[٣] . وهذا التمثيل للمعنى يقوم على حقيقة أن «الإدراك

---

(١) مارفن مينسكي وجون مكارثي هما مؤسسا (معمل الذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence Laboratory) في MIT عام ١٩٥٩م .

(٢) انظر : راي جاكندوف : علم الدلالة والعرفانية . ترجمة عبد الرزاق بنور . ص١٧- ١٨- المركز الوطني للترجمة - تونس- ٢٠١٠

(3) Lakoff, G. & Thompson, H (1975): Introducing cognitive grammar. P. 295, In: Proceedings of the First Annual Meeting of the Berkeley Linguistics Society (1975), pp. 295-313, pdf via eLanguage.

الإنسـاني ينبني على أسس بيـولوجيـة وكـذلك على أسس اجـتـمـاعـيـة وثقافية»[١] .

وفي مواجهة قول تشومسكي بفطرية اللغة التي جسّدها في البداية بمفهوم (جهاز اكتساب اللغة) ثم بعد ذلك بنظرية (النحو الكلّي) ، نجد برونر مثلاً يطرح بديلاً آخر في نمو اللغة ، وفي نمو الإدراك بصفة عامة ، أطلق عليه (نظرية التفاعل الاجتماعي social interactionist theory) التي تتأسس على الدور الجوهري الذي يلعبه البعد التداولي السياقي والثقافي في اكتساب اللغة . وفي حين أن (المعنى) في اللسانيات الإدراكية يكمن في تفاعل الإدراك الإنساني مع التجربة ، ومع التواصل الإنساني ، ومع التطور البيولوجي ، ومع التطور الثقافي ، أو لنقل بصياغة أخرى : في حين أن «البنية العميقة» عند الإدراكيين هي «بنية الواقع وفق ما تتم ممارسته في الإدراك والفعل»[٢] ، فإن البنية العميقة عند تشومسكي مسألة لغوية ، و(المعنى) عنده يقع في (التركيب الصوري formal syntax) للجملة ؛ وهو التركيب الذي يستهدف صوغه وحوسبته في نحو كلّيّ universal كقواعد فطرية كلية تولّد جميع أنحاء grammars اللغات الإنسانية . وفي هذا السياق يقول ليكوف وجونسون «لا وجود لهذا الشخص التشومسكيّ [نسبة إلى تشومسكي] الذي تكون اللغة بالنسبة إليه تركيباً syntax خالصاً ، شكلاً خالصاً معزولاً ومستقلاً عن كل معنى وسياق وإدراك حسي وشعور وذاكرة وانتباه وفعل ، وعن الطبيعة الحركية للتواصل . بل أكثر من ذلك فإن اللغة الإنسانية ليست استحداثاً وراثيا بصفة كلية . والأحرى هو أن الجوانب المركزية للغة تنبثق بشكل تطوري من الأنظمة الحسية والحركية

---

(1) W. Bechtel, A. Abrahamsen, and G. Graham: 2001: Cognitive Science History. In: International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences. Elsevier Science Ltd.

(2) Robin Allott: 2001: ch.7 - pp. 224-243 - (Language, Perception and Action: Philosophical Issues) in: The Natural Origin of Language: The Structural Inter-relation of Language, Visual Perception and Action. Xlibris, Corp. on: http://cogprints.org/3540/1/meaning.htm

والعصبونية الموجودة في الحيوانات (الدنيا)»[١] . إن التسليم بمنظور الفطرية ، ومن ثم بمنظور الكليات اللغوية ، عند تشومسكي يقود بالضرورة إلى التسليم بأمرين هما :

١ . «أنه لا ينبغي أن نقبل بأي نوع من اللغات عبر التاريخ يقلب المبادئ اللغوية التي تَوصلنا إلى فهمها بحدسنا وبفحص المدونات اللغوية من اللغات المعاصرة .

٢ . أنه يجب علينا أن نحكم بأن الأفعال الإنسانية والأفكار الإنسانية عبر التاريخ قد تم إنتاجها بناء على أنواع الأسس نفسها التي تنتج اليوم الأفكارَ والنوازع التي نملكها كبشر»[٢] .

وهذان الأمران لا يمكن التسليم بهما في المنظور الإدراكي .

وفي مواجهة هذه الثورة الإدراكية لا بد أن نشير إلى أن تشومسكي من جانبه ظل ينتقد اللسانيات الإدراكية واصفاً إياها ـــ في أحد حواراته القريبة[٣] مثلاً- بأنها لا تجيب عن الأسئلة التي من المفترض أن تجيب عنها ؛ وأهمها سؤال : ما اللغة؟ .

على أنه من المهم أن نقول هنا إن هذا الاختلاف نفسه مع لسانيات تشومسكي كان من العوامل المحركة والدافعة إلى مزيد من تطور العلم

---

(1) Lakoff, Johnson (1999): Philosophy in the Flesh,. P. 6. New York

(2) Patrick Honeybone: History and historical linguistics: two types of cognitive reconstruction? in: Davies, S., Langer, N. & Vandenbussche, W. (eds.) (2011) Language and History, Linguistics and Historiography. Bern: Peter Lang. on: www.lel.ed.ac.uk/homes/patrick/histlinghist.pdf

(3) Noam Chomsky interviewed by Reddit Blog, March 12, 2010. On: http://www.chomsky.info/interviews/20100312.htm

الإدراكي[1] نظرية وتطبيقاً .

هذا التطور يدلل عليه ما نشهده من إسهامات حقول معرفية متعددة ومتزايدة في مجال الإدراكيات . فجورج ميللر[2] يمثل للإدراكيات في مرحلة النشأة بـ(دراسات الذكاء الاصطناعي ، والعصبونيات neuroscience ، والأنثروبولوجيا ، وعلم النفس ، واللسانيات ، والفلسفة) . ويمثل لها هربرت سيمون عام ١٩٨٠ بـ(علم النفس ، واللسانيات ، وعلوم الحاسب ، والاقتصاد ، والإبستمولوجيا ، والعلوم الاجتماعية بصفة عامة»[3] . وتمثل لها موسوعة MIT للعلوم الإدراكية[4] عام ١٩٩٩م بـ(علم النفس ، والعصبونيات ، واللسانيات ، والفلسفة ، والأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية بشكل أعم ، والبيولوجيا التطورية ، والتعليم ، وعلم الحاسب ، والذكاء الاصطناعي ، وعلم السلوك الحيواني ethology)[5] .

(١) يمكن أن نسوق مثالاً جيداً لتطور الجدل الإدراكي مع أطروحات تشومسكي ؛ وهو دراسة :

Dor, Daniel and Eva Jablonka (2001). How Language Changed the Genes: Towards an Explicit Account of the Evolution of Language. In: Trabant, Jurgen and Sean Ward (eds.), New Essays on the Origin of Language. Mouton de Gruyter. On: people.socsci.tau.ac.il/mu/danield/files/.../09dorj.pdf

(2) George A. Miller,(2003) op cit.

(3) Herbert Simon (1980): Cognitive Science: The Newest Science of the Artificial. In: COGNITIVE SCIENCE 4, 3346 (1980). On:
http://csjarchive.cogsci.rpi.edu/1980v04/index.html

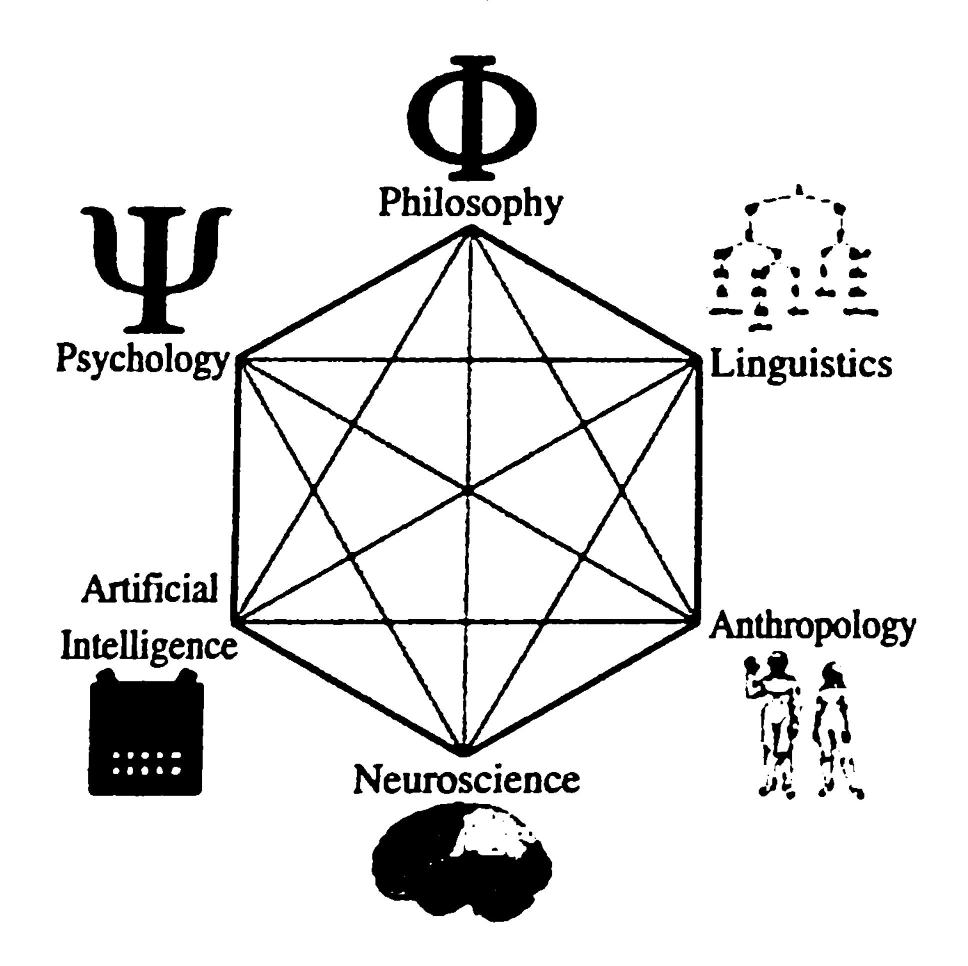
(4) The MIT Encyclopedia of the Cognitive Sciences. Edited by Robert A. Wilson and Frank C. Keil. 1999, (preface). Massachusetts Institute of Technology.

(٥) «التعريف الأكثر انتشاراً لـ(الإيثولوجيا الإدراكية) هو أنها الدراسة التطورية والمقارنة لعمليات التفكير ، أو الوعي ، أو الافتراضات ، أو الحصافة ، لدى الحيوان غير الإنساني» .

Cognitive ethology is broadly defined as the evolutionary and comparative study of non-human animal . thought processes, consciousness, beliefs, or rationality : انظر

Marc Bekoff (1995) Cognitive Ethology and the Explanation of Nonhuman Animal Behavior. In: Comparative Approaches to Cognitive Science. J.A. Meyer and H. L. Roitblat, eds. 119-150. On: http://cogprints.org/157/1/199709002.html

على أنه ينبغي الإشارة هنا إلى أن هذه العلوم المختلفة كان ازدهارها الإدراكي متفاوتاً عبر السنوات : «فعلم الحاسوب ، وعلم النفس لعبا دوراً قوياً دائماً . أما العصبونيات فدورها في المستهل كان قوياً ، ولكن هذا الدور اضمحل في السنوات المباشرة التالية لمؤتمر عام ١٩٥٦ في مقابل صعود مثير (دراماتيكي) للسانيات . وخلال السبعينيات قدمت علوم مثل الفلسفة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا إسهامات مميزة . وحديثاً مع بزوغ العصبونيات الإدراكية أصبحت العصبونيات مرة أخرى صاحبة الإسهام المركزي»[1] .



(مخطط جورج ميللر : العلوم الإدراكية في عام ١٩٧٨م)
ويمثل الخط الرابط بين علمين نظاماً علمياً للتداخل الاختصاصي
وفق ما كان قائماً عام ١٩٧٨م

---

(1) W. Bechtel, A. Abrahamsen, and G. Graham: 2001: Cognitive Science History. In: International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences. Elsevier Science Ltd.

ومهما يكن من أمر حركة هذه العلوم صعوداً وتأثيراً أو تراجعاً وخفوتاً فإن ما يعنينا هنا هو ذلك الاستهلال لـ(الإبستمولوجيا الإدراكية) في جملة من علوم مجالات مختلفة رأت أن «التفكير يمكن فهمه في إطار بنيات تمثيلية[1] في العقل، وفي إطار إجراءات حوسبية[2] تشتغل على هذه البنيات»[3]. فهل نحن إذن أمام ما يمكن تسميته بـ(تحول البارادايم a paradigm shift)؛ أي أمام (ثورة علمية) بالمعنى الذي أعطاه توماس كون لهذا المصطلح في كتابه (بنية الثورات العلمية)؟

---

(١) التمثيل representation من أهم المفاهيم الجارية في الإدراكيات. ولهذا المفهوم تعريفات متعددة، ما يهمنا منها هنا أنه حالة فيزيقية تتجسد في وصلات الخلايا العصبية في الذهن، أو لنقل إنها تتجسد في حوسبة عصبونية neural computation، ترمز من خلالها إلى شيء، أو واقعة، أو مفهوم.

وفي مدخل (representation) في قاموس العلم الإدراكي الصادر عن جامعة ألبرتا الكندية [بدأ منذ ٢٠٠٩م] يشير المصنفان إلى أن للـ(التمثيل) وظيفتين: الأولى هي أن التمثيل يتوجه إلى شيء ما، أو أمر ما. والثانية: هي أن التمثيل يقول شيئاً عن هذا الشيء أو الأمر. انظر:

Michael Dawson & David Medler: Dictionary of Cognitive science. On: www.bcp.psych.ualberta.ca/~mike/Pearl_Street/Dictionary/...)

ويدمج وليام بيشتل هاتين الوظيفتين في وظيفة واحدة يسميها (الوظيفة المعلوماتية informational function)؛ حيث إن التمثيلات تقوم بدور ربط الحامل vehicle (شكل التمثيل) بالمحتوى (مضمون التمثيل). انظر ذلك مع تفصيلات مهمة أخرى في p.6 وما بعدها من:

William Bechtel: Constructing a Philosophy of Science of Cognitive Science. P. 6. pdf on: mechanism.ucsd.edu/.../bechtel.philosophyscienceofcog

(٢) يقصَد بـ(الحوسبة computation) هنا: تشغيل المعلومات processing information حيث كانت الإدراكيات في مرحلتها الأولى ترى العقل كمشغل للمعلومات؛ أي أنه يقوم بتمثيل المعلومات وتحويلها. انظر:

Jay Friedenberg & Gordon Silverman (2006): Cognitive Science: An Introduction to the Study of Mind. P.3. Sage Publications, Inc.

(٣) انظر مدخل (cognitive science) في: Stanford Encyclopedia of Philosophy. Op cit

في الحقيقة ثمة موقفان في الإجابة عن هذا السؤال :

* أولها موقف يرى أنها ليست ثورة وإنما هي عودة لتطوير المنظورات التي سادت في علم النفس في مرحلة ماقبل السلوكية . ويمثل هذا الموقف جورج ماندلر الذي يتحدث عن هذه المسألة تحت صيغة ((re) evolution) ؛ أي إعادة تطور ، أو إعادة انبعاث[1] . وكذلك يمثل هذا الموقف توماس ليهي الذي يتحدث عن «أسطورة الثورات» في علم النفس الأمريكي .
* والموقف الثاني يرى أن الإدراكيات ثورة علمية ؛ وسنمثل لهذا الموقف بما قدمه ستيفن بينكر عام ٢٠٠٢م

وسنتناول ذلك بإيجاز :

موقف جورج ماندلر[2] George Mandler :

يطرح ماندلر أربع دعاوى يرى إضافتها إلى الفهم العام للأحداث المحيطة بما يسميه البعث الإدراكي . وهذه الدعاوى هي :

١- إن جزءاً من برنامج واطسون منع نجاح السلوكية وأسهم في استبدالها .

٢- إن مصطلح (ثورة) يمكن ألا يكون ملائماً ؛ فليس ثمة أحداث عنيفة وحادة ، والتغير حدث ببطء في مجالات فرعية مختلفة عبر فترة تمتد من عشرة إلى خمسة عشر عاماً ، ولم يكن ثمة نقطة مضيئة أو قائد يمكن تحديدهما ، ولم يكن ثمة ثوار .

٣- كانت المصادرات السلوكية التي قامت الثورة ضدها مقصورة بالأساس على الولايات المتحدة . ففي الوقت نفسه الذي كانت فيه السلوكية حاكمة في

---

(1) George Mandler (2001): Origins of the cognitive (r)evolution. In: Journal of the History of the Behavioral Sciences, 38. On: escholarship.org/uc/item/22s8x969.pdf

(2) Ibid.

أمريكا فإن علم النفس البنيوي والإدراكي والوظيفي كانت مسيطرة في ألمانيا وبريطانيا وفرنسا بل في كندا أيضاً .

٤- لم تكن سلوكية الدافع والاستجابة مستأصلة بشكل عنيف ، وما حدث هو أن السلوكية مع تطور المقاربة الإدراكية اضمحلت لفشلها في حل مسائل أساسية بخصوص الفكر الإنساني والفعل الإنساني ، وبخاصة مسألة الذاكرة . وعلى الرغم من تشابه ما يذهب إليه ماندلر مع ما ذهب إليه جورج ميللر من أن الإدراكيات - ممثلة في علم النفس تحديداً - تمثل عودة إلى علم نفس ما قبل السلوكية ، فإن الاختلاف بينهما قائم في أن ميللر يعدّ الإدراكيات (ثورة مضادة) على ثورة السلوكية التي حولّت الدرس من (الإدراك) إلى (التمييز) ، ومن (الذاكرة) إلى (التعليم) ، ومن (اللغة) إلى (السلوك اللفظي) ، ومن (الذكاء) إلى (اختبارت الذكاء)[1] . أما ماندلر فهو ينأى عن إطلاق مصطلح (ثورة) أصلاً .

موقف ستيفن بينكر Steven Pinker:

ففي كتابه (اللوح الفارغ The Blank Slate)[2] الذي صدر عام ٢٠٠٢م[3] ، والذي يقدم فيه بينكر نقداً شاملاً لمقولة الفلسفة التجريبية والإمبريقية التي بدأت مع جون لوك ، والتي تذهب إلى أن الإنسان يولد وعقله (صفحة بيضاء tabula rasa) ، في هذا الكتاب يطرح بينكر خمس أفكار مفتاحية في الإدراكيات[4] ،

---

(1) George A. Miller,(2003) op cit.

(٢) يذكر بينكر (Ibid. p. 5) أن «BLANK SLATE» هي ترجمة فضفاضة للتعبير اللاتيني الوسيط tab- ula rasa الذي يعني حرفياً (اللوح المكشوط scraped tablet)

(3) Steven Pinker: (2002): The Modern Denial of Human Nature. VIKING. On: www.psych.yorku.ca/adler/courses/4010/Articles/Pinker.pdf

(4) Ibid. pp.31- 43

وهذه الأفكار تجعل منها - على حد تعبيره - «ثورة علمية»[1] .

يقول بينكر : «بدءاً من الخمسينيات ومع الثورة الإدراكية كل ذلك تغير . أصبح من الممكن الآن أن يكون هناك معنى لفكرة (العمليات الذهنية) ، وحتى لدراستها في المعمل . ومع فهم أكثر صلابة لمفهوم العقل يمكننا أن نرى أن كثيراً من مبادئ (الحالة الفارغة) التي بدت يوماً جذابة هي الآن غير ضرورية ، أو حتى غير متماسكة . وها هي خمس أفكار من الثورة الإدراكية غيّرت كيفية تفكيرنا وحديثنا عن العقول :

١ . الفكرة الأولى هي أن الإدراكيات انطلقت من مبدأ أن العالم العقلي يتأسس في العالم الطبيعي عن طريق مفاهيم المعلومات والحوسبة والتغذية الراجعة .

٢ . أما المبدأ الثاني فهو أن العقل لا يمكن أن يكون (حالة بيضاء) ؛ لأن الحالة البيضاء لا تفعل شيئاً .

٣ . والفكرة الثالثة هي أن المدى اللامحدود من السلوك يمكن توليده عن طريق برامج تأليفية محدودة في العقل .

٤ . والفكرة الرابعة هي أن الآليات العقلية العامة بشرياً قائمةٌ تحت التنوع السطحي للثقافات .

٥ . وأخيراً يأتي مبدأ أن العقل نظام مركب يتكون من أجزاء متفاعلة كثيرة .

وهنا يلاحظ أن بينكر متشبع بالأفكار التي تبناها تشومسكي في نموذجه اللساني بخصوص اللغة ، ومن ثم فإن النقطة الرابعة (الآليات العقلية العامة بشرياً قائمة تحت التنوع السطحي للثقافات) بصفة خاصة ستكون موضع اختلاف رئيس مع التحولات الإبستمولوجية داخل الإدراكيات ، حيث سيتم تبنى النسبية الإدراكية .

وعلى أية حال فإن بينكر يعتقد أن الإدراكيات ثورة علمية . وهو ينسب هذه

---

(1) Ibid. p. 31

الثورة إلى أربعة علماء كانوا في منتصف القرن العشرين في جامعة هارفارد : جورج ميللر ، ونوام تشومسكي ، وجيروم برونر ، وروجر براون .

موقف توماس ليهي Thomas H. Leahey:

يذهب ليهي في مقالة له عام ١٩٩٢م إلى أنه لا الإدراكيات ، ولا السلوكية من قبلها ، كانتا ثورتين علميتين في علم النفس . ويهمنا هنا ـــ بطبيعة الحال ـــ أن نجلّي رؤيته بخصوص (الثورة الإدراكية) التي يرى أنها أضعف تمثيلاً لفكرة (الثورة) من السلوكية[1] . يقول ليهي إن هناك سبباً جيداً للنظر إلى الإدراكيات على أنها شكل من السلوكياتية behavioralism القائمة على المجاز الحاسوبي [أي تشبيه العقل بالحاسوب] ، والتي تهدف إلى وصف السلوك والتنبؤ به والتحكم فيه . ومن ثم فهو يقرر ما يأتي :

١- ليس من الواضح أن ميلاد علم النفس الإدراكي يدين بأي شيء لشذوذات إمبريقية تعثر فيها السلوكيون ، ومن ثم باتت تتطلب تجديدات لحلها ، وهذه التجديدات تمكن منها الإدراكيون .

٢- إطلاق مصطلح (ثورة إدراكية) جاء لاحقاً ، ومصدره كان ذلك الذيوع الذي ناله كتاب (بنية الثورات العلمية) الذي وضعه توماس كون عام ١٩٦٢م . وقد لعب مناخ الستينيات الاجتماعي دوراً مهما في ذلك ؛ حيث كانت «أيامُ انتشار المخدرات والاحتجاجات والثورة ـــ في هذه الفترة ـــ تقوض الأواني الذهنية للحضارة الغربية ، وتدمر الزجاجة الراهنة للطبقة الحاكمة»[2] .

٣- من الصعب تحديد أي لحظة شهدت قطيعة بين السلوكية والإدراكية . وعلى هذا فإن امتداد التاريخ من ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٧١م يجعل القول بأن

---

(1) Ibid. p. 313

(2) Ibid. p. 315

كل هذا الزمن هو زمن الثورة نوعاً من إساءة الاستعمال لمصطلح (الثورة)[1] .

ومن خلال هذه الاستدلالات يصل ليهي إلى القول «ثمة سبب وجيه للنظر إلى الإدراكية بوصفها شكلاً جديداً من السلوكية مبنياً على مجاز الحاسوب ولكنه ؛ أي هذا الشكل ، يستهدف وصف السلوك والتنبؤ به ، والتحكم فيه»[2] . فالزعم إذن بأن السلوكية ماتت إنما هو اعتقاد خاطئ . وفي هذا السياق يطبق ليهي المعايير التي حددها منظرو الثورات العلمية وبخاصة تنظيرات توماس كون . ويبدأ ليهي استدلاله بالتساؤل : هل شكلت السلوكية نموذجاً علمياً مسيطراً على علم النفس بعد عام ١٩١٣م؟ ويجيب عن هذا التساؤل بقوله إنه من المؤكد أن السلوكية وضعت نهاية للإفراط الزائد في استخدام الاستبطان ولكنها لم تمحق الدرس النفسي التجريبي للوعي ، ولم تختف دراسات الشعور والإدراك الحسي والانتباه ، وإن لم تعد تشغل في علم النفس المكانة المركزية التي أصبحت تشغلها دراسة السلوك . ثم يشير ليهي إلى دليل آخر وهو أن إعادة إحياء علم النفس الإدراكي لم تأت من داخل علم النفس وإنما جاءت من خارجه . مثال ذلك أن تشومسكي جاء من مجال اللسانيات ، وأن النظرية القائدة في علم النفس الإدراكي ؛ نظرية تشغيل المعلومات ، استُجلِبَت من الحاسوبيات . ومعنى ذلك أن الضغوط التي دعت إلى التغيير في علم النفس بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٦ لم تنبثق من إخفاقات فنية داخلية في علم النفس ، وإنما كانت تقودها بالأساس مفاهيم خاصة بقوىً خارج علم النفس .

والحقيقة فيما يبدو لي أن ما ذهب إليه ليهي من استدلالات للقول بأن الإدراكيات لم تكن ثورة علمية يمكن تفنيده من خلال قراءة معمقة لواقعات

---

(1) Ibid. p. 315

(2) Ibid. p. 315

historiography التحليلية . فإسحق نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) مثلاً قدّم منهجيته في إطار مجال فلسفة العلم الاستنباطية ماثلة في معطيات التاريخيات التحليلية historiography . فإسحق نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) مثلاً قدّم منهجيته في إطار مجال فلسفة العلم الاستنباطية المعاصرة له ، على الرغم من وضوح أن فيزياء نيوتن لم تكن استباطية[١] . فهل يمكن ألا يوصف ما قدمه نيوتن للعلم في مجالي الحركة والبصريات وغيرهما بأنه ليس ثورة علمية؟! ومن الأمور المهمة في هذا السياق أن يلاحظ أن انبثاق الثورة العلمية يأخذ مرحلة تمضي ضمن الإطار العلمي القائم ، ثم تستمر في تحولاتها التالية مبتعدة بالتدريج عن هذا الإطار . ولقد بيّن عدد من الدراسات المسحية الحديثة لعلوم العصور الوسطى في أوروبا أن الفلسفة الطبيعية الوسيطة أمدّت الثورة العلمية الحديثة في أوروبا بالأسس التي بُنيَت عليها هذه الثورة[٢] . فهل يعني ذلك أن ماحدث في أوروبا على يد بيكون وجاليليو ونيوتن وكيبلر وغيرهم لم يكن ثورة علمية؟! فالثورة العلمية إذن ليست كالثورة السياسية[٣] ؛ حيث تأخذ الأولى في التطور التدريجي عبر فترة ممتدة من الزمن . ومثال ذلك استغراق الثورة العلمية في أوروبا الفترة من منتصف القرن السادس عشر واستمرارها إلى القرن الثامن عشر[٤] . وعلى هذا فإن ما يقوله أيضاً جورج ماندلر من أن إطلاق مصطلح (ثورة) هو أمر غير دقيق «لأنه لم يكن ثمة أحداث حادة وعنيفة»[٥] إنما هو قول صادر عن قياس الثورة العلمية على الثورة السياسية ، وهو قياس غير صائب .

---

(1) Aviezer Tucker (2004): Our Knowledge of the Past: A Philosophy of Historiography. P.3. Cambridge University Press. On: assets.cambridge.org/97805218/34155/../9780521834155_excerpt.pdf

(2) John Henry: (2002): The Scientific Revolution and the Origins of Modern Science. Second edition: Palgrave Macmillan. On: www.thedivineconspiracy.org/Z5231R.pdf

(3) Ibid. p.2

(4) Ibid. p.2

(5) George Mandler. op cit

أما إشارة ليهي إلى عدم اختفاء دراسات الشعور والإدراك الحسي والانتباه لدى السلوكيين فهي بدورها لا تمثل استدلالاً حاسماً . فالقول بأن الأرض هي مركز الكون لم يختف مع ثورة كوبرنيكوس في القرن السادس عشر ، بل ظل يعتنقه بعض مثقفي أوروبا إلى القرن الثامن عشر . ومن ثم فالقضية ليست في عدم اختفاء هذه المفاهيم ، وإنما هي في احتلالها الصدارة في الإبستمولوجيا الإدراكية .

ويبقى استدلال ليهي بأن «معظم المبررات والدعائم لإحياء علم النفس الإدراكي جاءت من خارج علم النفس نفسه»[1] . وهذا الاستدلال يبني عليه ليهي أن الإدراكيات ليست ثورة علمية . والمتأمل لهذا الاستدلال يجد أنه منصب أساساً على التاريخ التحليلي لعلم النفس ، وليس على التاريخ التحليلي للإدراكيات بصفة عامة . ومن ثم فإن قوله هذا لا يترتب عليه بالضرورة نفي حدوث تحول إبستمولوجي في هذا العلم ، أو في العلوم المتعلقة بالإنسان بصفة عامة . وهذا في الحقيقة استدلال يوصل إلى نتيجة غير التي أرادها ليهي . فحركة المفاهيم بين الأنظمة العلمية كانت سمة من السمات الداعمة لفكرة ثورية الإدراكيات . وذلك أنها كانت مؤشراً لبدء منظور التداخل الاختصاصي interdisciplinary perspective في الإبستمولوجيا العلمية المعاصرة . ولا شك أن هذا المنظور إنما اقتضته تحديات علمية جعلت منه إجابة جديدة innovative answer عن أسئلة هذه التحديات . يقول جيمس ويلش : «إن تكامل الأنظار يستدعي نوعاً من التفاوض الإبستمولوجي حيث لا يفحص القائمُ بالتداخل الاختصاصي محتوى المنظورات الاختصاصية المتصارعة فحسب ، وإنما يفحص أيضا الطريقة التي بها بالفعل (ترى) الأنظمةُ العلميةُ الظواهرَ وتقيّمها . ومثل هذه المقاربة للمعرفة تتطلب وعياً إدراكيا أعلى metacognitive بالطريقة التي بها تتشكل بالفعل الحقيقةُ نفسها . هذا الوعي بتكوين الحقيقة - يمثل اهتماماً

(1) Ibid. p. 314

خاصاً لدى الفلسفة الغربية، وبخاصة في أحدث تطوراتها، والتداخل الاختصاصي هو أحد هذه التطورات»[1]. هذه الحداثة إنما هي حداثة إبستمولوجية؛ حيث إنها قامت لمواجهة ثلاث استراتيجيات اختزالية مثلتها ثلاثة مبادئ جوهرية في مسيرة العلم والفلسفة الغربيين: مبدأ الحتمية، ومبدأ الثنائية، ومبدأ الحقيقة المطلقة[2]. فكيف يمكن القول بأن خصيصة التداخل الاختصاصي التي اتسمت بها الإدراكيات لا تمثل أحد وجوهها الثورية؟.

وفي المحصلة يمكن القول إن أهم ملمح في الثورة الإدراكية جعلها تختلف إبستمولوجياً بشكل جذري عن الإبستمولوجيات السابقة هو أنها تحاول أن تقدم إجابة عن السؤال الخاص بمعنى «كوني كائناً بشرياً»، وأنها تضع في بؤرة اشتغالها استجلاء «علاقة السلوك بالهدف» على حد عبارات كارل مانهايم[3].

---

(1) James Welch IV: The Emergence of Interdisciplinarity from Epistemological Thought. In: ISSUES IN INTEGRATIVE STUDIES. No. 29, pp. 1 39 (2011). PDF on: www.oakland.edu/.../Issues%20in%20Interdisciplinary%20Studies/.../03..

(2) Ibid. pp. 2-3

(3) كارل مانهايم: الأيديولوجيا واليوتوبيا: مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة. ترجمة محمد رجا الديريني. ص٩٨. شركة المكتبات الكويتية. الكويت- ١٩٨٠.

التحول الإبستمولوجي
في مفهوم الإدراك الذهني
وواقع تلقيه المصطلحي في المقابلات العربية

نبذة:

هذه المقالة تعالج قضية الأبعاد الإبستمولوجية المرتبطة بتحولات مفهوم مركزي في الإدراكيات ؛ وهو مفهوم cognition ومن ثم تطرح السؤال عن مدى انعكاس هذه التحولات على المقابلات العربية التي اقتُرحت ترجمة لهذا المصطلح ، وذلك من منطلق أن هذه المقابلات هي بدورها مصطلحات ستشتغل في إطار التلقي والتفسير والنشر للنظام العلمي الوافد ؛ وعلى هذا فهي مطالبة بأن تكون وفية في الدلالة على النظام التصوري أو المفهومي Conceptual System الذي تنقله ، أو لنقل إنها مطالبة بتجسيد التحولات الحادثة في الحمولة الإبستمولوجية epistemology-load لمكونات هذا النظام وأهمها المكون المصطلحي .

جدل المقابلات العربية:

تُعرَّف المصطلحيات terminology بأنها «العلم الذي يبحث في العلاقة بين المفاهيم العلمية والألفاظ اللغوية التي تعبر عنها»[1] . أو تُعَرَّف بأنها «العلم الذي يُعنى بتكوين المفاهيم ، ووصفها ، وتسميتها ، في حقول المعرفة

---

(١) على القاسمي : النظرية العامة والنظرية الخاصة في علم المصطلح . في (مجلة اللسان العربي ، عدد٢٩ - ١٩٨٧) ص١٢٧ .

المتخصصة»[١]، أو تُعرّف بأنها «منظومة منسقة من مفاهيم مجال موضوع معين مع أسماء هذه المفاهيم أو تسمياتها اللغوية المسندة إليها»[٢].

وعلى الرغم من البساطة الظاهرية لمثل هذه الصياغات التعريفية فإن هذه العلاقة نفسها بين (المفاهيم) و(المصطلحات المعبرة عنها) أمر كثيف الاكتناز بالتعقيد والتركيب. وهذا مانلمسه بصفة خاصة في الأحوال التالية :

- حين تكون تلك المفاهيم العلمية وافدة من مصادر معرفية أجنبية، فتدخل من ثم في تعقيدات الترجمة،
- وحين نجد أن النظرية المصطلحية تتطور لتنظر إلى المصطلحات على أنها بطبيعتها وحدات معلوماتية في بنية المعرفة المتخصصة[٣] specialized knowledge؛ أي أنها تُقدّم المعاني المفهومية داخل إطار هذه البنية،
- وحين تُدرس المفاهيم في علاقتها بالذاكرة الدلالية التي تقوم على أمر معرفتنا العامة بالعالم، والتي تبدو - على حد وصف منظّرة الترجمة (باميلا فابر) - «كشبكة معقدة، وكل عقدة فيها هي مفهوم يترابط مع المفاهيم الأخرى بوساطة قدر هائل من أنماط العلاقات المختلفة داخل بنية شبه إطارية»[٤]،

---

(1) Douglas Skuce & Ingrid Meyer (1990): Concept Analysis and Terminology: a Knowledge-Based Approach to Documentation. In: COLING, 90: Proceedings of the 13th conference on Coputational Linguistics. Volume 1, pp. 56 - 58

(2) Bassey Edem Antia (2000):Terminology and Language Planning An alternative framework of practice and discourse. P. 100. John Benjamins B.V.

(٣) راجع : Pamela Faber (2009): The Cognitive Shift in Terminology and Specialized Translation. In: MonTI, 1: Monograf?as de Traducción e Interpretación -Universitat de València, España. on rua.ua.es/dspace/bitstream/10045/13039/1/MonTI_01_10.pdf

(4) Pamela Faber (ed.) (2012): A Cognitive Linguistics View of Terminology and Specialized Language. P. 9. Berlin, Boston: De Gruyter Mouton. PDF on: https://books.google.com.eg/books?isbn=3110277204

- وحين تقرر النظرية المصطلحية - في نسختها الإدراكية المعاصرة - أن المصطلحات وحدات في المعرفة المتخصصة تسمّي صوغَنا المفهومي conceptualization للأشياء والخصائص والحالات والعمليات في مجال متخصص ، ومن ثم فإن أي نظرية مصطلحية لا بد أن تطمح إلى الدقة النفسية والعصبونية[١] ،
- وأخيراً وليس آخراً نلمسه حين يُنظَر إلى (اللغة المتخصصة) فيُدرَك تعقيدُها من المنظور الاجتماعي ، واللساني ، والإدراكي[٢] .

وعلى هذا فقد أصبح يُنظَّر للمصطلحات في السنوات الأخيرة على أنها تشبه قمم جبال الجليد التي تمتد تحتها المجالات المفهومية في المعرفة . ومع ما يحف بمقولة (المجالات domains) هذه من إشكاليات[٣] إلا أنها باتت مقولة مركزية في النظرية المصطلحية ؛ حيث أصبح فهم المصطلح يتطلب معرفة المجال الذي يشتغل فيه ، ومعرفة المفاهيم القائمة في هذا المجال ، ومعرفة العلاقات بين هذه المفاهيم ، والعلاقات فيما بين قضايا المجال[٤] . ومن ثم أصبح على المترجم أن يذهب إلى ما وراء التجاوبات على مستوى المصطلحات المنفردة ، وأن يكون قادراً على تأسيس مراجع للبنى الكلية للمعرفة[٥] .

---

(1) Pamela Faber (2011): The dynamics of specialized knowledge representation: simulational reconstruction or the perception-action interface. In: Terminology 17, no. 1 (January 1): 9-29. On: <http://dx.doi.org/10.1075/term.17.1.02fab>

(2) Pamela Faber (2009). Op cit, p. 114

(3) Pamela Faber (ed.) (2012) op cit. p. 122 : وانظر أيضــاً Michael F. Mascolo (2008): The Concept of Domain in Development analysis of Hierarchical Complexity. P. 333-332. In: World Futures, 64: 330-347, 2008. On: dareassociation.org/Papers/GWOF_A_330284%20Domain.pdf

(4) Faber, Pamela. (2009) op cit.

(5) Pamela Faber (2009). Op . cit, p. 108

وفي هذا السياق انبثق حديثاً اتجاه المصطلحيات الإطارية frame-based terminology متأثراً بالدلاليات الإطارية عند فيلمور، ليكون في صدارة ما يركز عليه :

١- التنظيم المفهومي للمصطلحات،

٢- الطبيعة متعددة الأبعاد للوحدات المصطلحية ؛ فهي وحدات في المعرفة knowledge، ووحدات في اللغة، ووحدات في التواصل ؛ ولذا فإن وصفها يجب أن يغطي المكون الإدراكي (المفهوم)، والمكون اللغوي (المصطلح)، والمكون الاجتماعي الإدراكي/ التواصلي/ التداولي (الموقف)[1] .

وفي هذه المصطلحيات الإطارية تتأسس الشبكات المفهومية للمصطلحات على حدثٍ مجالي تحتيّ من مجالات المعرفة هو الذي يولّد قوالبَ الأفعال والعمليات التي تحدث في المجال المتخصص، وكذلك يولّد الكيانات التي تشارك في هذه الأفعال والعمليات[2] .

وعلى ضوء ذلك كله فإننا في هذه المقالة سنعاين ونحلل حالة مصطلحية محددة في الفضاء المعرفي العربي ؛ وهي ما يتجسد في ترجمة مصطلح cognition والنعت المنسوب إليه cognitive . وفي هذه المعاينة والتحليل ستكون ثمة محاولة للإجابة عن أسئلة أساسية منها : ما واقع تلقي هذا المصطلح في المقابلات العربية؟ وما علاقة تلقي هذا المصطلح بتلقي المصطلح الآخر المرتبط به ؛ أعني مصطلح perception؟ وما الحمولة الإبستمولوجية القارّة في تحولات المفهومين؟ وهل تفي تلك المقابلات القائمة بهذه الحمولة الإبستمولوجية التي

---

(1) Dagmar Sageder (2010): Terminology Today: A Science, an Art or a Practice? Some Aspects on Terminology and Its Development. P. 129- 130. In: Brno Studies in English Volume 36, No. 1, 2010. On:

www.phil.muni.cz/.../BSE%202010-36-1%20(123-134)%20Sageder.pdf

(2) Ibid. p.124

أصبح المصطلحان مكتنزين بها في تطور المجال العلمي (= الإدراكيات) الذي يولّد دلالاتهما المفهومية؟

وإذا ما انطلقت المقالة مع السؤال الأول فإن الأمر الأول البادي بوضوح هو تعدد المقابلات العربية واختلافها بين الباحثين . فمثلاً عبد الإله سليم يترجم مصطلح (cognitive) الوارد في التسمية (Cognitive psychology) بـ(المعرفي) ، وهذا النعت يفيد عنده أن هذا العلم «يبحث في كيفية امتلاك الذهن المعرفة ، وكيفية تطويرها ، ويبحث في علاقة المحيط بالاكتساب ، وفي كيفية احتفاظ الذاكرة بالمعلومة واستعمالها عند الحاجة ، إلى غير ذلك من المباحث الذهنية»[1] . وهذا المقابل (المعرفي) يستخدمه مترجما كتاب (الاستعارة في الخطاب) ؛ وذلك باستخدام (عادات معرفية) إزاء cognitive habits ، و(الاستعارة المعرفية) إزاء (cognitive metaphor)[2] . وبدلاً من ذلك فإن لسانياً عربياً متمرساً بالترجمة ؛ أعني حمزة المزيني ، يستخدم صيغة (علم النفس الإدراكي)[3] . وهي الصيغة نفسها التي يستخدمها مترجما كتاب أحدث لتسمية cognitive psychology وللحديث أيضاً عن (علماء النفس الإدراكيين)[4] . ثم يضع باحث عربي - كمال شاهين - كتاباً تحت عنوان (نظرية النحو العربي القديم : دراسة تحليلية للتراث اللغوي العربي من منظور علم

---

(١) عبد الإله سليم : بنيات المشابهة في اللغة العربية : مقاربة معرفية . (دار توبقال بالدار البيضاء ، ٢٠٠١م) ص٧ .

(٢) إيلينا سيمينو : الاستعارة في الخطاب . ترجمة : د . عماد عبد اللطيف ود . خالد توفيق . (المركز القومي للترجمة- القاهرة- ٢٠٠٠م) ص٤٨٥ ، ص٤٨٧ .

(٣) د . حمزة بن قبلان المزيني : التحيز اللغوي وقضايا أخرى . ص٣٥٧ (كتاب الرياض ١٢٥- ١٤٢٥هـ) .

(٤) دانيال كاهنمان : التفكير : السريع والبطيء . ترجمة شيماء طه الريدي ومحمد سعد طنطاوي . (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة- القاهرة- ط١- ٢٠١٤م) ص٢٦ ، وص ٥٦ ، وص ٧٤ .

النفس الإدراكي)[1] . وصيغة (الإدراكي) هذه يفضلها صالح بن رمضان على صيغة (المعرفي) ؛ لأن عبارة (المعرفي) - كما يقول - «تبعدنا عن النشاط الداخلي للذهن ، وتحيل على معنى النشاط العلمي والفكري الخارجي عموماً»[2] .

وتزداد وتيرة المقابلات العربية تكاثراً في مجال ترجمة cognitive linguistics : فنجد (لسانيات معرفية) و(لسانيات عرفانية) ، و(لسانيات عرفنية) ، و(لسانيات إدراكية) . ومن الواضح أن بؤرة الاختلاف هي في ترجمة ذلك النعت المنسوب cognitive الذي يُتَرجَم بالإدراكي كما هو الأمر عند سعيد بحيري[3] ، ويُترجم بـ(العرفاني) كما في استخدام فريق بحث (اللسانيات العرفانية واللغة العربية) في الجامعة التونسية ، وكما في كتاب الدكتور صابر الحباشة «أسئلة الدلالة وتداوليات الخطاب : مقاربات عرفانية تداولية[4]» ، وكما في كتاب الدكتور عطية سليمان أحمد (الاستعارة القرآنية في ضوء النظرية العرفانية)[5] .

ومن الشائق أن نشير هنا إلى أن هذا المقابل العربي (العرفان) هو نفسه الذي تُرجمت به منذ عام ١٩٠٤م الصيغةُ الفرنسية cognitif/ive في أول قاموس

---

(١) صدر عن : دار الفكر العربي- بيروت- ٢٠٠٢م .

(٢) د . صالح بن الهادي رمضان : النظرية الإدراكية وأثرها في الدرس البلاغي . ضمن : ندوة : الدراسات البلاغية : الواقع والمأمول . نظمتها كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ٢١-١٤٣٢/٦/٢٢هـ .

(٣) يستخدم الدكتور سعيد بحيري المركب (علم اللغة الإدراكي) في ترجمة كتاب مونيكا شفارتز (Einfuhrung in die Kognitive Linguistik, 1991) . ولكن بحيري داخل الكتاب كثيراً ما يستخدم المقابل (معرفي) ملازماً ومرادفاً للمقابل (إدراكي) . انظر : د . سعيد بحيري (مترجم) : مونيكا شفارتز : مدخل إلى علم اللغة الإدراكي . (مكتبة زهراء الشرق- القاهرة- ٢٠١٥م) .

(٤) عمان ، الأردن : دار زهران للنشر ، ٢٠١٠م .

(٥) الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي- القاهرة ٢٠١٤م .

فرنسي/ عربي شامل ؛ وضعه القاضي المصري (محمد النجاري)[1] . والمشكلة مع هذا المقابل (العرفان) أنه استقر ترجمةً لمصطلح gnosis . والمفهوم من gnosis ومقابله (عرفان) شائع في التراث الصوفي اليهودي والمسيحي والإسلامي بدلالته على المعرفة الروحية حال تحررها من قيود الجسد والطين الأرضي ودخولها عالم الإشراق ، وكذلك بدلالته في بعض الخطابات الفلسفية على المعرفة الفطرية غير المكتسبة ، أو بدلالته السيكولوجية المحددة المرتبطة باللاوعي عند كارل يونغ[2] . ومن ثم فهذا المصطلح بكل هذه الدلالات الوثيقة الارتباط بثنائية طِباقية antithetical dualism بين الجسد والروح أبعد ما يكون عن إبستمولوجيا العلم الإدراكي كما سنرى .

ثم نجد الأزهر الزناد يحتفظ بالمقابل (الإدراك) ترجمةً لـperception[3] ، ويقترح ترجمة المصطلح cognition بـ(العرفنة) ، والنعت cognitive بـ(العرفنيّ) ؛ وذلك كما في عدد من دراساته ومنها كتابه (نظريات لسانية عرفنية)[4] وكتابه «النّص والخطاب : مباحث لسانيّة عرفنيّة»[5] . وهو يبدي في هذا السياق حجاجاً قائماً على «أنّ العرفنيّات عندما وصلتنا [هكذا] فُهِمَت بتصوّرات أرسطيّة ونفسيّة قديمة هي عندنا نحن كما هي عند الغرب ، دون شكّ ، ولم

---

(١) محمد النجاري بك : قاموس فرنساوي وعربي . المجلد الثاني ١٩٠٤م (مطبعة مزراحي- الإسكندرية) : (Cognitif) .

(٢) حول دلالات ghnosis انظر :

Bruce Schweigerdt: The Gnostic Influence on Psychology: Effects of the Common Heresy. (Originally published in The Journal of Psychology and Theology, 1982, Vol. 10, No. 3, 221-229) PDF on:

www.genesisforumacademy.org/.../TheGnosticInfluenceOnPsychology_...

(٣) انظر مثلاً كتابه : نظريات لسانية عرفنية . (الدار العربية للعلوم - دار محمد علي للنشر- منشورات الاختلاف- ٢٠٠٩م) ص٢٤ .

(٤) السابق نفسه .

(٥) مركز النشر الجامعي (تونس)- دار محمد علي للنشر (تونس) ، ط١ ، ٢٠١١م .

(على الأقلّ ممّن سبقوني في الكتابة في هذا المجال) إلى أنّ العرفنيّات تنتبه إلى خروجها عن مصطلح (cognition) عن knowledge وconnaissance وperception»[1]. وفي ذلك كانت استعاضتهم بمصطلح (cognition) عنها، وعلى ضوء ذلك يذهب الزناد إلى تجسيد إجراء مستحدثه المصطلحي كما يلي :

١- رفض المقابلات العربية الثلاثة : (معرفة) و(عرفان) و(إدراك) ترجمةً لـ cognition . وعلة هذا الرفض هي أن «كلمة (عرفان) مشتركة في العربيّة القديمة وفي الاستعمال الجاري ؛ إذ تدلّ على معنى الشّكر ، ولها جريان واسع في مجال التّعبّد والتّصوّف وفي مجال البحوث الفلسفيّة الماورائيّة (الغنوصيّة) ، وكلمة (معرفة) مقابلة لمفهوم (knowledge, connaissance) ، كما أنّ (إدراك) تقابل مفهوم (perception) ، وجميعها كما تعلم ذو مرجعيّات نظريّة كلاسيكيّة» .

٢- سك مقابل جدبد هو (عرفنة) لترجمة cognition .

٣- وضع جدول اشتقاقي عربي للجذر (عرف) يوازي الجدول الاشتقاقيّ في الإنجليزيّة الدّائر حول (cognition) حيث «الفعل هو (to cognize) واسم الفاعل هو (cognizer) والنّسبة هي (cognitive (system, ability, faculty, metacognitive. etc) وما إلى ذلك ممّا يتعلّق بـ (cogn)» . ومن ثم يكون الجدول الاشتقاقي العربي «جدولاً اشتقاقيّا مقبولاً . . . قياساً وسماعاً منطلقه : عرفن (to cognize) يعرفن (cognizes) عرفنة (cognition) فهو معرفِن (cognizer) وذو ملكة عرفنيّة (cognitive) ، ويلحق بذلك الميتاعرفنة (metacognition) . . .إلخ»[2] .

ولقد أوردتُ كل حجاجه هذا ـ على الرغم من طوله- لأنني أتصور أنه أقوى ما قُدّم في هذا السياق .

---

(١) انظر : الأزهر الزناد : «العرفنة ومشتقاتها» في :

lazharzanned.blogspot.com/2012/../blog-post_22.htm...

(٢) السابق نفسه .

وللباحث الجزائري الدكتور عمر بن دحمان مقالة علمية رصينة بعنوان (المعرفة/ الإدراك/العرفنة : بحث في المصطلح)[1] تناول فيها مشكلات مقترح الزناد . غير أننا نجد في هذه المقالة أن بن دحمان يفضل الصيغة (المعرفة) مقابلاً لـcognition . ولا أدري ما إذا كان بن دحمان يقبل مثلاً ترجمة الجملة الإنجليزية التالية الواردة في دائرة معارف ستانفورد :

We aim at studying whether epistemic externalism entails cognitive externalism and vice versa.

بـ(نهدف إلى دراسة ما إذا كانت الخارجانية المعرفية تستلزم الخارجانية المعرفية والعكس)! أو يقبل ترجمة الجملة (Cognition is the act of recognizing or of having knowledge)[2] بـ(المعرفة هي فعل التعرف على المعرفة أو فعل الحصول عليها)!

وللأكاديمي التونسي عبد الرزاق بنور في مقدمة ترجمته لكتاب راي جاكندوف (علم الدلالة والعرفانية) القول التالي «اتّبعنا التقاليد التونسيّة في ترجمة cognition بـ(المعرفة) و(العرفان) أو (العرفانية) حيث يترجمها سائر العالم العربي تقريبا بـ(الإدراك) . ولكن ، وقد عُرفت عنّا هذه الترجمة وقُبلت ، فإنّنا لا نرى ما يمنع مواصلة ترجمتها بهذه الطريقة خاصّة إذا لم تكن ثمّة حجّة ترجح كفة إحديهما . ثم إنّ استعمال جاكندوف بكثرة عبارة perception التي تترجم بـ(الإدراك) مرتبطة أو غير مرتبطة بـ(الحسّي) هو ما جعلنا لا نفكّر في ترجمة cognition بـ(الإدراك) . لذلك ، وكي لا نقع في الخلط بين perception

---

(١) د . عمر بن دحمان : المعرفة/ الإدراك/ العرفنة : بحث في المصطلح . في : مجلة : الخطاب (العدد ١٤ : عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي حول : واقع البحوث المعرفية وتحليل الخطاب : ١١-١٣ مارس ٢٠١٣م) .

(٢) وردت هذه الجملة في مستهل البحث التالي :

Kevin C. Costley & Jaime Nelson (2013): Avram Noam Chomsky and His Cognitive Development Theory. on: files.eric.ed.gov/fulltext/ED543301.pdf

و(cognition) ، فـضّلنا الإبقـاء على (العـرفـانيـة) لـ(cognition) و(الإدراك) لـ(perception)[1] . ولا أدري كيف يتفق القول بأن سائر العالم العربي تقريبا يترجمها بـ(الإدراك) ، والقول «وقد عُرفت عنّا هذه الترجمة [بالمعرفة أو العرفان والعرفانية] وقُبلت»؟! ثم هل ترجمتها بهذه الصيغ هي بنت التقاليد التونسية ، أم أن ترجمتها بـ(العرفان) قائمة منذ مطلع القرن العشرين في قاموس النجاري كما ذكرنا؟ وترجمتها بـ(المعرفة) قائمة وشائعة في الأدبيات النفسية العربية؟! وأخيراً هل (العرفانية) تسمية للعِلم الذي يدرس ظاهرة (العرفان) أم تسمية لظاهرة العرفان نفسها؟!

وحيث إنني أريد من الصفحات التالية أن تمثل – في أحد أهدافها – اختلافاً نقدياً مع عناصر حِجاج الزناد ، ومع اختيارات بن دحمان وبنور أيضاً ، فسأكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاث ملحوظات بخصوص ما ورد عند الزناد :

الأولى أن القول بـ(سماعية) صيغة (عرفن) في العربية غير مسلم به . ولقد نبه بن دحمان[2] إلى مقال الدكتور عبد الحميد الأقطش (التوليد اللغوي على وزن (فعلنة) في الاستعمال العربي المعاصر)[3] الذي يصل فيه إلى أمرين هما : صعوبة أن يجد الباحث حياة لهذا الوزن في العربية التراثية ، ودلالة هذا الوزن في العربية المعاصرة على معنى لم يكن سجية أو طبعاً في صاحبه ثم تحول إليه ولابسه واتصف به[4] . ويشير بن دحمان إلى أن هذه الدلالة لا تنطبق على

---

(١) راي جاكندوف : ترجمة عبد الرزاق بنور : علم الدلالة والعرفانية (منشورات دار سيناترا – المركز الوطني للترجمة ، تونس ، ٢٠١٠) ص٢٤ . ويلاحظ أن بنور يترجم (cognitive science) بـ(علم العرفان) ص٧ .

(٢) السابق نفسه . ص١٧-١٨ .

(٣) د . عبد الحميد الأقطش : «التوليد اللغوي على وزن (فعلنة) في الاستعمال العربي المعاصر» . مجلة مجمع اللغة العربية الأردني . على :

http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2009-02-10-09-36-00/417-79-2.htm

(٤) نستخدم في هذا البحث وفي غيره صيغة (جسدنة) -على وزن (فعلنة)- بهذه الدلالة ؛ فالجسدنة عملية تكيفية في الأساس . وسنعود إلى هذه النقطة في موضع قادم من هذا الكتاب .

المفهوم من مصطلح الزناد (عرفنة) .

أما الملحوظة الثانية فهي غموض إطلاق الزناد القول التالي عن الدارسين الغربيين «وفي ذلك كانت استعاضتهم بمصطلح (cognition) عن . . . وperception» . فإذا كان يقصد بذلك أنهم تخلوا عن مفهوم perception ، ولم يعودوا يستخدمون في دلالته إلا مصطلح cognition فذلك غير صحيح ، وهذا ما ستكشف عنه لاحقاً في هذه المقالة[1] .

وأخيراً الملحوظة الثالثة ؛ وهي أن الأزهر الزناد يستخدم صيغة (العرفنة) ترجمة لاسم العِلْم وترجمة لموضوع العلم معاً . ففي مقدمة كتابه (النص والخطاب : مباحث لسانية عرفنية) يتحدث عن «العرفنة البشرية» ؛ أي عن موضوع العلم . ويتحدث أيضاً بأن مدار عمله في كتابه هو «النص مادةً ، والعرفنة إطاراً» . وهنا ليس لنا إلا أن نفهم (العرفنة) بأنها العلم أو المنهج أو النظرية . وعلى حد علمنا ليس ثمة في الدراسات الغربية استخدام لـcognition بمعنى العلم أو الدراسة العلمية أو المنهج أو النظرية . إن الـ cognition هو موضوع العلم . أما العلم الذي يدرس هذا الموضوع فيسمى بالتركيب النعتي (cognitive science/s) . ومما يستلفت النظر أن الزناد يستخدم صيغة (العرفنيات)[2] ولكنه لا يجعلها مقابلاً مطرداً عنده لـ(cognitive sciences) / التي يترجمها بـ(العلوم العرفنية)[3] . ولعل هذا التعامل مع مصطلح cognition من لدن الزناد يماثل — كما أوردنا من قبل — تعامل عبد الرزاق بنور مع المصطلح نفسه ، وإن اختلفت صيغة المقابل العربي عند هذا الأخير .

وبطبيعة الحال فإن هذه المقابلات العربية لمصطلح cognitive في ترجمة cognitive linguistics لها تكرارت مماثلة في ترجمة cognitive sciences ، ولكن

---

(١) وانظر بصفة خاصة هامش رقم ١٣٥ .

(٢) كما في صفحة ٢٥ من كتابه : نظريات لسانية عرفنية (سبق ذكره) .

(٣) كما في صفحة ٢٧ من كتابه : نظريات لسانية عرفنية (سبق ذكره) .

(العلوم الاستعرافية)[1] .

يضاف إليها فيما رصدناه مقابل آخر هو (العلوم الاستعرافية)[1] .

فلماذا إذن اخترنا ترجمة cognition بـ(الإدراك الذهني) وليس (الإدراك) فقط ، أو (المعرفة) أو (العرفان) أو (العرفنة) أو (الاستعراف)؟

في الحمولة الإبستمولوجية للمفهوم:

يذهب أحد الباحثين إلى أن «المصطلح يتبع المنهج terminology follows methodology»[2] . وفي ظني أن (المصطلح يتبع الإبستمولوجيا terminology follows epistemology) أيضاً . ومن ثم فإنني أتصور أن نقطة الانطلاق المفيدة في هذا السياق هي أن نطرح السؤال الآتي : هل ثمة علاقة بين تغير مفهوم المصطلح وتغير إبستمولوجيا النظام العلمي الذي يدور في فلكه هذا المصطلح ؛ وذلك على ضوء قاعدة راسخة وهي أن «معنى المصطلح تقرره خصائص المفهوم الذي يعبر عنه ، والعلاقات القائمة بين هذا المفهوم وبقية المنظومة التصورية للحقل العلمي الذي ينتمي إليه»[3]؟ .

ولا شك أن هذه المسألة ترتبط بقضية أعم هي قضية (التغير المفهومي) في تطور المعرفة العلمية التي عولجت بأطروحات مختلفة على أيدي فلاسفة العلم من أمثال توماس كون Thomas Kuhn ، وإمر لاكاتوس Lakatos وفايرابيند

---

(١) في ترجمة مقالة Antonio R. Damasio (الدماغ والعقل) - في : مجلة العلوم- مؤسسة الكويت للتقدم العلمي- مايو - يونيه ٢٠٠٢ / المجلد ١٨) تُترجم cognition بـــ (الاستعراف) ، وcognitive sciences بـ(العلوم الاستعرافية) .

(2) Andrzej Pawelec: A Note on the Formalism of Cognitive Linguistics. P. 99. In: Studia Linguistica Universitatis Iagellonicae Cracoviensis 124 (2007). on: www.filg.uj.edu.pl/documents/41616/4333141/12406-Pawelec.pdf

(٣) د . عامر الزناتي الجابري : إشكالية ترجمة المصطلح : مصطلح الصلاة بين العربية والعبرية : دراسة لغوية فى الترجمات العبرية لمعانى القرآن الكريم . (مجلة البحوث والدراسات القرآنية : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- العدد التاسع - السنة [٥ ، ٦]) ص١٣ .

Feyerabend وغيرهم . ولعلنا هنا نتذكر مبدأ توماس كون في تحول النظام العلمي ؛ وهو المبدأ نفسه الذي طرحه فايرابيند في عام طرح كون له (١٩٦٢) ؛ وهو المبدأ المسمى بمبدأ (عدم التكافؤ incommensurability) ؛ ومؤداه أنه عندما تنشأ نظريات جديدة فإن المفاهيم التفسيرية المركزية للنظرية القديمة غالباً ما تغير معناها ، ومن ثم فإن أي حكم قائم قبل تحول النظام العلمي وبعده - حتى لو استخدم الكلمات نفسها - لا يعبر عن القضية نفسها[1] . وكما يشرح دانيال فايسكوبف Daniel A. Weiskopf في دائرة معارف الإنترنت للفلسفة فإن «المفردات التعبيرية للمخطط المفهومي الجديد لا تكافئ المفردات التعبيرية للمخطط القديم»[2] .

وفي هذا السياق يذهب أحد الباحثين الإبستمولوجيين إلى أن «كل مفهوم علمي يتكون محتواه من ثلاثة مكونات : ١) الإحالة ، ٢) الدور الاستدلالي ، ٣) الغاية الإبستمولوجية التي يسعى إليها استعمال المفهوم» ، كما يذهب الباحث نفسه إلى أنه «مع مرور التاريخ يمكن للمفهوم أن يتغير في أيٍ من هذه المكونات ، وأن هذا التغير في الإحالة وفي الدور الاستدلالي للمفهوم يمكن تفسيره بالمعقولية عندما يرتبط بالمكون الثالث ؛ أي بالغاية الإبستمولوجية لهذا المفهوم epistemic goal»[3] . ما يترتب على ذلك هو أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين (المفهوم) و(الغاية الإبستمولوجية) منه ، أو لنقل إن وجود (غاية

---

(1) Oberheim, Eric and Hoyningen-Huene, Paul, "The Incommensurability of Scientific Theories", The Stanford Encyclopedia of Philosophy. (Spring 2013). On: <http://plato.stanford.edu/archives/spr2013/entries/incommensurability.

(2) Daniel A. Weiskopf : The Theory-Theory of Concepts. on: http://www.iep.utm.edu/th-th-co/

(3) Ingo Brigandt: The epistemic goal of a concept: accounting for the rationality of semantic change and variation. P.1. on: https://www.ualberta.ca/~brigandt/The_epistemic_goal_of_a_concept.pdf

إبستمولوجية) يمثل شرطاً محدّداً لتغيير الخصائص الدلالية لمحتوى المفهوم ؛ أي لتغيير محتواه في التصور الذهني .

وإذا كان ما نناقشه هنا ذا علاقة بالأصول الإبستمولوجية للإدراكيات ، بصفة عامة ، وللسانيات الإدراكية cognitive linguistics ، بصفة خاصة ، فإننا نقول ابتداءً إن مسألة الحمولة الإبستمولوجية لمفهوم (cognition) نفسه ، ومن ثم للصيغة العربية الدالة عليه هي التي سوغت لنا ترجمته بـ(الإدراك الذهني) ، وترجمة cognitive بـ(الإدراكيّ الذهني) وليس (الإدراكي) فقط ، أو (المعرفي) أو (العرفاني) أو (العرفنيّ) أو (الاستعرافي) . ومن ثم فالمأمول من الصفحات التالية هو أن تبيّن أن الأمر ليس مجرد مسألة لفظية أو اصطلاحية ، وإنما هو أمر يضرب في أعماق التحول الإبستمولوجي الذي أحدثته الإدراكيات منذ انطلاقها في خمسينيات القرن العشرين الميلادي الماضي .

وللدخول في هذا البيان نقول إننا أمام مفهومين مترابطين هما (perception) و(cognition) . وهذا الترابط نجده ماثلاً في الإنجليزية[1] حيث نجد في الاستعمال العام الذي يرصده القاموس أن perception ترادف دلالة cognition :

Cog*ni"tion\, n. [L. cognitio, fr. cognoscere, cognitum, to become acquainted with, to know; co- + noscere, gnoscere, to get a knowledge of. See {Know}

١- فعل المعرفة	The act of knowing
٢- المعرفة	Knowledge
٣- الإدراك الحسي	perception
٤- الشيء الذي يُعرف	That which is known

---

(1) See: Maria A. Brandimonte, Nicola Bruno and Simona Collina (2006): Cognition. P. 2. In P. Pawlik and G. d Ydewalle (Eds.) Psychological Concepts: An International Historical Perspective. Hove, UK: Psychology Press, 2006. on: www2.unipr.it/~brunic22/mysite/cogn06.pdf

ومن الواضح أيضاً دلالة الكلمة cognition على (المعرفة) إما بوصفها عملية process ذهنية ، أو بوصفها ناتجَ product[1] العمل الذهني . وهذه الدلالة على المعرفة تعود إلى دلالة أصل الكلمة في اللاتينية cognitio التي هي ترجمة لـ(gnosis) اليونانية[2] . ولقد ظل التراث الفلسفي الغربي يستخدم في مقابل gnosis مصطلح (المعرفة) : [knowledge في الإنجليزية ، وconnaissance في الفرنسية ، وconoscenza في الإيطالية ، وErkenntniss في الألمانية] .[3]

وفي باكورة التلقي العربي لهذين المفهومين نلاحظ أن صيغتيهما بالفرنسية ترجمتا مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هكذا : الأولى cognition بـ(معرفة) ، والثانية perception بـ(إدراك)[4] . ويبدو أن الأدبيات النفسية العربية- درجت في أغلبها الأعم[5] - على الأخذ بهذه الترجمة مع استعمال صيغة (الإدراك الحسي) أحياناً بالنسبة إلى الثاني . ومن الشائق أن هذا الاستعمال الأخير يجعلنا نتساءل عن أمر لم يتحقق ؛ وهو أنه - بناء على قاعدة

---

(1) Ibid. p.2 ff

(2) Ibid. p.4

(3) Ibid. p.4

(٤) انظر : قاموس النجاري ، المجلد الثاني (cognition) ، والمجلد الخامس (perception)

(٥) بعض الدراسات النفسية العربية ترجمت Cognitive psychology بـ(علم النفس الإدراكي) . فبهذا المقابل مثلاً ترجمه د . جمعة سيد يوسف (في كتابه : سيكولوجية اللغة والمرض العقلي . ص ١٨ ، (عالم المعرفة- ١٤٥- ١٩٩٠م) ، وذلك حين أورد عبارة تشومسكي الشهيرة حول أن اللسانيات فرع من علم النفس الإدراكي . ولكن هذا الباحث نفسه لا يلبث أن يعود في الموضع نفسه وفي غيره ليترجمه بـ «علم النفس المعرفي»! وفي الدراسة الرائدة (محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا . دار الشروق -ط٣- ١٩٨٠ القاهرة- التي تعود أصولها كرسالة جامعية إلى عام ١٩٤٢م وطبعتها الأولى عام ١٩٤٨م لا يرد المصطلح cognition وإنما يرد perception ومقابله (الإدراك الحسي- انظر : ص ١٥٧ ومواضع أخرى) . ولكن يستدعي النظر قوله عن علم النفس عند ابن سينا «يمكننا أن نضع تقسيم الوظائف النفسية عند ابن سينا على أساس آخر يلاحظ فيه الجمع بين الحواس والعقل في قسم واحد هو وظيفة الإدراك» . ص٣٧ .

أن النعت يزيل الاشتراك في المنعوت- كان من المفترض أن يكون ثمة قسيم لل (الإدراك الحسي) يشترك معه في المنعوت (الإدراك) ويختلف في النعت . ولكن ذلك لم يحدث . ولقد كان منطقياً الا يحدث لأن إبستمولوجيا المفهومين في كلاسيكيات المصادر المعرفية (الفلسفة وعلم النفس بخاصة) كانت ترسخ هذا الفصل بين ما ينتمي للعقل والمعرفة المجردة ، من جهة ، وما ينتمي للحس والمحسوسات من جهة أخرى . ولعلنا نذكر هنا ما ورد في محاورة (فيدون) لأفلاطون حيث يقول : «الرؤيا العقلية هي التي تمتلك الإدراك الأكثر دقةً لجوهر كل شيء ، والعقل وحده هو القادر على اكتشافها بدون أعضاء الجسد والعينين والأذنين» .[1] ولقد ظل هذا الفصل[2] يرفع الشعار : (بداية العقول نهاية المحسوسات) . وعندما نجد في التاريخ الممتد للمفهوم حالة يمكن عدُّها نوعاً من محاولة تجاوز الفصل عن طريق جعل cognition عاماً يدل على مستويين كبيرين هما : الإدراك الحسي sensory cognition والإدراك العقلي Intellective cognition ؛

---

(١) انظر محاورة (فيدون) في : أفلاطون : المحاورات الكاملة . نقلها إلى العربية : شوقي داود تمراز . (الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت ١٩٩٤م) ص٣٤٩ .

(٢) لن أشير هنا إلى موقف أرسطو من ثنائية العقل/ الجسد . فعلى الرغم من أن فلسفة أرسطو حول هذه الثنائية تمثل أول ركن في الأركان الفلسفية الثلاثة الكبرى التي قدمت حول هذه الإشكالية (الأرسطية ، الديكارتية ، المادية العلمية أو الفيزيقية physicalist) ، فإن ما أحاط بمعالجة أرسطو للعلاقة بين العقل والجسد من غموض ومن طرح تفسيرات وشروح يصل الأمر بينها إلى حد التناقض والتضاد جعلني أستبعد الحديث عنه في سياق هذه المقالة . ولكن للاستدلال على غموض الموقف الأرسطي انظر : Tim Crane and Sarah Patterson (eds.) (2000): History of the Mind-Body Problem. Routledge: the Taylor & Francis Group. London, New York. وحول ما أثارته نظرية أرسطو في (الإدراك الحسي) من جدل فلسفي هائل انظر :

Victor Caston: The Spirit and The Letter: Aristotle on Perception. on: anc-phil.lsa.umich.edu/-/downloads/faculty/caston/spirit-letter.pdf

ولإحاطة وجيزة انظر :

Christopher Shields (2010): Controversies Surrounding Aristotle's Theory of Perception. In: Stanford Encyclopedia of Philosophy..

الأول : هو نتاج الأعضاء المادية التي هي مسئولة عن نشاط الحواس الخارجية الخمس والحواس الداخلية في الدماغ التي منها الذاكرة حيث تُخزَّن صور الماضي ، والخيال حيث تتكون تأليفات الصور ، أقول : عندما نجد تلك الحالة ؛ وهي حالة فيلسوف العصور الوسطى (توما الإكويني) فإن هذه المحاولة نفسها تكرس الفصل الممتد عندما نجد الإكويني يذهب إلى أن الإدراك الحسي هو المسئول عن إدراك الأشياء المعينة (مثلاً : هذا الفرس) ، وفي المقابل فإن الإدراك العقلي لا يتضمن فاعلية أي عضو جسمي ؛ حيث الكليات هي موضوعه المناسب ، ومن ثم ففي حين أن الحواس هي التي تدرك (الفرس المعين) ، فإن العقل هو الذي يدرك (الفَرَسيَّة [١]) . ومع ذلك فنحن لا نقصد أن هذا التاريخ الممتد من الفصل الذي أوجد مشكلة إبستمولوجية مزمنة هي ثنائية (الجسد/ العقل) قد خلا من اختراقات مهمة كتلك التي يمثلها جون ديوي ، وفق ما يذهب إليه كريست فايزن[٢] ، وإنما نقصد أن مبدأ الفصل ظل هو المسيطر والغالب على هذا التاريخ .

وحيث إننا سنكشف في هذه المقالة عن التحولات الإبستمولوجية التي

---

(1) Robert Pasnau (1997): Theories of Cognition in the Later Middle Ages. P.12. Cambridge University Press. on: spot.colorado.edu/~pasnau/inprint/pasnau.theories.pdf

(٢) في دراسته تلك يقدم كريست فايزن استقصاء مهماً لفكر جون ديوي بخصوص (الإدراك الذهني) حيث ثمة أربعة منطلقات ينبني عليها هذا المفهوم عنده وهي :

١- الإدراك الذهني يلزم دراسته على ضوء العمليات التطورية التي شكلته .

٢- الإدراك الذهني مجسدن ويمتد إلى العالم .

٣- الإدراك الذهني فعال وعملي ، وليس سلبياً .

٤- الإدراك الذهني موقفي .

ويدلل فايزن على أن هذه المنطلقات تمثل استشرافات من جهة ديوي لما يُعالج حاليا بشكل موسع تحت لافتة «الإدراك الذهني المندمج والمجسدن والممتد» . انظر :

Krist Vaesen (2014): Dewey on Extended Cognition and Epistemology. In: Philosophical Issues, 24, Extended Knowledge. on: home.ieis.tue.nl/kvaesen/Dewey_ONLINE.pdf

طرأت على هذا الفصل بين (cognition) و(perception) بما أفضى إلى التداخل بينهما ، فإن ما هو مطلوب إبستمولوجياً في المقابل الترجمي العربي هو أن يكشف عن هذا التداخل ، وليس أن يعمل على ما يضاده باقتراح صيغة مولّدة [(عرفان) أو (عرفنة) أو (استعراف)] تكرس الفصل الذي انعكس في الثنائية الكلاسيكية : (معرفة) و(إدراك حسي) . وعلى ضوء ذلك فإن ما تقترحه مقالتنا تلك هو المنظومة المصطلحية التالية :

الإدراكيات	Cognitive sciences
الإدراكيّ (العالِم)	cognitivist
اللسانيات الإدراكية	Cognitive linguistics
الإدراك الذهني	Cognition
الإدراكيّ الذهني	cognitive
الإدراك الحسي	Perception
ماوراء الإدراك الذهني	metacognition(١)

وفي هذه المنظومة يحتاج اختيارنا للمقابل (الإدراك الذهني) ترجمة لـcognition إلى فصل بيان استهلالي . وفي تصورنا فإن هذا المقابل يستجيب - أولاً- لتكريس الدلالة الشمولية لمفهوم (الإدراك) - في تحولاته الأخيرة وبعد انطلاق ما يسمى بـ«إدخال الجسد في الإدراك الذهني the inclusion of the body in cognition»(٢) ، وسنشرح ذلك لاحقاً بشكل موسع- حيث يُطلَق على

(١) مابعد الإدراك الذهني Metacognition يعرَّف بأنه هو «وعي الشخص بعملياته الإدراكية وتحكّمه فيها ، أو هو قدرة الشخص على (أن يفكر) فيما يعرف وفيما يفكر» . انظر :

Dan Moos: Information Processing Theory in Context. P.6. on:

homepages.gac.edu/~dmoos/documents/IPT_000.pdf

(2) Anthony Chemero (1998): A Stroll Through the Worlds of Animals and Humans: Review of (Being There: Putting Brain, Body and World Together Again) by Andy Clark. P.2. In: PSYCHE, 4(14), October, 1998. on:

http://psyche.cs.monash.edu.au/v4/psyche-4-14-chemero.html.

جميع القوى المدركة ، بل أصبح يُنظر إلى «قصر إطلاقه على الإدراك الذهني البشري العاديّ على أنه ينم على ضيق أفق ، وأن الفهم التام للإدراك الذهني يجب أن يشمل الإدراك الذهني البشري غير السويّ ، والإدراك الحيواني ، والإدراك الذهني بين الغرباء»[١] . ومن ثم فقد أصبح مفهوم cognition في الإبستمولوجيا المعاصرة مفهوماً ذا طبيعة هجينة hybrid nature على حد إطلاق ريتشارد ميناري[٢] .

ومن الشائق أن هذه الدلالة الشمولية هي التي كانت لهذا المفهوم في فضاء التداول العربي ؛ سواء التداول اللغوي ؛ حيث يرد لفظ (أدرك) في المعجم العربي بالازدواج الدلالي (أدركتُه ببصري ، أدْرَكَ علمي)[٣] ، أو التداول العلمي العربي التراثي حيث يقال : إدراك الحس ، وإدراك الخيال ، وإدراك الوهم ، وإدراك العقل»[٤] ، أو حيث الحديث عن أن «مدارك العلم عند أصحاب النظر من المتكلمة والمنطقيين وعلماء الأصول ثلاثة . . . أحدها (حس) أي ما يدرك بأحد الحواس الخمسة ، . . . والثاني (إخبار صحيح) . . . والثالث من مدارك العلم

---

(1) Fisher, Justin. (2008) Critical Notice for the Bounds of Cognition. P.9. In: Journal of Mind and Behavior 29: 345-57. on:
www.justin-fisher.com/papers/Fisher--Bounds_of_Cognition.pdf

(٢) انظر عرض الصفحة الأولى من مقدمة المقالة في :
Richard Menary: (2006): Attacking the Bounds of Cognition. In: Philosophical Psychology. Volume 19, Issue 3. on:
http://www.tandfonline.com/doi/abs/10.1080/09515080600690557?journalCode=cphp20#preview

(٣) انظر مادة (درك) في : ابن منظور : لسان العرب .

(٤) انظر (الإدراك) في : جميل صليبا : المعجم الفلسفي- ١٩٨٢م . وبطبيعة الحال فإن المعلومات الواردة عنده بخصوص الإدراك في الفلسفة الحديثة تحتاج إلى تحديث على ضوء البحوث الإدراكية المعاصرة .

(النظر) ؛ أي الفكر الذي يطلب به علم أو ظن»[1] . وكما نتحدث اليوم عن (الإدراك عند الحيوان animal cognition)[2] فقد تحدث التداول العربي التراثي عن نوعي القوى الحيوانية : القوة المدرِكة ، والقوة المحركة ، وعن أن القوة المدركة إما مدرِكة من خارج وهي الحواس الخمس ، وإما مدرِكة من باطن : الحس المشترك والمصورة والمتخيلة والوهم والذاكرة[3] .

وهذا المقابل - ثانياً - يكرس ارتباط فاعلية (الذهن) - في التداول العربي اللغوي والمعرفي - بالإدراك . وهنا أستثمر ما أورده الدكتور بليل عبد الكريم[4] في بحثه حول (مفهوم الإدراك) في الثقافة العربية والإسلامية حيث يقول «ولمحل الإدراك أسماء أخرى وهي الذهن والنفس ، فيكون القلب هو الذهن وهو النفس بمعنى واحد ، إلا أن النفس سميت بذلك لكونها متصرفة أي فاعلة ، والذهن لكونه مستعداً للإدراك . هنالك «محل» للعلم والمعرفة : هذا المحل له قابلية للإدراك واستيعاب العلوم والمعلومات ، وهذه القابلية هي استعداده وتهيؤه لذلك فسمي المحل (ذهنا) . وهذا المحل هو الوسيلة والأداة والآلة ومحل الفاعل» . وينقل الدكتور عبد الكريم عن الكفوي قوله : «وقيل سميت النفس عقلاً لكونها مدركة ، وذهناً لكونها مستعدة للإدراك» . كما ينقل عن معجم

---

(١) محمد السفاريني الحنبلي : لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية . المكتب الإسلامي- دار الخاني- ١٩٩١م

(٢) انظر المقالة الموسعة المهمة التي كتبها كريستين أندروز Kristin Andrews تحت مدخل animal cognition في :

Stanford Encyclopedia of Philosophy. First published Tue Jan 8, 2008; substantive revision Fri May 6, 2011

(٣) انظر : د . عبد الكريم العثمان : الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص . (مكتبة وهبة - القاهرة : الطبعة الثانية ١٩٨١م [الطبعة الأولى ١٩٦٢م]) ص١٦٤ .

(٤) د . بليل عبد الكريم : مفهوم الإدراك . تاريخ الإضافة : ٢٠٠٩/١٠/٢١ على :

http://www.alukah.net/sharia/0/7893/#ixzz3jUF0VYgP

دقائق اللغة : «استعداد النفس لاكتساب العلم يسمى (ذهناً)»[1] . ونود أن نشير إلى أن الكفوي أيضاً يورد رأي من قال «إن استعداد النفس لاكتساب العلوم يسمى ذهناً»[2] . وفي معالجته لـ« إشكالية الوجود الذهني في الفلسفة الإسلامية» يقول الدكتور عادل محمود بدر «الوجود الذهني ليس إلا المعرفة الحصولية الناتجة عن ارتباط الذات المدركة بالواقع العيني المدرك»[3] . وكثير من هذه الملامح سنجد سريانها في ذلك التحول الإبستمولوجي الذي نستهدف استقصاءه بخصوص مفهوم (cognition) .

أما في الإبستمولوجيا المعاصرة فلدينا في الحقيقة توجهان كلٌ واحد منهما يدفع إلى هذا الاختيار :

التوجه الأول يذهب إلى أن الـ(perception) داخلٌ في عموم الـ(cognition) : وهذا التوجه ينضوي تحت قضية عامة هي علاقة الـperception بالعقل . وفي هذا الصدد يقول تيم كرين إنه بعد أن كان السائد في النصف الأول من القرن العشرين أن الـperception مستقل عن العقل (كما ذهب إلى ذلك مور ١٩١٤م)[4] فإن السائد في النصف الثاني من القرن نفسه هو أن

---

(١) لم يتح لي الاطلاع على هذا المعجم ، ولكن فيما قرأت عنه فإن بياناته تشير إلى أن عنوانه هو (المفصل في دقائق اللغة العربية) ، وأن مؤلفه هو : إميل بديع يعقوب ، وسنة نشره : ٢٠٠٤م عن دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) الكفوي : الكليات . تحقيق : د . عدنان درويش لله محمد المصري . (مؤسسة الرسالة- ط٢- ١٩٩٨م) ص٤٥٦ .

(٣) د . عادل محمود بدر : إشكالية الوجود الذهني في الفلسفة الإسلامية : صدر الدين الشيرازي نموذجاً : دراسة في نظرية المعرفة . (دار الحوار للنشر والتوزيع- اللاذقية- الطبعة الأولى ٢٠٠٦م) .

(٤) لعله يقصد جورج مور (١٨٧٣- ١٩٥٨) الفيلسوف الإنجليزي الذي كتب في الإدراك الحسي :

- Some Judgments of Perception- PAS. New Series (v.19, 1918)

- The Nature and Reality of the Objects of Perception (6-1905) PAS New Series, v. 6, pp. 69-127.

الـperception يعتمد على العقل[١] . ومع ذلك فإن ثمة تنويعات نظرية داخل هذا النصف الثاني نفسه . يقول روفن تسور «خلال الخمسين عاماً الأخيرة ، أو نحو ذلك ، غيّرت كلمة (cognition) معناها . ففي الأصل ميّزت بين جانبين في الحياة الذهنية : الجانب العقلاني ، والجانب العاطفي والإثاري . والآن تُستخدم الكلمة لتشير إلى كل فاعليات الذهن في تشغيل المعلومات information-processing بدءاً من تحليل الدوافع المباشرة إلى تنظيم التجربة الذاتية . وفي الاصطلاح المعاصر يشمل الإدراك الذهني cognition عمليات وظواهر مثل الإدراك الحسي perception ، والذاكرة ، والانتباه ، وحل المشكلات ، واللغة ، والتفكير ، والتخيل . وهذا المعنى الأخير هو المستعمل في عبارة (الشعريات الإدراكية)»[٢] . وما يقوله تسور ستعود باميلا فابر لتأكيده بصورة أدق تحت عنوان فرعي (النظريات الجديدة في الإدراك الذهني) في الكتاب الذي قامت على تحريره[٣] حيث تقول «إن البحث الحديث في علم النفس الإدراكي وفي العصبونيات يؤكد الطبيعة الدينامية للتصنيف المقوليّ ولتخزين المفاهيم واستدعائها وللتشغيل الإدراكي . . .وهذا العمل يؤكد عدم دقة النظريات القياسية في الإدراك الذهني التي تزعم أن المعرفة تقع في نظام الذاكرة الدلالية منفصلةً عن الأنظمة الدماغية الخاصة بالإدراك الحسي ، وبالفعل ، وبالاستبطان . . . . غير أن ثمة إجماعاً متزايداً في تفضيل وجهة نظر أكثر دينامية في المعالجة الإدراكية ، أو في الإدراك الموقفي ، الأمر الذي يعكس القول بأن الإدراك الذهني هو بشكل نمطي يتأسس بطرق متعددة . ومن هذه الطرق

---

(١) انظر مدخل The Problem of Perception الذي كتبه تيم كرين Tim Crane في :

Stanford Encyclopedia of Philosophy, First published Mar 8, 2005; substantive revision Feb 4, 2011. on: http://plato.stanford.edu/entries/perception-problem/#3.1

(2) Reuven Tsur: Aspects of Cognitive Poetics" on:

https://www2.bc.edu/~richarad/lcb/fea/tsur/cogpoetics.html

(3) Faber, Pamela (ed.) (2012): A Cognitive Linguistics View of Terminology and Specialized Language. Pp .150- 151 Berlin/Boston: De Gruyte.

المحاكاة ، الفعل الموقفي ، وربما الحالات الجسدية . إن فرضية الإدراك المتجسدن أو المتأسس تساوي بين الفهم والمحاكاة الحسية أو الحركية . وتذهب هذه الفرضية إلى أن التفاعل بين الأنظمة الحسية الحركية والعالم الطبيعي يكمن تحت الإدراك الذهني .

ومن ثم فالعلاقة بين المفهومين هي - على الأقل - علاقة خصوص وعموم . وهذا ما يمكن أن نستنتجه بوضوح من وضع جون كارول الفصلين الثامن (الإدراك الحسي البصري) والتاسع (الإدراك الحسي السمعي) في كتابه (قدرات الإدراك الذهني الإنساني Human Cognitive Abilities) (١٩٩٣) تحت عنوان (تعيين القدرات الإدراكية الذهنية ووصفها The Identification and Description of Cognitive Abilities)[١] . ومن الواضح أن الأساس الإبستمولوجي الذي انطلق منه كارول ، والذي صاغه لنفسه هو أن أي مهمة تتضمن ـــ لفهمها أو لأدائها ـــ تشغيلَ معلومات عقلية هي مهمة إدراكية ذهنية . ولا شك أن ذلك يلتقي مع حديث مؤلفي كتاب (التواصل الإنساني) عن ثلاث عمليات إدراكية ذهنية يقوم بها الإدراك الحسي ؛ وهي : الانتقاء ، والتنظيم والتفسير[٢] .

وعلى هذا الأساس الإبستمولوجي يمكن أن نقرأ تعريفين حديثين للإدراك الحسي ؛ أولهما يذهب إلى أنه «عملية إدراكية ذهنية a cognitive process تمكننا من تفسير وفهم بيئتنا المحيطة»[٣] . وثانيهما أورده موقع (الخدمة القومية التعليمية النفسية) في أيرلندا National Educational Psychological Service ؛

(1) John Carroll (1993): Human Cognitive Abilities: A Survey of Factor-studies. Cambridge University Press.

(2) Judy C. Pearson, Paul E. Nelson, Scott Titsworth and Lynn Harter (2011): A Primer on Communication Studies. P.38-42. (fourth edition) McGraw-Hill Global Education Holdings, LLC.

(3) Marc Buelens, Knud Sinding, Christian Waldstr?m, Robert Kreitner and Angelo Kinicki (2011): Organisational Behaviour. p. 145. (Fourth Edition), McGraw-Hill Education.

ونصه : «هو قدرة الدماغ على تفسير ما تراه أعيننا . وهو يعتمد على قدرتنا على تركيز الانتباه بشكل انتقائي ، وعلى استبعاد المعلومات غير ذات الصلة ، وعلى المقارنة والتمييز بين الأشياء ، وعلى معرفة أن الأشياء هي هي على الرغم من تغيرات الحجم أو الاتجاه ، وعلى تذكر المعلومات التي عرضت بصرياً بما في ذلك النظام الذي عُرضت به»[1] .

ولعلنا إذا لاحظنا مقولة (تحليل الدوافع المباشرة) في عبارة تسور التي سقناها منذ قليل نقول إن العلاقة بين المفهومين هي علاقة تداخل وظيفي ، وإن هذا التداخل الوظيفي هو الذي جعل الـperception أحد مجالات القضايا الخمسة الرئيسة (تمثيل المعرفة ، اللغة ، التعلم ، التفكير ، الإدراك الحسي) في العلم الإدراكي[2] ، وهذا التداخل نفسه هو الذي جعل العلم الإدراكي أيضاً في فترة معينة من تطوره يُسنِد إلى الإدراك الحسي perception ما كان يسنَد تقليدياً إلى الإدراك الذهني cognition ؛ وذلك فيما عرف بنظرية التأسيس establishment theory التي تذهب إلى أن «الإدراك الحسي يعتمد . . . على الاستنتاجات . وحيث إن الاستنتاج هو عملية تُعرَض فيها المقدمات وتستنبط النتائج ، وحيث إن ذلك يأخذ وقتاً ، فإن المبدأ والغاية في رأي نظرية التأسيس أن هناك صلة جوهرية بين الإدراك الحسي والذاكرة . وحيث إن نظرية التأسيس تؤمن أن آلية الاستنتاج النفسية هي تحويل التمثلات الذهنية فإنه يترتب على ذلك أن الإدراك الحسي ذو علاقة بعملية الحوسبة [الذهنية]»[3] . وإذا كان هذا

---

(1) National Educational Psychological Service: Visual Perception. 17 Apr 2015: pdf on: http://www.education.ie/en/Advanced-Search/?q=Visual%20Perception

(2) Jurgita Kercvi?icn (2009): Glossary of Cognitive Terms. (Kaunas) on: www.khf.vu.lt/../ Kreviciene%20%20kognityviniu%20terminu%20zod..

(3) J. A. Fodor & Z. W. Pyllyshyn (1981): How direct is visual perception?: Some reflections on Gibson's "Ecological Approach . Pp. 139- 140. In: Cognition, 9 (1981) 139-196. on: ruccs.rutgers.edu/faculty/pylyshyn/f&p_cognition_gibson1981a.pdf

وأضفنا [الذهنية] منعاً للالتباس مع (الحوسبة) في الاستخدام التقني الحاسوبي

القول يعود إلى ثمانينيات القرن العشرين الماضي ، فإن هذا القرن نفسه لا يكاد يصل إلى عام ١٩٩٠ حتى نجد جوهر الطرح المتضمن في نظرية التأسيس يتم تأكيده لدى من يقول «أطروحتنا تذهب إلى أن الإدراك الذهني - كعملية واعية أو لا واعية - منخرط - على الأقل لدى البالغين - في تخطيط ، وتنفيذ ، ومراقبة كل نشاط حسي حركي ؛ حتى أفعال الألم الانعكاسية . ونحن نفهم الإدراك الذهني على أنه يكفل الوظائف التالية :

١- وساطة الإشارات العصبية عن طريق شفرة داخلية أو أكثر (تحويل الإشارات العصبونية في المعلومة عبر عملية تشفيرية) ،

٢- تخزين المحتويات المشفرة ،

٣- توليد محتويات جديدة عن طريق النشاط الداخلي (الاستباق ؛ فاعلية ربط السوابق والنتائج حتى في غياب مثير خارجي محدد) ،

٤- تفعيل أو تثبيط مثل هذه المحتويات الداخلية (الاختيار ، القرار)»[١] .

وهذا عينه ما يدلل عليه (جرين) و(هاميل) في عام ٢٠٠٤ ؛ أي في مطلع القرن الحادي والعشرين ، عن إدراك صورة ما . فهما في دراستهما المشتركة : (الإدراك الحسي العلاقي والإدراك الذهني : تضمينات للمعمار الإدراكي الذهني والتفاعل الحسي - الذهني) يوردان قولهما : «إذا بدأنا بتمثيل مواضع (السمات) المتنوعة ؛ مثل الحواف والرؤوس في صورة ما ، فإن النظام البصري لا بد أن يقوم بما يلي (أ) تقطيع الصورة إلى أشياء منفصلة ، (ب) التعرف على هذه الأشياء ، (ج) حوسبة العلاقات الموضعية بين هذه الأشياء ، (د) تشكيل رموز هذه الأشياء : مواضعها ، والعلاقات فيما بينها . . .إلخ كما فُصِّلَت باختصار ،

(1) C.-A. Hauert, P.-G. Zanone, and P. Mounoud (1990): Development of Motor Control in the Child: Theoretical and Experimental Approaches. P. 328. In: O. Neumann and W. Prinz (eds.): Relationships Between Perception and Action: Current Approaches. Springer-Verlag, Berlin Heidelberg. on:
link.springer.com/content/pdf/10.1007/978-3-642-75348-0_12.pdf

(هـ) وضع استنتاجات عن الأشياء وعلاقاتها البينية للوصول إلى تفسيرات محتملة لمعنى المشهد»[1].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ إذ نجد في الأدبيات الإدراكية انتقاداً لنظرية التأسيس جاء على يد عالم النفس الأمريكي : جيمس جيروم جيبسون James Jerome Gibson (١٩٠٤-١٩٧٩) الذي قضى ثلاثين عاماً في بحث الإدراك الحسي[2] أخرج حصيلتها في دراساته ومنها كتابه (المقاربة البيئية للإدراك الحسي البصري The Ecological Approach to Visual Perception) عام ١٩٧٩م .

وفي هذا الكتاب[3] يذهب جيبسون إلى أن الإدراك الحسي لا وساطة فيه للذاكرة ، ولا للاستنتاج ، ولا لأي عمليات نفسية أخرى تنتظم فيها تمثلات ذهنية . إن كل هذه العمليات النفسية (التعرف ، التفسير ، الاستنتاج ، التصورات ، الأفكار ، تخزين الأفكار واسترجاعها) إنما هي (موضة قديمة)! ومن ثم يرى جيبسون أن نظريته البيئية الجديدة في الإدراك الحسي (وتعرف أحياناً بنظرية التشغيل المعلوماتي information processing ، وأحياناً بنظرية اللاقط المعلوماتي information pickup) تتضمن نظرية جديدة في الإدراك الذهني عموماً cognition تقوم على أنه لا بد من النظر إليه ؛ أي إلى الإدراك الذهني ،

---

(1) Green, C. & Hummel, J.E. (2004). Relational perception and cognition: Implications for cognitive architecture and the perceptual-cognitive interface. In B.H. Ross (Ed.): The Psychology of Learning and Motivation, Vol 44, (pp. 201-226). San Diego, CA: Academic Press. on: nternal.psychology.illinois.edu/../pubs/Green%26Hummel04_PLM.pdf

(٢) تقول موسوعة العالم الجديدة عن جيبسون إنه يعد «واحداً من أهم علماء نفس القرن العشرين في مجال الإدراك الحسي البصري . انظر :

http://www.newworldencyclopedia.org/entry/J._J._Gibson

(٣) لم يتيسر لي الحصول على كتاب جيبسون ؛ لذا أعتمد هنا في عرض رؤيته على المقالة نفسها الوارد الإحالة إليها من قبل :

J. A. Fodor & Z. W. Pyllyshyn (1981): How direct is visual perception?: Some reflections on Gibson's "Ecological Approach .

«بوصفه جزءاً مندمجاً في السياقات الفيزيقية والاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها»[1] . هذا الاندماج يعني ارتباط البشر ببيئتهم لدرجة دخول هذا الارتباط في تعريف هويتهم . وعلى هذا فإن النظام الإدراكي الحسي perceptual system لأنواع الكائنات قائم على تكامل الحواس والدماغ والجسد ، وهذا التكامل من الناحية الوظيفية غير قابل للفصل : لا يمكن فصل (الرؤية seeing) من (الفعل doing) . وهكذا يمضي جيبسون لينزع الوسم السلبي الذي ظل يحيط بمفهوم (الإدراك الحسي) ؛ فيذهب إلى أن هذا الإدراك Perception هو - بشكل متأصل- نشط واستكشافي حيث يبحث دائماً عن التعديلات في التدفق الواسع للمعلومات . وهذه التعديلات يتم التقاطها عندما يتحرك المدرك عبر البيئة المحيطة ويحدّق فيها بعينيه[2] . وفي كل الأحوال فإن الإمكانات المتاحة[3] affordances في المحيط البيئي هي التي تحدد المدى الذي يمكن أن تصل إليه هذه التعديلات ، تماماً كما أن الإمكانات المتوفرة للمدرك (تصميمه

---

(1) Kathy L. Schuh and Sasha A. Barab: Philosophical Perspectives in: Michael J. Spector, Marcy Driscoll, M. David Merrill, Jeroen van Merrienboer (eds.) (2008): Handbook of Research on Educational Communications and Technology. (Taylor & Francis Group LLC) p. 75.

Barab and Plucker (2002); Derry, 1996, p. 416 . : نقلاً عن P. 74. on:
www.aect.org/edtech/edition3/ER5849x_C007.fm.pdf

(2) Michael James Braund: The Structures of Perception: An Ecological Perspective. p. 124. In: KRITIKE. V.2, N.1 (JUNE 2008) 123-144. on: www.kritike.org/journal/issue_3/braund_june2008.pdf

(٣) حول نظرية (الإمكانات المتوفرة affordance theory) عند جيبسون انظر :
Dhaval Vyas & Gerrit C. van der Veer: Experience as Meaning: Creating, Communicating & Maintaining in Real-Spaces. Position paper (1) for Workshop - Spaces, Places & Experience in HCI at Interact-2005, Italy. on:
doc.utwente.nl/67063/1/16_DVyas2005.pdf

البيولوجي مثلاً) هي ما يحدد مدى قدراته على التصرفات والأفعال والتعديلات[1]. وعلى ضوء هذا يمكن تقرير أن البشر يطبقون استراتيجيات الحل الآني (الموقفي situated) للمشكلة باستخدام التجارب العملية السابقة وليس بالخطط العقلية المجردة»[2]. ولقد كان لمثل هذه الرؤية أثر واضح في (نظرية الموقفية situativity theory) التي تُحَلّل فيها العمليات الإدراكية الذهنية بوصفها علاقات بين الفاعلين والأنساق الأخرى، وهو الأمر الذي يجعل (المعرفة) سيرورة موقفية تنتج عن الفاعلية والسياق والثقافة التي تتطور وتُستخدم فيها[3]. وإذا كانت نظرية الموقفية هذه لم تكف عن توليد أمثالها في سياق فلسفة الإدراك الحسي، كما نجد مثلاً في ما تسميه سوزانا شيللينبرج Susanna Schellenberg «أطروحة التعلق بالموقف the situation-dependency

---

(١) يشرح جيبسون نظريته (الإمكانات المتوفرة) كما يلي: «هي الإمكانات التي تعرضها البيئة المحيطة على الكائن الحي. إنها ما تمدّه به وما تجهزه من حَسَنٍ وسيء. الفعل (afford) موجود في القاموس، ولكن الاسم (affordance) غير موجود. أنا الذي اصطنعته. وبطريقة لا يقوم بها مصطلح قائم فإنني أعني به ما يدل على الكائن الحي والبيئة معاً. فهو يتضمن تكاملية الكائن الحي والبيئة». انظر:

Perceiving, Acting, and Knowing: Toward an Gibson, J. J. 1977: The theory of affordances. Ecological Psychology 67-82, Hillsdale, NJ:Lawrence Erlbaum.

نقلاً عن: http://www.newworldencyclopedia.org/entry/J._J._Gibson

(2) Alan Dix , Margit Pohl & Geoffrey Ellis (2010): Perception and Cognitive Aspects. In: Daniel Keim, J?rn Kohlhammer, Geoffrey Ellis and Florian Mansmann: Mastering the Information Age Solving Problems with Visual Analytics. the Eurographics Association: Goslar, Germany.

(٣) انظر تلك المقالة الرائدة في (الإدراك الموقفي) التي حققت مكانة هائلة يمثلها الاقتباس منها حوالي خمسة عشر ألف اقتباس -حسب جوجل في يوم قراءتنا لها ٢٠١٥/٨/٣٠م: :

John Seely Brown, Allan Collins and Paul Duguid: Situated Cognition and the Culture of Learning. Educational Researcher; v18 n1, pp. 32-42, Jan-Feb 1989. on: people.ucsc.edu/~gwells/Files/Courses.../Situated%20Cognition.pdf

thesis ، .»[1] فإن ذلك في المحصلة العامة يرسخ من القيمة المعرفية لطرح جيبسون ، من جهة ، ويمثل تعزيزاً لمبدأ نسبية المعرفة ، من جهة أخرى . وقد يكون لنا أن نشير بهذه المناسبة إلى أن (المعرفة) في هذا السياق تُشبَّه بـ(اللغة) : «فمكونات اللغة دليل على العالم ، ومن ثم فهي نتاج لا ينفصل عن الفاعلية والمواقف التي تنتجها»[2] ، ومن ثم أيضاً يكون (المعنى) دائماً عملية تفاوضية[3] .

ونظراً لأهمية المكانة المرموقة التي تمثلها نظرية جيبسون بالنسبة إلى التحولات الإبستمولوجية في مفهوم (الإدراك) بنوعيه : الذهني والحسي فإننا ندع جريج كيرسلي Greg Kearsley يزيدها إيضاحاً حيث يقول : «نظرية التشغيل المعلوماتي تقترح أن الإدراك الحسي يعتمد كلياً على المعلومات القائمة في (نظام المثير stimulus array) وليس على الإحساسات التي تتأثر بالإدراك الذهني . ويقترح جيبسون أن المحيط البيئي يتكون من الإمكانات المتاحة (مثل : الأرض ، والماء والنبات . . .إلخ) التي توفر المفاتيح اللازمة للإدراك الحسي . وفضلاً عن ذلك فإن الوسط الخارجي يشمل ثوابت مثل الظلال ، والملمس ، واللون ، والفواصل ، والترتيب ، والتصميم الخارجي ، كل ذلك يحدد ما يُدرَك . وطبقاً لجيبسون فإن الإدراك الحسي هو نتيجة مباشرة لخصائص البيئة المحيطة ولا يتضمن أي شكل من التشغيل الحسي sensory processing . وتلح نظرية اللاقط المعلوماتي على أن الإدراك الحسي يتطلب كياناً عضوياً فعّالاً . ويعتمد فعل

---

(1) Schellenberg, Susanna (2008). The Situation-Dependency of Perception, p. 56. in: Journal of Philosophy 105: 55-84. on: philpapers.org/archive/SCHTSO-18

(٢) السابق نفسه .

(٣) انظر لمزيد من التفصيل :

Susanne Owen: Situativity Theory and Emerging Trends in Teacher Professional Development. AARE -November 2004. on :

www.aare.edu.au/data/publications/2004/owe04331.pdf

الإدراك الحسي على تفاعل هذا الكيان العضوي والبيئة المحيطة . فكل الإدراكات الحسية تقع بالإحالة إلى وضعية الجسد ووظائفه (حسه الذاتي وحركاته اللاإرادية proprioception) . والتنبه للبيئة المحيطة ينبثق من كيفية رد فعلها على حركاتنا . فنظرية اللاقط المعلوماتي تعارض معظم النظريات التقليدية في الإدراك الذهني التي تزعم أن التجربة السابقة تلعب الدور المهيمن في الإدراك الحسي . إنها تقوم على نظريات الجشطالت التي تؤكد على مغزى تنظيم المثير وعلاقاته»[1] .

وعلى الرغم من الانتقادات الموسعة التي قدمها فودور Fodor ، و : بيليشين Pyllyshyn ، لنظرية جيبسون ، فإن قولهما «الإدراك الحسي عملية استنتاجية ، وعلى هذا فإن ما يجري فيه هو إنشاء أنواع معينة من (البراهين) ؛ أي من المقدمات التي توفرها المحوّلات transducers للنتائج التي تعبر عن الأحكام الإدراكية الحسية»[2] يؤكد فكرة التداخل الوظيفي التي أشرنا إليها . غير أنه لا بد أن نشير هنا إلى أن هناك من فلاسفة العلم ، وبخاصة في مجال الفلسفة الإدراكية ، من يذهب إلى أبعد من فكرة (الاستنتاج) في عملية الإدراك الحسي . يقول ويليام بيشتيل مثلاً «فكرة أن الإدراك الحسي ؛ أي التعرف على الأشياء والأحداث ، غير مباشر ويقوم على (استنتاجات لاواعية) كانت ظاهرة بوضوح في القرن التاسع عشر على يد هيلمهولتز[3] . . . ولكن تطور الفهم العصبوني/ البيولوجي لكيفية اشتغال النظام البصري يدعم بوضوح فكرة أن هناك خطوات كثيرة من التشغيل الذهني بين تسجيل الضوء في الشبكية

---

(1) Greg Kearsley (1994-2003): Explorations in Learning & Instruction: The Theory Into Practice Database.

(٢) Dhaval Vyas & Gerrit C. van der Veer op cit p. 184. ويشير مفهوم (المحولات) إلى مسارات الأعضاء الحسية التي تتلقى الطاقة الفيزيائية التي يبثها مدخل معين ، وتحولها إلى طاقة أخرى .

(٣) العالم الألماني هيرمان هيلمهولتز Hermann Helmholtz (١٨٢١-١٨٩٤م) هو أبرز مؤسس لعلم الإدراك البصري .

والتعرف على الشيء أو الحدث المرئي»[١] .

أما التوجه الثاني فهو وليد المنظور الإبستمولوجي الوظيفي في الإدراكيات الذي يرى أن (العقل mind) و(الدماغ brain) شيء واحد ؛ حيث «إن العقل حين يُنظَر إليه من الداخل فهو الدماغ ، وإن الدماغ حين ينظَر إليه من الخارج فهو العقل»[٢] . وفي هذا الإطار تذهب ميشلا تاكا Michela C. Tacca إلى أن perception وcognition وثيقــا الارتباط . فإلى الحد الذي يبدوان فيه مشتركين فــي المعلومــات يظهر عدم وجود انفصام بين مجال قدرات الـcognition ، ومجال قــدرات الـperception[٣] . ولعــل وجــود تعبيــرات مثــل «cognitive

---

(1) William Bechtel (2009): The Epistemology of Evidence in Cognitive Neuroscience. in: R. Skipper Jr., C. Allen, R. A. Ankeny, C. F. Craver, L. Darden, G. Mikkelson, and R. Richardson (eds): Philosophy and the Life Sciences: A Reader. Cambridge, MA: MIT Press. on: mechanism.ucsd.edu/epist.evidence.bechtel.july2004.pdf

وتجدر الإشارة هنا إلى أن جون سيرل - من فلاسفة اللغة - يرفض أن يكون الإدراك الحسي عملية استنتاجية ، ومن ثم يعرض ما يسميه (الواقعية المباشرة للإدراك الحسي) ؛ واقعية الحضور القصدي presentational ، وليس التمثيل representational العقلي . انظر :

John R. Searle: Perceptual Intentionality. Organon F 19 (2012), 9-22. on: www.klemens.sav.sk/fiusav/doc/organon/prilohy/2012/2/9-22.pdf

(2) Kathy L. Schuh & Sasha A. Philosophical Perspectives. on: www.aect.org/edtech/edition3/ER5849x_C007.fm.pdf. P.71, cited from: Barab Turvey, M. T. and Shaw, R. E. (1995). Toward an ecological physics and a Physical Psychology. William Bechtel (2009): The Epistemology of Evidence in Cognitive Neuroscience. in: R. Skipper Jr., C. Allen, R. A. Ankeny, C. F. Craver, L. Darden, G. Mikkelson, and R. Richardson (eds.), Philosophy and the Life Sciences: A Reader. Cambridge, MA: MIT Press. on: mechanism.ucsd.edu/epist.evidence.bechtel.july2004.pdf

(3) Michela C. Tacca: (2011): Commonalities between Perception and Cognition. In: Frontiers in Psychology. 2011; 2: 358. on: www.pubfacts.com/.../Commonalities-between-Percepti...

(الإدراك الحسي الذهني) وmental perception،[١] وهو ما يمكن ترجمته بـ(العمليات الإدراكية الحسية العقلية) perceptual processes[٢] ويمكن ترجمته بـ(الإدراك الذهني الخلوي الجزيئي) وmolecular cellular cognition[٣] ويمكن ترجمته بـ(الإدراك الذهني البصري) visual cognition[٤] ... إلخ أقول: لعل وجود مثل هذه التعبيرات يجسد بوضوح شديد ما يذهب إليه أصحاب هذا التوجه الثاني. كذلك يجسده ما أسفرت عنه نتائج تجارب (التعاقب الذهني mental rotation) الذي عُدَّ وظيفة إدراكية ذهنية a cognitive function. فلقد دللت هذه التجارب على أن الأحداث والتحويلات الذهنية أثناء هذا التعاقب تشبه تلك الأحداث الذهنية التي تحدث أثناء الإدراك الحسي للحدث الواقعي نفسه. فالعقل -وفقاً لهذا الرأي- يمر بحالات توسطية تماثل تلك الحالات التوسطية التي يمر بها أثناء الإدراك الحسي perceiving.[٥] ويمثل صدور كتاب باتريشيا سميث تشيرشلاند (الفلسفة العصبونية: نحو نظرية

---

(١) ورد هذا التعبير في :

Richard L Gregory (1997): Knowledge in perception and illusion. In: Phil. Trans. R. Soc. Lond. B (1997) 352, 1121-1128. on:

www.richardgregory.org/papers/...illusion/knowledge-in-perception.pdf

(٢) ورد هذا التعبير في :

Gerald Westheimer (2008): Was Helmholtz a Bayesian? A review. In: Perception, 2008, volume 37. on:

https://bspace.berkeley.edu/access/content/user/54855/HelhBaysPdf

(٣) انظر molecular cellular cognition في Wikipedia

(٤) ورد هذا التعبير في :

Claire F. Michaels, Claudia Carello : Direct Perception (Century psychology series). Prentice Hall (1981). P.4

(5) Maria A. Brandimonte, Nicola Bruno and Simona Collina. op cit. pp.14-15

موحدة للعقل/الدماغ»[١] عام ١٩٨٥ أحد أهم المعالم في تيار ذلك التوجه الثاني ، حيث بدت «الأسئلة المتعلقة بالتمثيلات والحوسبات ، والتي استمرت مطروحة زمناً طويلاً في قلب النظريات الفلسفية عن كيفية عمل العقل هي الأسئلة التي أصبحت مركزية في التنظير العصبوني حول طريقة عمل الدماغ»[٢] .

أما ما هو أكثر تجسيداً لهذا التداخل فهو طرح نظرية (الامتداد الإدراكي extended cognition) التي شاعت في تسعينيات القرن الميلادي الماضي ، والتي تذهب إلى أن تمثيلنا الإدراكي يقع جزئياً خارج رؤوسنا ؛ حيث إن استعمالنا للأدوات الخارجية في بعض الحالات يمكن عدُّه أمثلة للتمثيل الإدراكي[٣] . ولقد ترتب على ذلك كله القول بأن «نظرية الإدراك الحسي perceiving إنما هي نظرية في معرفة البيئة المحيطة»[٤] . وعندما يقال هنا (الإدراك الحسي = معرفة البيئة المحيطة) فهذا يعني ترادف الإدراك الحسي والإدراك الذهني ؛ حيث إن هذه المعرفة تبدأ «عندما يتم تخزين الإدراكات الحسية المبكرة في الذاكرة ، ثم يتم محاكاتها أو استرجاعها لدى الحالات المماثلة اللاحقة ، ليس فقط لدى وقوع الموضوع نفسه وإنما لدى وقوع تمثيلاته أيضاً ؛ مثل وقوع تصويره المرئي أو اللفظي»[٥] .

---

(1) Churchland , Patricia Smith (1985): Neurophilosophy: Toward a unified Science of the Mind/ Brain. The MIT Press.

(2) Ibid. p. 9

(3) Andy Clark & David J. Chalmers (1998): The Extended Mind. in Analysis 58:10-23, 1998. Reprinted in (P. Grim, ed.) The Philosopher's Annual, vol XXI, 1998. on: post-cog.ucd.ie/files/TheExtendedMind.pdf

(4) Claire F. Michaels, Claudia Carello : Direct Perception (Century psychology series). Prentice Hall (1981). P. 1

(5) Ryan Smith Elder: (2011): Cognition and Sensory Perception: The Effects of Advertising and Mental Simulation on the Perceptual Consumption Experience. P.1. A dissertation- in The University of Michigan. on: deepblue.lib.umich.edu/bitstream/handle/2027.42/../rselder_1.pdf?

الإدراك الذهني وإبستمولوجيا الجسدنة:

ثمة في تصوري ضرورة ملحة للنظر إلى ملمح بالغ الأهمية في مستجدات المقاربة الإدراكية خلال ابتعادها عما تسميه مونيكا كوارت[1] Monica Cowart برنامج البحث الإدراكي الكلاسيكي cognitivist/classicist research program ؛ وأقصد بذلك الملمح انبثاقَ نظرية الجسدنة embodiment التي تعني أن «الأفكار ، والمشاعر ، والسلوك ، كل ذلك يتأسس على التفاعل الجسدي مع البيئة المحيطة»[2] . لقد أدى انبثاق هذه النظرية واتساع رقعة تبنيها إلى جعل التفاعل الجسدي مع العالم هو بؤرة التركيز ، ومن ثم أدى ذلك إلى تحول إبستمولوجي «من النظر إلى العقل الإنساني بوصفه مجرد نظام حوسبي له خصائص التصميم التي لحاسوب حديث ، إلى النظر إليه بوصفه نظاماً بيولوجياً (صمّمته) قوى التطور المنظِّمة»[3] . ومن ثم يذهب علم النفس التطوري إلى أن «العقل يتكون من عدد ضخم من الآليات المتخصصة التي صُمِّم كلٌ منها لحل مشكلة تكيُّفية مختلفة»[4] .

والحقيقة فيما يبدو أن هذا التحول الإبستمولوجي هو وليد سياق عام إلى الدرجة التي يذهب فيها أحد الباحثين إلى القول بأنه «يمكن اعتبار القرن

(1) Monica Cowart: "Embodied Cognition" in: Internet Encyclopedia of Philosophy. On: http://www.iep.utm.edu/

(2) Brian P. Meier, Simone Schnall, Norbert Schwarz, John A. Bargh (2012): Embodiment in Social Psychology. In: Topics in Cognitive Science (2012) 1-12 . pdf on: www.yale.edu/ ../MeierSchnallSchwarzBargh2012TOPI...

(3) L. Cosmides (1989(: The logic of social exchange: Has natural selection shaped how humans reason? P. 188. In: Cognition, 31: 187-276. Elsevier Science Publishers B.V, on: www.cep.ucsb.edu/papers/socexcog89.pdf

(4) David M. Buss (2008): Evolutionary psychology: the new science of the mind. P.396 3rd ed. Pearson Education, Inc.

العشرين قرن الجسد ، أو . . . زمن البيولوجيا ؛ لأن أهم الاكتشافات والتحولات التي حدثت فيه تتعلق بالجسد»[1] .

ولقد تعززت نظرية الجسدنة بأسس المعرفة التفصيلية ونتائجها في الفسيولوجيا العصبونية neurophysiology وفي تشريح الدماغ مما جعل فلاسفة مثل دانييل دينيت Daniel Dennett ، وبول تشيرشلاند Paul Churchland ، وباتريشيا تشيرشلاند Patricia Churchland ، وعالم الفيزياء والكيمياء : فرانسيس كريك Francis Crick ، يناقشون كيف أن العقل يمكن أن يكون مسألة دماغية how the mind can be brainy .[2]

نظرية الجسدنة هذه معنية بأمرين حاسمين :

١- الطريقة الدقيقة التي يتجسدن بها الكائن العضوي ،

٢- والطريقة التي بها يقوم هذا الشكل المتجسدن بالكبح أو بالسماح لحدوث تفاعلات معينة داخل البيئة المحيطة .

ومن ثم فنحن أمام ثلاثية مترابطة متآزرة : الكائن العضوي ، والفعل الذي يؤديه ، والمحيط الذي يؤدي فيه . وعلى هذا فنحن بحاجة إلى مصطلح عام الدلالة على عملية متكاملة تشترك فيها المدخلات inputs والتشغيل processing والمخرجات outputs . وفي هذا السياق لا بد أن نأخذ في الحسبان تلك الإشارة المهمة التي يوردها أندرياس فيبر حيث يقول عن فرانسيسكو فاريلا[3] مؤسس علم الظاهراتية العصبونية إنه يستخدم مصطلح cognition : «ليس بالمعنى الكلاسيكي في العلوم الإدراكية (الذي يفهم الإدراك على أنه الفاعلية المنطقية

---

(١) د . يوسف تيبس : تطور مفهوم الجسد من التأمل الفلسفي إلى التصور العلمي . (مجلة عالم الفكر : المجلد ٣٧- العدد٤- ٢٠٠٩) ص٣٦

(2) Richard Gregory (1998): Brainy mind. P. 1. In: Brit. Med. Journal 1998 317:1693_5. on: www.richardgregory.org/papers/articles/brainy-mind-bmj.pdf

(٣) Francisco Varela ١٩٤٦-٢٠٠١م) عالم شيليّ في الأحياء والفلسفة وعلم الخلايا العصبية ، وهو مؤسس (الظاهراتية العصبونية neurophenomenology) . انظر : Wikipedia

للرموز) وإنما ليؤكد إبداعية الانفتاح على عالم التفاعل المتصل بالنظام [الحيوي]. فالرموز هنا هي الأشكال الفيزيائية التي يكتسبها الكائن العضوي عندما ينشئ نفسه وفقاً لمعنى الدوافع الخارجية والداخلية من أجل عملية إنتاج الذات. وفي هذا النوع من الإدراك تخلق الكائنات العضوية الصلة]بالعالم [عن طريق فصل ما هو خارجي عنها، في الوقت نفسه الذي تكون معتمدة عليه»[1]. ولا شك أن ذلك يذكرنا بوضوح بما تذهب إليه النظرية البنائية Constructivism في فلسفة التعليم حين «تؤكد أن المعرفة لا يتم استقبالها بشكل سلبي، وإنما تبنيها الذات المدركة cognising subject، وأن وظيفة الإدراك هي وظيفة تكيفية adaptive تمكّن المتعلم من إنشاء تفسير حيوي للتجربة»[2].

وهذه الاعتبارات تشرحها بتوسع مارجريت ويلسون : Margaret Wilson في مقالتها (٢٠٠٢م) : (ستة آراء في الإدراك المتجسدن).

تتحدث ويلسون في هذه المقالة عن تلك الحركة النشطة التي تجري على قدم وساق، والتي تعطي الجسد دوراً مركزياً في تشكيل العقل. وهي ترى أن نقطة الانطلاق النظرية التي يأخذها مناصرو الإدراك الذهني المتجسدن ليست هي العقل المشتغل بالمشكلات المجردة، وإنما هي الجسد الذي يتطلب عقلاً يجعله يقوم بوظيفته. وفي هذا التوجه تسوق ويلسون اقتباساً من أندي كلارك في السطور الافتتاحية من دراسته (الإدراك الذهني الموزع، والموقف، والمجسدن) (Embodied, Situated, and Distributed Cognition) عام ١٩٩٨م حيث

---

(1) Weber, Andreas The Book of Desire: Toward a Biological Poetics. Springer Science+Business Media B.V. 2010. (متوفر على الشبكة)

(2) David F. Treagust & Reinders Duit (2009): Multiple Perspectives of Conceptual Change in Science and the Challenges Ahead. In: David F. Treagust and Reinders Duit Journal of Science and Mathematics Education in Southeast Asia. Vol. 32 No. 2, 89-104. on: www.recsam.edu.my/R&D.../multipleperspectives(89-104).pdf

يقول إن (الدماغ البيولوجي هو نظام التحكم الأول والغالب بالنسبة إلى الأجسام . والأجسام البيولوجية تتحرك وتفعل في محيط غني من العالم الواقعي) . وقول كلارك هذا الذي تقتبسه ويلسون يتعزز عندما نقتبس من مقالة أخرى لكلارك قوله «إن العمل الحديث في العصبونيات والروبوتيات وعلم النفس . . . يؤكد القرابة غير المتوقعة بين الدماغ والجسد والعالم ، ويدعونا إلى أن نهتم ببنية الأنساق التكيفية الممتدة وآلياتها ؛ هذه الأنساق التي تتضمن تنويعة بالغة الاتساع من العوامل والقوى»[1] .

وتشير ويلسون إلى أن العلوم الإدراكية في مرحلتها الأولى التي نطلق عليها (المرحلة التقليدية) كانت ترى العقل على أنه مشغِّلٌ تجريدي للمعلومات ؛ حيث لا تمثل ارتباطاته بالخارج سوى أهمية ضئيلة . ولم تكن الأنساق الحركية والإدراكية الحسية - على الرغم من كونها في ذاتها موضوعات بحثية قيمة- تُعتَبر ذاتَ صلة بفهم العمليات الإدراكية (المركزية central) . لقد اعتُقد بدلاً من ذلك أنها تعمل كمجرد وسائل للمدخلات أو المخرجات الطَّرَفية . وفي هذا السياق تقدم ويلسون إشارات مركزة عن المواقف المبكرة لهذه العلوم الإدراكية . ففي علم النفس الإدراكي كانت معظم نظريات التفكير البشري تعالج هذا التفكير بأشكال افتراضية من المعرفة . أما في دراسات الذكاء الاصطناعي فقد سيطرت نماذج الحاسوب في التشغيل الرمزي المجرد . وقدمت فلسفة العقل إسهامها في هذه الروح السائدة ، وبشكل بارز في فرضية التنظيم الجدولي modularity عند فودور (١٩٨٣) . فوفقاً لفودور فإن الإدراك الذهني المركزي central cognition ليس تنظيماً جدولياً ، وإنما المنظم جدولياً هو ارتباطاته بالعالم . والتشغيل الحركي والإدراكي الحسي يقوم به برامجُ طرفية مغلقة معلوماتياً تزوِّد

---

(1) Andy Clark (1998): Where Brain, Body and World Coolide. In: DAEDALUS : Journal of the American Academy of Arts and Sciences. (Special Issue on The Brain) Vol 127: no 2: Spring 1998 p. 257-280. on: www.philosophy.ed.ac.uk/people/clark/pubs/where.pdf

بأشكال محدودة بشدة من المدخلات والمخرجات .

ولكن ويلسون تورد مسألة مهمة في سياق هذا الرصد للتحولات الإبستمولوجية داخل العلوم الإدراكية فتشير إلى أنه كان ثمة موقف مختلف جذرياً له أصوله أيضاً في فروع مختلفة من العلم الإدراكي . هذا الموقف أكد على الوظائف الحسية والحركية ، وكذلك على أهميتها لتحقيق تفاعل ناجح مع البيئة المحيطة . هذا الموقف المختلف تمثله ـ طبقاً لويلسون ـ مصادر مبكرة لعلماء نفس القرن التاسع عشر الذين ذهبوا إلى أنه ليس ثمة مثل هذا الشيء الذي يسمى (التفكير بلا صورة) ، وكذلك تمثله نظريات الحركة في الإدراك الحسي كتلك التي اقترحها وليام جيمس وآخرون ، وكذلك يمثله علم نفس النمو عند جان بياجيه الذي أكد على انبثاق القدرات الإدراكية من قاعدة القدرات الحسحركية ، وعلم نفس البيئة عند جيبسون J. J. Gibson الذي نظر إلى الإدراك الحسي في حدود إمكانيات الاستخدام affordances ؛ أي في حدود طاقة التفاعلات مع البيئة . وفي الثمانينيات بدأ اللسانيون يفحصون كيف أن التصورات المجردة تتأسس على استعارات جسدية وفيزيائية . وفي الوقت نفسه ، بدأت في داخل الذكاء الاصطناعي الروبوتيات robotics ذات التأسيس السلوكي في التأكيد على عادات التفاعل مع المحيط بدلاً من التأكيد على التمثلات الداخلية التي تستخدم للتفكير المجرد . وهنا تتوقف ويلسون لتشير إلى أن هذا النوع من المقاربة اكتسب حديثاً ظهوراً عالياً تحت راية الإدراك المتجسدن ؛ حيث ثمة التزام متنام بفكرة أن العقل يجب فهمه في سياق علاقته بالجسد الطبيعي الذي يتفاعلُ مع العالم . لقد تم التدليل على أننا تطورنا عن مخلوقات كانت مواردها العصبونية مكرسة أساساً للتشغيل الحركي والإدراكي الحسي ، وكانت فاعليتها الإدراكية الذهنية تتكون بالشكل الأكبر من التفاعل المباشر الحي مع المحيط . وتختم مارجريت ويلسون هذه الصورة البانورامية بقولها «ومن ثم فالإدراك الذهني البشري بدلاً من أن يكون مركزياً ومجرداً ومنمازاً بحدة عن التنظيمات المركبة للمدخلات والمخرجات الطرفية ،

فإن له جذوراً عميقة في التشغيل الحسحركي»[١] .

ولعل النتيجة الأكثر أهمية مما يترتب على تحليل مارجريت ويلسون هذا أن النظرية التقليدية في مفهوم (الإدراك) ؛ وأعني بها نظرية (التمثيل الموضوعي) ، بدأت تشهد تحولاً عنها لصالح إرساء نظرية (التمثيل الموجه بالحدث Action-oriented representation) التي أفاض في بسطها آندي كلارك ، وبخاصة في كتابه ١٩٩٧م (الوجود هناك : وضع الدماغ والجسد والعالم معاً مرة أخرى Being There: putting Brain, Body and World Together Again)[٢] . وفي إطار هذه النظرية يبدو التمثيل متسماً بخصيصتين : أنه موضعيّ ، وأنه شخصي : موضعي بكونه مرتبطاً بالظروف الجارية المحيطة بالمنفِّذ ، وشخصي بكونه مرتبطاً بحاجات المنفذ ومهاراته . وعلى هذا الأساس فهو غير موضوعي لكونه دائماً مرتبطاً بمنفذ معين ، وبسياق معين ، وبوجهة نظر معينة . إنه ببساطة تمثيل لما يحدث لي هنا والآن[٣] . ولعل هذا ما يشرحه بوضوح صلاح الدين عرفة محمود عندما يقول «لكل دماغ خريطته الذهنية ، ولكل دماغ نظام فريد من الروابط التي يقيمها ، فإذا سمعنا كلمة أو شاهدنا صورة فإن كل شخص يقيم روابط مختلفة ، وربما عشرات ، أو مئات ، أو ملايين الروابط التي لا يشاركه فيها أحد»[٤] . ويشير (هيوارت وآخرون) إلى أن علم النفس التطوري الإدراكي ، كان

---

(1) Margaret Wilson (2002): Six views of embodied cognition. In: Psychonomic Bulletin & Review, 9 (4), 625-636.on:

people.ucsc.edu/~mlwilson/publications/Embodied_Cog_PBR.pdf

(٢) انظر للمزيد من التفصيل : Andy Clark (1998) op cit ، وانظر كذلك Anthony Chemero. op . cit

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) صلاح الدين عرفة محمود : تفكير بلا حدود : رؤى تربوية معاصرة في تعليم التفكير وتعلمه . عالم الكتب : الطبعة الأولى : ٢٠٠٦م . نقلاً عن : غادة محمد المهلل : أثر برنامج الخرائط الذهنية على تحصيل المفاهيم العلمية وتنمية الإبداع لدى تلميذات الصف الخامس الابتدائي بالمملكة العربية السعودية . ص١٩ . ماجستير بجامعة الملك سعود عام ٢٠٠٠م . Pdf على : /b7oth.com

قد برهن بوضوح منذ ١٩٤١م على يد بياجيه وانهيلدر Piaget & Inhelder على أن «التمثيلات الداخلية للواقع يتم إنشاؤها عن طريق الشخص نفسه طوال حياته ... وفي بعض خطوات هذا الإنشاء فإن هذه التمثيلات الداخلية تكون بشكل واضح مكتملةً وأمينة في علاقتها مع الواقع الذي تتوسطه . وفي خطوات أخرى تكون انعكاسات للواقع غير مكتملة ومشوهة»[1] . كل ذلك أفضى بطبيعة الحال إلى تحول مفهوم (المعرفة) من الاسمية إلى الفعلية الدائمة : من knowledge إلى knowing ؛ أي من الاســــمــيــة الدالة على (شيء) أو (موضوع) ثابت إلى الفعلية الدائمة الدالة على الفاعلية والإنجاز والإحداث .

وفي هذا الصدد يقول باراب ودوفي «(أن تعرف عن) تشير إلى فاعلية ، وليس إلى شيء . إنها دائماً أمر مسيَّق]أي في سياق [وليس مجرداً . (أن تعرف عن) فاعلية ينشئها بالتبادل تفاعل الشخص والبيئة المحيطة ، وليست أمراً يعرَّف بشكل موضوعي أو يُخلَق بشكل ذاتي . (أن تعرف عن) طريقة وظيفية في التفاعل ، وليست حقيقة»[2] .

هذه النسبية الإدراكية على مستوى الأفراد تصعد إلى مستوى أعلى فنجد النسبية الإدراكية على مستوى الجماعات الثقافية ، والمجتمعات المحلية . ومنذ مطلع القرن العشرين نجد أن الأنثروبولوجي الشهير مالينوفسكي (١٨٨٤ - ١٩٤٢) - وهو له أهمية خاصة في النظرية اللسانية بطرحه نظرية السياق - قد تحدث عن أن «الحياة العائلية ذات أهمية مصيرية بالنسبة إلى العقلية

---

(1) C.-A. Hauert, P.-G. Zanone & P. Mounoud (1990): Development of Motor Control in the Child: Theoretical and Experimental Approaches. in: Relationships Between Perception and Action. Edited by O. Neumann and W. Prinz cSpringer-Verlag Berlin Heidelberg 1990.

(2) Sasha A. Barab & Thomas Duffy (2000): From Practice Fields to Communities of Practice. in: David Jonassen and Susan Land (2012)]Second edition[: Theoretical Foundations of Learning Environments. P. 30. (Taylor & Francis).

الإنسانية» ، ولكن هذه العقلية تتشكل مع هذه الأهمية المصيرية بطرق متنوعة ومختلفة : «فالحقيقة هي أن العائلة ليست هي نفسها في كل المجتمعات الإنسانية . ويتنوع تكوينها بشكل هائل وفق مستوى النمو ووفق طبيعة تحضر الناس . وهي ليست متماثلة في الطبقات المختلفة في المجتمع الواحد»[١] . ولذلك فإننا نجد من يقترح مفهومَ (الإدراك الذهني الأهلي indigenous cognition) ليدلل من خلاله على أن تنوعات الكفاءة الإدراكية تعكس تكيفات لتنوعات في السياقات الاجتماعية والبيئية»[٢] . وفي عدد من الدراسات الحديثة في اختصاصات علمية مختلفة ـــ الأنثروبولوجيا ، وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس الثقافي ، وعلم نفس التقابل الثقافي . . ـــ تراكمت الأدلة على الطبيعة الخصوصية النوعية للإدراك الذهني الإنساني ، وعلى أن البشر في ثقافات مختلفة يظهرون امتلاك كفاءات إدراكية مختلفة خاصة ببيئاتهم التي يعيشون فيها[٣] .

هذا الذي يحدث للكائن الحي (هنا والآن) يسميه الفيلسوف والمحلل النفسي الأمريكي المعاصر أوجين جيندلين بـ«التجريب experiencing» أو «المعنى المحسوس felt meaning»[٤] . ولأن نظرية آندي ونظرية جيندلين تندرجان ضمن ما تسميه مارجريت ويلسون بالحركة التي تمضي «على قدم

(1) Bronislaw Malinowski: (1937): Sex and Repression in Savage Society. P. 3. London: Kegan Paul, Trench, Trubner & Co., Ltd.

(2) Qi Wang, Stephen J. Ceci, Wendy M. Williams and Kimberly A. Kopko (2004): Culturally Situated Cognitive Competence: A Functional Framework. P.3. in R. Robert J. Sternberg, Elena L. Grigorenko (Eds.): Culture and competence: Contexts of Life Success.on: www.sscnet.ucla.edu/cbd/announcements/culture&cognition.pdf

(3) Ibid. p. 4

(4) Neil Friedman: Eugene Gendlin s Approach to psychotherapy : An Awareness of Experiencing.in: annals 23 spring 2004. on: www.focusing.org/pdf/friedman_gendlin_annals.pdf

وسـاق في العلم الإدراكي» لـكي «تعطي الجسـد دوراً مـركـزياً في تشكيل العقل» ، فإن ذلك يضعنا أمام حقيقة أن الإبستمولوجيا الإدراكية نفسها شهدت تحولاً إبستمولوجياً epistemological shift من داخلها . فبعد أن كان شعارها المركزي في مرحلة النشأة أن المعرفة تتكون من تمثيلات عقلية رمزية ، وأن الفاعلية الإدراكية الذهنية تكونها التصرفات برموز هذه التمثيلات ؛ أي تكونها الحوسبة العقلية ، فإننا مع أواخر الثمانينيات نشهد حركة تنأي عن استعارة (المعرفة = اكتساب) صوب استعارة (المعرفة = مشاركة) التي تُعَدُّ المعرفة فيها بشكل أساسي أمراً موقفياً في الممارسة[١] . وأتصور أنه لا بد في هذا السياق من أن نشير إلى بعض المعالم الأخرى في تلك الحركة . وحيث إننا في هذا السياق إزاء طيف واسع من النظريات والاتجاهات والمقاربات فإن ذلك يفرض أن نشير إشارات وجيزة حول أهم هذه المعالم . وأتصور أن اختيار بعض هذه المقاربات ؛ مثل (نظرية المقاربة الإنجازية enactive approach) ، ونظرية (الإنتاج وإعادة الإنتاج الذاتي autopoiesis) ، ونظرية الإنتاج الممارَس أو (الإنتاج التكيفي practopoiesis) ، وأخيراً ما أطلق عليه (النزعة الخارجانيَّة externalism) ، أقول : قد يكون اختيار هذه المقاربات كافياً لتمثيل هذه المعالم ، ومن ثم لمزيد من الإيضاحات المركزة الدالة حول الأبعاد الإبستمولوجية في إعطاء الجسد دوراً مركزياً في تشكيل العقل :

* نظرية المقاربة الإنجازية enactive approach:[٢] وقد تبناها فاريللا وثومبسون

---

(١) Sasha A. Barab & Thomas Duffy (2000) op cit. p.32 بتصرف

(٢) يقول إيفان ثومبسون p.13 : «كلمة enaction تعني حدث سَنّ القانون ، ولكنها تتضمن أيضاً الدلالة على أداء أو تنفيذ الحدث بصفة عامة . . . ولقد وصف فاريللا الـ enaction بأنه تحديد طريق السير» انظر: -Ivan Thompson: (2007): Mind in Life: Biology, Phenomenology and the Sciences of Mind. P. 13. President and Fellows of Harvard College. ولقد تبنى ألفا نوي Alva Noe هذه النظرية في كتابه (الحدث في الإدراك الحسي) مع تعديله الخاص لها ؛ فانظر الفصل الأول من كتابه ، وانظر p. 233: Alva Noë (2004): Action in Perception. Massachusetts Institute of Technology:

وروزش في كـتـابهم المشـتـرك The embodied Mind عـام ١٩٩١ . ووفـقـاً لثومبسون في كتابه (العقل في الحياة) عام ٢٠٠٧م فإن تلك المقاربة تقوم على جملة من الأفكار المترابطة[1] :

أ - الفكرة الأولى هي أن الكائنات الحية هي كـائنات منفِّذة مستقلة ؛ تولِّد بفـاعليـة ذاتَهـا وتحـافظ عليـهـا ؛ ومن ثم فـهي تنجـز وتنتج مـجـالاتهـا الإدراكية الذاتية .

ب - الفكرة الثـانيـة هي أن الجـهـاز العصـبي هو نسق دينامي مسـتقل : فـهو جاهداً يولِّد أنماطَ فاعليتـه المتسقـة وذات المعنى ويحـافظ عليـهـا ، وفـقـاً لعـملهـا كـشـبكـة دائرية ومـتـعـددة الدخـول inputs من العـصـبـونات المتفاعلة .

ت - الفكرة الثـالثـة هي أن الإدراك هو تمرين على مـهـارةِ (كـيف تعـرف) في الحـدث الموقـفي المتـجـسـدن . فـالبنى والعـمليـات الإدراكـية تنبـثق من الأنماط الحسية الحركية المتكررة في الإدراك الحسي والفعل .

* نظرية الإنتـاج (وإعـادة الإنتـاج) الذاتي autopoiesis : وتقـوم على أن الحـيـاة الذهنية هي أيضـاً حـياة جسـدية متـموضـعة فـي العـالم ؛ حيث إن جذور هذه الحياة لا تقع ببسـاطة في الذهني وإنما تتوزع بين الجسـد والبيئة . إن حياتنا الذهنيـة تتـضـمن جسـدنا والعـالم القـائم خلف القـشـرة السطحية من كـيـاننا العضوي ، ومن ثم لا يمكن تقليص هذه الحياة ببساطة إلى عمليات دماغية داخل الرأس .

* نظرية الإنتاج الممارَس (الإنتاج التكيفي[2] Practopoiesis) : وتتمثل إحدى مسلماتها الرئيسة في أن العمليات العقلية بطبيعتها عمليات تكيفية

---

(1) Ibid. pp. 13ff.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر :

Danko Nikoli? (2015): Practopoiesis: Or how life fosters a mind. Journal of Theoretical Biology. Volume 373, 21 May Pages 40-61

adaptive ناجمة عن التفاعلات مع البيئة المحيطة ، وكل آلية تكيفية ـــ في أي مستوى من تنظيم الذات- تستقبل التغذية الراجعة من هذه البيئة المحيطة . وبما أن العقل ظاهرة بيولوجية ، فإن المبادئ البيولوجية التي تحكم التنظيم العضوي لابد أيضاً أن تكون هي المبادئ التي تحكم العمليات الذهنية .

* النزعة الخارجانيّة externalism : يقول روبرت ويلسون(١) «لقد كان الرأي المسيطر بخصوص الإدراك الذهني طوال التاريخ القصير للعلم الإدراكي ، والتاريخ الممتد لفلسفة العقل هو رأي الفردانية individualistic التي تذهب إلى أن العمليات الإدراكية الذهنية يجب فهمها عن طريق تجريدها بعيداً عن البيئة المحيطة الطبيعية والاجتماعية التي يحدث فيها هذا الإدراك» . ويوضح ويلسون بعد ذلك كيف أن هذه الوجهة الإبستمولوجية بخصوص العقل بدأت تواجه تحديات التحول لنصل تدريجياً إلى رفضها مع ظهور أشكال أكثر راديكالية من الخارجانية ؛ وذلك فيما سُمّي بـ(الخارجانية الموضعية locational externalism) ، أو بـ(البيئوية environmentalism) ، أو بـ(أطروحة العقل الممتد the extended mind thesis) . وتقوم هذه الأشكال على أن العقل والعمليات الإدراكية التي تكوّنه تمتد إلى ما وراء حدود بشرة الفرد المنفّذ ؛ أي إلى البيئتين المحيطتين : الطبيعية والاجتماعية . وفي هذا السياق يذكر ويلسون أن ثمة إشارة مبكرة أوردها هو في بحث له عام ١٩٩٤م يذهب فيها إلى أن الأنساق الحوسبية التي تكوّن العقل يمكن أن تمتد وتشمل كجزءٍ منها جوانبَ من بيئة الكائن العضوي .

(١) نعتمد في هذا العرض للخارجانية على مقالة روبرت ويلسون :

Robert A. Wilson: Meaning Making and the Mind of the Externalist. in Richard Menary (editor) The Extended Mind (Ashgate, 2005). on:

www.ualberta.ca/~philosop/faculty/wilson/meaningmaking.pdf

وأتصور أن ما ذكرناه حتى الآن بخصوص نظرية (الإدراك الذهني المتجسدن) أو نظرية (الإدراك الذهني الممتد) ، أو نظرية (الجسدنة) بصفة عامة ، أتصور أن ذلك يكفي لأن نشير إلى أن ذلك انعكس في الإبستمولوجيا المعاصرة برسم «صورة للعقل تجعله في تلاحم متبادل مع الجسد والعالم والفعل»[١] .

على أن ثمة مجالاً بات يقدم إضاءات كاشفة في تطور إبستمولوجيا الإدراك ؛ وأعني بذلك ما نستمده من التطور المعاصر في درس علاقة (المشاعر emotions) بالإدراك الذهني (cognition) .

الإدراك الذهني والمشاعر:

ثمة تاريخ ممتد في الفلسفة والعلم كانت فيه وجهة النظر السائدة هي أن المجالين (الإدراك الذهني) و(المشاعر) نظامان مستقلان ونادراً ما يتفاعلان ، أو - على حد عبارة تسور التي أوردناها من قبل- كان ثمة تمييز بين جانبين في الحياة الذهنية : الجانب العقلاني ، والجانب العاطفي والإثاري . فـ(العقل) - بالنسبة إلى أرسطو مثلاً - «منفصل عن ملكة الإدراك الحسي في النفس الشهوانية the appetitive soul»[٢] . وربما يمكن القول إن عبارة الفيلسوف الفرنسي الشهير باسكال (١٦٦٢م) «للقلب أسبابه التي لا يعرف العقل عنها شيئاً»[٣] شعاراً

---

(1) Krist Vaesen . op cit. p. 436

(2) Rachel R. Adams (2012): Aristotle on Mind. P.7. A thesis in philosophy at the University of Central Florida. on:

etd.fcla.edu/CF/CFH0003846/Adams_Rachel_R_201105_BA.pdf

(٣) نقلاً عن :

Jennifer Church (2005): Reasons of which Reason Knows Not. In: Philosophy, Psychiatry, and Psychology, vol. 12, no. 1, March 2005: 31-41. on:

faculty.vassar.edu/church/REASONS_OF_WHICH_REASON.pdf

دالاً على هذا التمييز . ومن ثم «ظلت المشاعر تقدم تحدياً خاصاً للدراسة العلمية ؛ لأن (الشعور) في التراث الثقافي الغربي الحديث تم تحديده بصفة عامة كمقابل لـ(الإدراك الذهني cognition) ، وبامتداد الخط إلى آخره تم تحديده كمقابل لـ(العلم) نفسه . . . ولم تصبح العاطفة محل اهتمام لدى العلماء إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن إقرارها كموضوع للدراسة أعيق بالمكانة الثقافية للمشاعر ؛ حيث اعتُبِرت أمراً نسوياً ، روحيا ، خارجاً عن التحكم ، في حين اعتبر العلم المعملي أمراً ذكورياً ، قائماً على أساس طبيعي ، واعتُبِر فضاءً عاليَ الانضباط . ومن ثم اصطدمت فكرة (العلم) بوصفه فعالية عقلانية مع (المشاعر) الصعب فهمها ، والرجراجة ، وغير القابلة للتحكم»[١] .

ولكن هذا التمييز يبدأ مع العلوم الإدراكية في الانحسار ؛ فنجد أنه في عام ١٩٦٢ يقدم ستانلي شاشتر S. Shachter وجيروم سينجر J. Singer دراسة بعنوان (المحددات الإدراكية الذهنية ، والاجتماعية ، والفسيولوجية ، للحالة الشعورية» وفيها يطرحان ما يسميانه «الصياغة المفهومية البديلة alternative conceptualizations»[٢] في دراسة المشاعر ؛ حيث يبرهنان على أن أي شعور يتطلب استثارة فسيولوجية وارتباطاً إدراكياً ذهنياً ؛ ومن ثم يقولان بوضوح «الإدراك الذهني ـــ بمعنى ما ـــ يمارس وظيفة توجيهية . الإدراكات الذهنية التي تنبثق من الموقف المباشر وفق ما فسرته التجربة الماضية تعطي الإطار الذي من خلاله يفهم الشخص مشاعره ويسميها . إنه الإدراك الذهني الذي يحدد ما

---

(1) K. Boehner et al (2007): How emotion is made and measured. P. 276. In: Int. J. Human-Computer Studies 65 (2007) 275-291. on:
dourish.com/publications/2007/emotion-ijhcs.pdf

(2) Schachter, Stanley; Singer, Jerome: Cognitive, social, and physiological determinants of emotional state. P. 398. In: Psychological Review, Vol. 69, No. 5. (September 1962), pp. 379 - 399. on:
faculty.uncfsu.edu/tvancantfort/Syllabi/Gresearch/../A_Schachter1.pdf

إذا كانت حالة الاستثارة الفسيولوجية ستسمى (غضباً) أو (فرحاً) أو (خوفاً) أو ما إلى ذلك»[١] . وإذا كان هذا التوجه يمثل صوتاً إدراكياً مبكراً بخصوص علاقة الإدراك الذهني بالمشاعر فقد كانت إلى جواره أصوات أخرى في المرحلة الأولى من العلوم الإدراكية تعزز الفصل بين الجانبين ؛ وذلك بالذهاب إلى القول بأن موضوع هذه العلوم ليس المشاعر وإنما العمليات شبه الحاسوبية التي يقوم بها العقل[٢] . وفي الثمانينيات نجد دونالد نورمان Donald Norman يقول «مفاهيم كثيرة يجب أن تصبح أجزاء أساسية في دراسة الإدراك الذهني ، منها أدوار الثقافة ، وأدوار التفاعل الاجتماعي ، وأدوار المشاعر ، وأدوار الدوافع»[٣] . ومع ذلك فالانحسار الحقيقي للفصل بين الإدراك الذهني والمشاعر انتظر إلى تسعينيات القرن الماضي ؛ وذلك مع انبثاق ما يسميه أحد الباحثين بـ(ثورة المشاعر emotion revolution)[٤] ؛ وهو بطبيعة الحال يقصد بالثورة هنا ذلك التحول الإبستمولوجي في تفسير الظاهرة المشاعرية . وهذا التحول الإبستمولوجي قادته العلوم الإدراكية مع تحولها هي من داخلها من الإبستمولوجيا التي هيمنت على بواكير دراسات الذكاء الاصطناعي ؛ ومؤداها [العقل = حاسوب] إلى إبستمولوجيا (الإدراك الذهني المتجسدن) أو (الجسدنة) التي يُطلَق عليها «القوة العظمى في علم النفس بصفة عامة ، وفي علم النفس

---

(1) Ibid. p. 380

(٢) راجع للمزيد من التفصيل :

Joseph E. LeDoux (2000): Emotion Circuits in the Brain. P. 156. In: Annu. Rev. Neurosci. 23:155-184. On: www-psych.stanford.edu/~knutson/ans/ledoux00.pdf

(3) Twelve issues for Cognitive Science. P.1. In: COGNITIVE SCIENCE 4, 1-32 (1980). on: http://csjarchive.cogsci.rpi.edu/1980v04/index.html

(4) Caldwell- Harris: Revolutions in Conceptualizing the mind: 1950 to the Present. on: www.bu.edu/cas/files/2011/12/KHC.PS_.101.pdf.

الاجتماعي بصفة خاصة»(١) ، ولا شك في اللسانيات الإدراكية ، وفي المشاعريات(٢) emotionology(٣) أيضاً .

هذا التحول جعل الإدراكيين يذهبون إلى أن المشاعر تلعب — على مستوى الفرد- دوراً في جوانب محتلفة من الإدراك ؛ مثل الإدراك الحسي ، والذاكرة ، والفعل ، والتعلم(٤) . كذلك يذهبون إلى أن الأفكار لا تقع في الدماغ بدون مشاعر ، والمشاعر لا تقع بدون أفكار . فالأفكار والمشاعر لا يمكن الفصل

---

(1) Piotr Winkielman, Paula Niedenthal, Joseph Wielgosz, Jiska Eelen, and Liam C. Kavanagh (2015): Embodiment of Cognition and Emotion. P. 151. In: APA Handbook of Personality and Social Psychology: Vol. 1. Attitudes and Social Cognition. the American Psychological Association. On:

pages.ucsd.edu/.../winkielman-et-al_embodiment-chapter_APA-2015.pdf.

(٢) أقترح هذا المقابل (مشاعريات) لمصطلح emotionology وهو علم متعدد الاختصاصات يقوم على شرح الترابط بين المشاعر والأفكار والسلوك . انظر تعريفه على :

http://emotionologyinstitute.com/

(٣) تذكر موسوعة الويكيبيديا أن مصطلح emotionology يمكن اقتفاؤه لدى بيتر ستيرنز/ وكارول ستيرنز في مقالتهما : المشاعريات : بيان تاريخ المشاعر والمعايير العاطفية ؛ وذلك في : The American Historical Review 90, 4 (1985), p. 813-830 ، ثم يمكن اقتفاؤه لدى روم هاري (محرر) كتاب : .The Social Construction of Emotion, Oxford 1986 ولكن موقع (مؤسسة المشاعريات : على الرابط :

http://emotionologyinstitute.com/learn - aboutemotionology/background-of-emotionology/

يذكر أن كلمة emotionology قد سكتها ماري نيستل - هالجرين Mary Nestle-Hallgren في بواكير التسعينيات .

(4) Roman V. Belavkin (2004):On Relation between Emotion and Entropy. P. 2. Proceedings of the AISB 2004. Symposium on Emotion, Cognition, and Affective Computing. University of Leeds, Leeds LS29JT, UK. on:

www.aisb.org.uk/publications/.../AISB2004-Affective-proceedings.pdf

بينهما[١] . وعلى حد عبارة جوزيف لودو فإن «المقاربة التي تستصفي الإدراك الذهني ؛ أي التي تحذف اعتبار المشاعر ، والدوافع وما أشبه ، ترسم صورة اصطناعية وغير حقيقية للعقول الفعلية . فالعقول ليست إما أن تكون مدركة ذهنياً أو أن تكون مشاعرية . إنها كلا الأمرين وأكثر»[٢] .

ومن الواضح أن ذلك يمثل انقلاباً على تاريخ الفصل بين الجانبين في الفلسفة وعلم النفس ، حيث كان السائد الأغلب في هذا التاريخ الممتد هو «أن كل ما ينتسب إلى دائرة الوجدان يتنافى مع الإدراك الذهني»[٣] . وعلى الرغم من أن هذا التاريخ نفسه شهد استبصارات مضادة لهذا الفصل ؛ نذكر منها مثلاً ما وقف عليه الدكتور العثمان عند الإمام الغزالي[٤] ، وما نجده في تراثنا أيضاً من اشتمال الإدراك على الحالات الشعورية حيث الشعور هو «خفي الإدراك الباطن»[٥] ، وما ذهب إليه جورج لوكيت G.Luquet (١٨٧٦-١٩٦٥م) عام ١٩٠٦م من أن «كل حالة نفسية هي في نفس الوقت وجدانية affectif ، وعقلية intellectuel ، وفاعلية actif»[٦] ، فإن الانقلاب الإبستمولوجي على هذا الفصل لم يصل إلى ذروته كما وصل مع ظهور كتاب Antonio Damasio : (خطأ ديكارت : الشعور ، والعقل ، والدماغ البشري) عام ١٩٩٤م الذي يذهب فيه إلى

---

(1) Todd Burley (1998): Minds and Brains for Gestalt Therapists. P. 135. In: Gestalt Review, 2(2):131-142. Pdf on:
www.gisc.org/gestaltreview/../mindsandbrainsforgestaltt...

(2) Joseph E. LeDoux (2000) op cit. p. 157

(٣) د . يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام . ص١١٠ . دار المعارف- القاهرة ١٩٥٤م .

(٤) د . عبد الكريم العثمان : الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص . (سبق ذكره) ص١٧٢ .

(٥) د . سمير أحمد معلوف : (الصورة الذهنية : دراسة في تصور المعنى) . مجلة جامعة دمشق - المجلد ٢٦ - العدد الأول+الثاني ٢٠١٠م- ص١٣٧ .

(٦) انظر : محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سنا . سبق ذكره ، ص٤٠ .

أن «المشاعر - على النقيض من الرأي العلمي التقليدي- هي أمر إدراكي ذهني تماماً مثلها مثل المدركات الأخرى feelings are just as cognitive as other percepts»[١]، وأن الشعور هو «تحقق اجتماع بين موضوع object معين وحالة جسدية شعورية معينة»[٢]. وخلص داماسيو إلى «أن المشاعر هي جزء لا يتجزأ من التفكير العاقل، وأن غياب المشاعر يمكن أن يحول دون العقلانية ويمكن أن يجعل صنع القرار الذكي مستحيلاً»[٣]. وبعد ظهور كتاب داماسيو بعامين يظهر كتاب جوزيف لودو (الدماغ المشاعري: التعزيزات السرية للحياة الشعورية The Emotional Brain: the Mysterious Underpinnings of Emotional Life) حيث يعلن بوضوح «أنا أرى أن المشاعر هي وظائف بيولوجية للجهاز العصبي، وأعتقد أن العمل على توضيح كيفية تمثيل المشاعر في الدماغ يمكن أن يساعد على فهمها»[٤]. ولقد أسهم مجالان معرفيان مستحدثان في فحص تفاعل المشاعر والإدراك: ففي مجال (العصبونيات الإدراكية) cognitive neuroscience تواصل البحث المكثف لفحص المشاعر حيث درس تشريح وفسيولوجيا البنيات المنخرطة فيها في إطار ارتباطاتها بالعمليات الإدراكية الذهنية[٥]. وفي مجال علم النفس التطوري Evolutionary psychology دلّل باريت وزملاؤه -كما يذكر بوس Buss- على العلاقة بين مشاعر الخوف من الحيوانات المفترسة لدى الأطفال وآليات معالجة المعلومات the information-processing mechanisms بما يتطلب على

---

(1) Antonio Damasio (1994): Descartes' error: emotion, reason, and the human brain. P. XV. Published by arrangement with G. P. Putnam's Sons, a division of the Putnam Berkley Group, Inc.

(2) Ibid. p. 132

(3) Ibid. p. 132

(4) Joseph E. LeDoux (1996): The Emotional Brain: the Mysterious Underpinnings of Emotional Life. P. 12. Simon and Schuster Paperbacks. New York.

(5) Friedenberg, Jay.& Silverman, Gordon : 2006: Cognitive science: an introduction to the study of mind. P.441. Sage Publications, Inc.

الأقل ثلاث مهارات إدراكية ذهنية[1] .

مثل هذه المستجدات المعرفية جعلت نظرية الجسدنة تضع تحدياً حقيقياً أمام الفصل والتمييز بين مجالي (المشاعر) و(الإدراك) بمفهومه التقليدي، إلى الدرجة التي باتت هذه المستجدات تمثل «إسهاماً في إحداث (تحول في النظام العلمي paradigm shift) في الدراسة العلمية للمشاعر»[2]، حيث الإقرار بأن الجسد يساعد العقل في تشكيل الاستجابة الشعورية، بل إن (المشاعر) و(الإدراك الذهني)[3] - على حد ما يذهب إليه معظم المنظرين المعاصرين - متكاملان تماماً؛ حيث إن «الانفعال بشعور معين يتضمن محاولة لتفسيره، والتفسير فعل إدراكي ذهني. ومن ثم فدوافع المشاعر تقع خلف - أو بالأحرى- تقع قبلَ العديد من الفاعليات الذهنية. وهذا يعني أن الشعور والإدراك الذهني لا يمكن فصلهما»[4] .

فإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه الأبعاد، وأضفنا إليها ذهاب التوجه المعاصر إلى أن الإدراك الذهني يشمل الحس والخيال والوهم والعقل[5]؛ وهي عمليات

---

(1) Buss, David M. Evolutionary Psychology: the new science of the mind. 3rd ed. 2008 . (ط١ ١٩٩٩) P. 98. Pearson Education, Inc.

(2) Lisa Feldman Barrett and Kristen A. Lindquist: The Embodiment of Emotion. in G.R. Semin and E.R. Smith (Eds.), Embodied grounding: social, cognitive, affective and neuroscientific approaches. New York: Cambridge University Press. on: www.unc.edu/~kal29/docs/Barrett&Lindquist_Embodiment2008.pdf

(٣) لعل صدور مجلة (Cognition and Emotion) منذ عام ١٩٨٧م، واستمرارها حتى صدور المجلد (٢٩) بأعداده الأربعة عام ٢٠١٥م، يمثل علامة دالة على تأثير الإدراكيات في دراسة المشاعر.

(4) Valeria Carofiglio & Fiorella de Rosis: In Favour of Cognitive Models of Emotions . on: wwwhome.ewi.utwente.nl/~heylen/AISB/carofiglio.pdf

(٥) لمزيد من التفصيل انظر:

Lamb, Sydney M.: "Neuro-Cognitive Structure in the Interplay of Language and Thought". in Puetz, Martin and Marjolijn Verspoor (eds) (2000): Explorations into linguistic relativity. Amsterdam: Benjamins

لا يفي بالدلالة عليها مصطلح (المعرفة) ومشتقاته ، فإننا نطمئن إلى القول بأن اختيار (الإدراك الذهني) مقابلاً لـ(cognition) أدق مما ينهض به أيٌ من المقابلات الأخرى .

كيف إذن نترجم perception؟:

تبقى نقطة تساؤل أخيرة : وكيف إذن نترجم perception؟ كيف نترجم هذا المفهوم الدال على قدرةٍ جعلَها الفيلسوفُ الشهير ميرلوبونتي «أساس كل العلوم والمعارف»[١] ، وجعلها عالم النفس جيبسون - كما عرضنا- الوسيلة الفعالة للمعرفة المباشرة بالعالم؟ والتي يتحدث كتاب حديث لـ(وليام فيش William Fish) بعنوان (فلسفة الإدراك الحسي : مدخل معاصر) (٢٠١٠م)[٢] عن صلتها

---

(١) انظر بصفة خاصة القسم الثاني PART II The World as Perceivedحيث يبدأ ميرلوبونتي المدخل بهذا العنوان الدال (نظرية الجسد هي بالفعل نظرية الإدراك الحسي : The Theory of the Body is already a Theory of Perception) ؛ وذلك في كتابه :

Maurice Merleau-Ponty (1962): Phenomenology of Perception. Translated by Colin Smith. Routledge & Kegan Paul.

(٢) لعل في ذلك دليلاً آخر يزيل وهم الأزهر الزناد بخصوص أن الفكر الغربي استعاض عن (perception) بـ(cognition) . وفي هذا السياق يمكن أن نشير أيضاً إلى كتاب مرجعي آخر صادر عام ٢٠١٣م يقول فيه صاحبه «سوف نقدم أفكاراً أعمق عن الشروط وبشكل رئيس عن نتائج العمليات الإدراكية الذهنية العليا المرتبطة بالإدراك الحسي» :Andrej Démuth (2013): Perception: Theories. P. 7. Filozofick? fakulta Trnavskej univerzity v Trnave ?. وانظر في علاقة ظاهرة التثبيت في الإدراك الحسي perceptual constancy بالذاكرة -وهي إحدى قدرات الإدراك الذهني on : Jonathan Cohen: Perceptual Constancy. P. 10. ومما يستلفت إليه النظر هنا أن إبستمولوجيا العلوم الإدراكية منذ تسعينيات القرن الماضي بدأت في الاتكاء على المنظور الظاهراتي الذي يعطي الإدراك الحسي منزلة محورية في فلسفته ، انظر الفصل الخامس perception من كتاب : Shaun Gallagher & Dan Zahavi: (2008): The Phenomenological Mind: An Introduction to Philosophy of Mind and Cognitive Science. Routledge. وعلى سبيل المثال فإن الرؤية الظاهراتية للإدراك الحسي تقدم دعماً قوياً لنظرية الفاعلية enactive theory التي =

الوثيقة بالإبستمولوجيا حيث إن «الإدراك الحسي هو المصدر الابتدائي لمعرفتنا بالعالم الذي نعيش فيه»[1] ، وأخيراً : هذا المفهوم الذي أخذ الربط بينه وبين (الاستنتاج inference) - وهي قدرة إدراكية ذهنية- تاريخاً ممتداً لدى سلسلة من علماء النفس تبدأ من الجشطالتي الشهير : هيلمهولتز Helmholtz في ستينيات القرن التاسع عشر ، وتصل إلى إرفين روك Rock Irvin (في ثمانينيات القرن العشرين الماضي) الذي كتب عن (منطق الإدراك الحسي) ، والذي - تحت عنوان بالغ الدلالة : الإدراكات الحسية البسيطة الواعية تتطلب تشغيلاً لاواعياً مركباً - يتحدث عنه بريدجمان Bruce Bridgeman قائلاً «إن أطروحتَه العلمية

= عرضنا خلاصة وجيزة عنها في طوايا هذا البحث . [انظر P. 98 وما بعدها من الكتاب نفسه] ، وكذلك تقدم دعماً لنظرية (الجسدنة) [انظر ربط هوسرل بين الإدراك الحسي وحس الحركة -ki naesthesia p. 98-99 من الكتاب نفسه .

على أن أهم دراسة في تصوري حول منزلة الإدراك الحسي في المعرفة المعاصرة هي دراسة لورانس بارسالو (أنساق رمز الإدراك الحسي) :

Lawrence W. Barsalou (1999): Perceptual symbol systems. In: BEHAVIORAL AND BRAIN SCIENCES (1999) 22, 577-660. on:

eclass.uoa.gr/modules/../file.../Perceptual%20Symbol%20Systems.pdf

aardvark.ucsd.edu/perception/perceptual_constancy.pdf

ويقول ستيفن هيكس Stephen R. C. Hicks في عرضه لكتاب

Allan Gotthelf and James G. Lennox: (eds.), Concepts and Their Role in Knowledge: Reflections on Objectivist Epistemology, University of Pittsburgh Press, 2013. in: Notre Dame Philosophical Reviews. On: http://ndpr.nd.edu/news/44395

«إن أهم مسألة في الفلسفة الحديثة هي العلاقة بين الوعي والواقع» . ومن ثم يرى أن الأسئلة التالية تجسد أهمية هذه المسألة : هل الإدراك الحسي مباشر؟ وكيف تُشتَق المفاهيم المجردة من المدركات الحسية المحسوسة؟ وكيف يعطي الإدراك الحسي التسويغ للتشكيلات المفهومية؟» . ولا شك أن كل هذه الأسئلة تبين موقع نظرية الإدراك الحسي في الإبستمولوجيا الحديثة .

(1) William Fish (2010): Philosophy of Perception: A Contemporary Introduction. P.3. Routledge- New York and London.

في مشروعه المهني تقوم على أن الإدراك الحسي ليس آلياً ، وإنما يتطلب لكي ينجح حوسبة وذكاء مكثفين»[1]؟

والإجابة ببساطة عن هذا السؤال الذي طال وتفرع هي أنه مادام هذا المفهوم دالاً على أي عملية ذهنية تقوم بتنظيم المدركات الحسية إلى نماذج ذات معنى ؛ أي مادام دالاً على «قدرة العقل على استخلاص النظام من الفوضى»[2] - على حد تعبير شالمرز ورفيقيه - فإننا نترجمه بما يدل على هذه الصلة الوثيقة بـ(الكفاءة الإدراكية) التي تشمله مع (الإدراك الذهني) ؛ أي : نترجمه بـ(الإدراك الحسي) . وهذا بالضبط ما فعلته الدكتورة ليلى الموسوي عندما ترجمت cognitive schema بـ«خطة إدراكية» ، وقالت في تعريفها بأنها «تمثيل ذهني لبعض جوانب الخبرة بناء على خبرة أو ذكريات سابقة . وتُبنى الخطط الإدراكية بطريقة تسهّل (وفي بعض الأحيان تحرّف) الإدراك الحسي والوعي واستنباط الدلائل وتفسير المعلومات الجديدة بناء على المعرفة القائمة»[3] . فالـperception ليس منفصلاً عن (المعرفة knowledge) التي بنتها (خبرة) الماضي : «ماضي الفرد ، وماضي الأسلاف ، بل ربما ماضي تجربة ماقبل

---

(1) Bruce Bridgeman (1998): Simple Conscious Percepts Require Complex Unconscious Processing: Review of Indirect Perception By Irvin Rock. In: PSYCHE, 4(6), May, 1998. on: http://psyche.cs.monash.edu.au/v4/psyche-4-06-bridgeman.html

(2) David J. Chalmers, Robert M. French & Douglas R. Hofstadter: High-Level Perception, Representation, and Analogy: A Critique of Artificial Intelligence Methodology. P.1 (CRCC Technical Report 49 - March 1991) in: Journal of Experimental and Theoretical Artificial Intelligence. Volume 4, Issue 3, July 1992, pages 185-211. on: consc.net/papers/highlevel.pdf

(٣) د . ليلى الموسوي (مترجمة) : ميليسا هاينز : جنوسة الدماغ . (عالم المعرفة)٣٥٣(٢٠٠٨- الكويت) ص٢٩٧ . وانظر مثالاً آخر (ص٢٠٥) وقارنه بـ(p. 169) في النص الأصلي :

Melissa Hines (2004): Brain Gender. Oxford University Press. New York.

الإنسان» على حد عبارة ريتشارد جريجوري[١] .

ولكي نتوسع قليلاً في مراقبة هذا التطور الإبستمولوجي المعاصر حول مفهوم perception يمكن الاتكاء مرة أخرى على ريتشارد جريجوري حيث يقول :

«إن الفكرة المفتاح في علم النفس الإدراكي منذ انهيار السلوكية هي أننا نبني أوصافاً دماغية لعالم الأشياء ، وهذه الأوصاف الدماغية هي التي تعطي الإدراك الحسي perception والسلوك الذكائي . الإدراكات الحسية لا يُنظر إليها كصور أو أصوات داخلية ، وإنما كأوصاف شبه لغوية ، مشفَّرة ــ كما نفترض- بوساطة بنى دماغية ، لما يمكن أن يكون هناك . إننا نحمل في رؤوسنا فرضيات تنبؤية عن العالم الخارجي للأشياء وعن أنفسنا . فرضيات الإدراك الحسي هذه المؤسسة دماغياً brain-based هي معظم واقعنا المباشر ، ولكنها تتضمن كثيراً من المراحل من التأشير الفسيولوجي والحوسبة الإدراكية الذهنية المعقدة ، لذا فالتجربة لا ترتبط بالواقع الخارجي إلا بشكل غير مباشر . . . إن الإدراك الحسي هو فرضيات دماغية إسقاطية موجهة للعالم الطبيعي ؛ أي هي التي تمنح العالم اللون والصوت والمعنى . . . إن تغيرات الفرضيات الدماغية تغير معنى الإدراكات الحسية ، وربما تغير حتى معنى الإحساسات sensations»[٢] .

ومن الواضح أن كل ذلك يقودنا شيئاً فشيئاً إلى ذوبان الحدود الفاصلة التي كانت قائمة ــ في الإبستمولوجيا التقليدية في علم النفس والفلسفة وفي المراحل الأولى من العلوم الإدراكيــة - بين cognition وperception . ولعل التعريف التالي للإدراك الحسي يكشف عن ذلك بوضوح . يقول منظِّر (المعلوماتيات الإدراكية) ينجكسو وانج Yingxu Wang : «الإدراك الحسي فئة من عمليات الدماغ الإدراكية الذهنية الحسية sensational الداخلية في طبقة

---

(1) Richard Gregory (1997): Knowledge in perception and illusion. P.5. Phil. Trans. R. Soc. Lond. B (1997) 352, 1121-1128. on:

www.richardgregory.org/papers/knowl../knowledge-in-perception.pdf

(2) Richard Gregory (1998): Brainy mind. op cit. pp. 1, 2

الوظيفة الإدراكية الذهنية ما تحت الوعي التي تلتقط وتربط وتفسر وتبحث في المعلومات الإدراكية الذهنية الداخلية في العقل :

Perception is a set of internal sensational cognitive processes of the brain at the subconscious cognitive function layer that detects, relates, interprets, and searches internal cognitive information in the mind.(1)

ومهما يكن من تعقيد الصوغ في هذا التعريف فإنه على الرغم من ذلك دال على ذلك الربط القائم في الإبستمولوجيا المعاصرة بين (الإدراك الذهني) و(الإدراك الحسي) .

وفي هذا السياق لابد أن نتوقف عند ما يقيم عليه ألفا نوي Alva Noë كتابه (الفعل في الإدراك الحسي Action in Perception)(٢) الصادر عام ٢٠٠٤م حيث يقول بدءاً من مقدمته «هذا الكتاب عن الإدراك الحسي والوعي . وُضع للفلاسفة وللإدراكيين ، بل للفنانين أيضاً ، ولأي شخص تعنيه كيفية الطريقة التي نوجد بها - أو التي نفشل في أن نوجد بها - تماساً حسياً مع العالم حولنا . وفي هذا الكتاب أدلل على أن الإدراك الحسي والوعي الإدراكي الحسي يعتمدان على قدرات الفعل وقدرات التفكير . فالإدراك الحسي - فيما أدلل - نوع من الفاعلية التفكيرية»(٣) . وسيأتي في موضع آخر ليقول بصيغة أشد وضوحاً «الإدراك الحسي ، والوعي الإدراكي الحسي ، إنما هما نمطان من الفاعلية المفكرة العارفة»(٤) . إنها النتيجة نفسها التي تقررها دراسات عالم العصبونيات ، العربيّ الأصل ، والحائز على جائزة الملك

---

(1) Yingxu Wang (2007): On the Cognitive Processes of Human Perception with Emotions, Motivations, and Attitudes. Pp. 1-2 In: Journal of Cognitive Informatics and Natural Intelligence, 1(4), 1-13, October-December 2007. on: www.ucalgary.ca/icic/files/icic/77-IJCINI-1401-Perception.pdf

(2) Alva Noë (2004): Action in Perception. Massachusetts Institute of Technology.

(3) Ibid. p. i

(4) Ibid. p.3

فيصل العالمية (سمير زكي) ؛ وهي أن «مواقع التشغيل الذهني في الدماغ البصري هي نفسها مواقع الإدراك الحسي البصري»[١] .

ولقد أدى الفهم المتزايد لآثار تفاعل (الكيان العضوي) مع (البيئة المحيطة) في بناء أنساقنا التصورية إلى حقيقة أننا (كائنات مدركة بالجسد embodied cognizers) ، ومن ثم إلى مزيد من الترسيخ لعبارة مارفن مينسكي الشهيرة «العقول ببساطة هي ما تفعله الأدمغة minds are simply what brains do»[٢] .

ولعل نظرة إلى فلسفة الفيلسوف والعالم النفسي الأمريكي المعاصر أوجين جيندلين Eugene Gendlin تقفنا على حقيقة أننا نفهم العالم من خلال تجريب experiencing العالم لحظة بلحظة ؛ أي من خلال تفاعل جهازنا العضوي مع بيئته ، وهو التفاعل الذي يسبق كل معرفة تجريدية ـــ إن كان ثمة ما يمكن أن يسمى معرفة تجريدية ـــ عن هذه البيئة ، بل يسبق حتى عمليات الإدراك الذهني : فنحن لا نستطيع حتى أن نعرف ماذا يعني (مفهومٌ) ما بدون أن (نشعر) بمعناه»[٣] . ولعل مد هذا الخط الإبستمولوجي إلى آخره يصل بنا إلى أننا إزاء «نظرية إدراكية حسية في المعرفة a perceptual theory of knowledge»[٤] .

---

(1) Semir Zeki (2002): Neural Concept Formation & Art.in: Journal of Consciousness Studies, 9, no. 3, 2002, pp.53-76. On: Neural Concept Formation & Art

(2) Marvin Minsky: Minds are Simply what Brains do. on: www.leaderu.com/truth/2truth03.html

(3) Maria Adriana Verdaasdonk: Poetic Felt Space: Embodying Poetry as Dance Movement Imagery. on: www.twu.edu/downloads/dance/verdaasdonk3(2).pdf.

(4) Raymond W. Gibbs, Jr. and Eric A. Berg (1999): Embodied metaphor in perceptual symbols. (Commentary/ Barsalou: Perceptual symbol systems). P. 617. ومواضع أخرى In: Behavioral and Brain Sciences 22:4. on: psychology.emory.edu/.../Barsalou_BBS_1999_perceptual_symbol_system...

وهكذا نصل إلى تلك النتيجة المهمة وهي أن «العمليات الحسية والحركية ليست عمليات هامشية، وإنما هي التي تشكل لبّ the core المحتوى الذهني»[(١)]. ولعل في جملة التجارب التي عرضها (كيركهوفس) و(هازلاجر) ما يدلل على ذلك بقوة[(٢)]. والمحصلة هي أن الإدراك الحسي يتضمن عملية حل شفرة تتمثل في تفسير المثيرات القادمة، وهذه عملية مركبة ومتعددة المراحل من تحويل الدخل input الحسي الموضوعي (ضوء، صوت) إلى تجربة ذاتية ذات معنى»[(٣)].

وإذا ما استعدنا الخلاصة التي يصل إليها جريجوري هنا، وهي أن الإدراك الحسي يعتمد بصورة كبيرة جداً على المعرفة المشتقة من تجربة الفرد الماضية، ومن تجربة الأسلاف، وأحياناً حتى من التجربة الماقبل بشرية، فإننا نصل إلى أن الإدراكات الحسية غالباً ما تتأسس على الماضي، ولكن التعرف على الحاضر هو أمر جوهري للكائن الحي ليبقى هنا والآن.

هذا العقل الدماغي الذي يتحدث عنه جريجوري لا يبتعد في مفهومه عن مفهوم (الفلسفة في اللحم الحي) التي شرحها لاكوف وجونسون في كتابهما الذي يحمل هذا العنوان، والذي يصف أحد الباحثين بؤرة تركيزه بأنها «الإدراك الحسي، أو بقول أدق، التفاعل مع البيئة المحيطة بوصفها أساس التطور المفهومي الساري تحت الأشكال اللغوية»[(٤)]. ففي هذا الكتاب يقول المؤلفان: «إن الآليات العصبونية والإدراكية نفسها التي تسمح لنا بالحس والحركة هي أيضاً التي تخلق أنساقنا التصورية وطرائقنا العقلية. وعلى هذا فلكي نفهم العقل reason يجب أن نفهم تفاصيل نظامنا البصري، ونظامنا الحركي، والآليات

(1) Roel Kerkhofs & Willem F.G. Haselage (2006): The Embodiment of Meaning. P.2. on: www.nici.ru.nl/.../EmbodMeanKerkhofsHaselager06.pdf

(2) Ibid.

(3) Wikipedia (code).

(4) Andrzej Pawelec (2007): A Note on the Formalism of Cognitive Linguistics. P. 101. In: Studia Linguistica Universitatis Iagellonicae Cracoviensis 124 (2007). On: www.filg.uj.edu.pl/documents/41616/4333141/12406-Pawelec.pdf

العامة للربط العصبوني . وبإيجاز ؛ فإن العقل reason ليس - بأي شكل - سمة متعالية a transcendent feature . . . إنه يتشكل جوهرياً بخواص أجسادنا البشرية ، وبالتفاصيل الرائعة للبنية العصبونية لأدمغتنا ، وبخصائص شغلنا اليومي في العالم»[1] . ولعله في هذا الأفق العلمي والمعرفي تبدو تفاؤلية فيلسوف كبير هو جون سيرل John Searle عندما يرى مثلاً أن حل الإشكالية القائمة في ثنائية العقل/ الجسد أصبح متاحاً لأي شخص متعلم منذ بدأ العمل الجاد على الدماغ منذ قرن تقريباً» ، وأن هذا الحل هو «أن الظواهر العقلية تسببها عمليات عصبونية فسيولوجية في الدماغ ، وأن هذه الظواهر نفسها هي سمات هذا الدماغ»[2] .

وفي هذا السياق تأتي نظرية عالم النفس الأمريكي لورانس بارسالو عن «الأسس الإدراكية الحسية للمعرفة» ، والتي تضمنت طرح نظرية (التمثيل المتجسدن embodied representation) ، والتي بسط القول فيها في مقالة شهيرة عام ١٩٩٩م تحت عنوان «أنساق الرمز الإدراكي الحسي» والتي علّق عليها في مجلة Behavioral And Brain Sciences عدد كبير من العلماء والباحثين المنتمين لاختصاصات علمية وأكاديمية مختلفة[3] . ويمكن في عجالة القول[4] بأن نظرية

---

(1) George Lakoff and Mark Johnson (1999): Philosophy in the Flesh: The Embodied Mind and its Challenge to Western Thought. Basic Books.

(2) Tim Crane and Sarah Patterson]eds.[(2000): History of the Mind-Body Problem. P. 2 Routledge: the Taylor & Francis Group. London, New york.

(3) Lawrence W. Barsalou (1999): Perceptual symbol systems. In: BEHAVIORAL AND BRAIN SCIENCES (1999) 22, 577-660. On: www.tech.plym.ac.uk/soc/staff/angelo/papers/Joyce-etal-ICCM.pdf

(٤) هذه صياغة مركزة لنظرية بارسالو في :

Dan W. Joyce & Lynn V. Richards: The Foundations of Perceptual Symbol Systems: Specifying Embodied Representations via Connectionism. On:
www.tech.plym.ac.uk/soc/staff/angelo/papers/Joyce-etal-ICCM.pdf

بارسالو جاءت لتحرك نظريات الجسدنة التي تقوم بصفة عامة بالتنظير للمعمار الإجمالي للإدراك الذهني ؛ وذلك عن طريق إعطاء تفاصيل للكيفية التي يوظف بها المنفذون الإدراكيون أنساق الرمز الإدراكي الحسي . فالرمز يشتغل كتمثيل قريب لشيء بعيد بالنسبة إلى الفاعليات الإدراكية الذهنية المتجهة صوب هذا الشيء (وبخاصة في غيابه) . لقد كان الرأي التقليدي يذهب إلى أن التحويل الحسي والإدراك الحسي ينتجان مدرَكاً ، وهذا المدرَك يتحول من ثم إلى رمز لا صيغي amodal منفصل ؛ . . . والمقصود بمصطلح (لا صيغي) أن الرمز لا يحمل علاقة مورفولوجية متسقة مع المدرك . ومن ثم ظلت العلاقة بين الرمز وما يحيل إليه (أي مرجعه) من أمثلة طبيعية محددة هي مشكلة تأسيس الرمز . وفي المقابل فإن نظرية بارسالو تقترح أن الرموز التناظرية analogue هي تلك التي يتحدد تمثيلها بالمعلومات الإدراكية الحسية . فثمة تحويل تلقائي منظم يحوّل انطباع الشيء البعيد على سطوح الحس إلى شفرة داخلية . وبشكل محدد فإن بارسالو يقترح ما يلي :

١- الرموز الإدراكية الحسية ليست تسجيلات ، وإنما تأليفات مخصوصة لفاعليات عصبونية ذات صلة تستثيرها الحالة الإدراكية الحسية القائمة ، لتشمل ليس فقط المرئي بل كل جوانب التجربة الإدراكية الحسية .

٢- الرموز الإدراكية الحسية المستخلصة عن الكائنات أو الأحداث تُجمَّع معاً في إطر . كل إطار منها هو بنية تتكون من رموز إدراكية حسية كثيرة لهذه الكائنات والأحداث حسبما تم تجريبها في الماضي .

٣- كل محاكاة هي تأليف منتج للرموز الإدراكية الحسية حيث يأتي الرمز الإدراكي وإطاره لينتج زمرة مفاهيم لا نهائية من جهة الاحتمال (حيث تتحدد كل محاكاة بمفهوم)

على أن كل ما سقناه حتى الآن بخصوص مفهوم (الإدراك الحسي) يمكن أن يفضي إلى أحد أمرين : إما أن التحولات الإبستمولوجية المعاصرة قد وصلت

إلى أنه لا فروق على الإطلاق بين هذا المفهوم ومفهوم (الإدراك الذهني) ، ومن ثم فلا ضرورة أن نتحدث عن مفهومين ، ويلزم الاقتصار على أحدهما ، وإما أن هذه التحولات قد وصلت إلى أن هناك فروقاً دالة إبستمولوجياً على استقلال كل مفهوم عن الآخر ، ومن ثم نكون إزاء الثنائية التقابلية الكلاسيكية نفسها بين المفهومين ، وهو ما يفضي إلى التناقض مع إشارتنا إلى سياق التحول الإبستمولوجي الذي نستقصيه في هذه المقالة . وأقول : إذا كان ذلك وارداً فلا بد من دفع هذه الشبهة .

وأتصور أن دفع هذه الشبهة يمكن أن يتأتي من خلال أخذنا بفكرة (الكفاءة الإدراكية) بوصفها القدرة العامة لدى الإنسان التي تعمل من خلال فاعليات التجريب والتكيف مع «المجال البيئي ، ومع العادات الاجتماعية ، ومع آليات الجسد ووظائفه العضوية ، ومع معماره العصبوني»[1] على إنشاء الأنساق التنظيمية system organizations للتجربة والفعل والذاكرة . هذه الكفاءة الإدراكية تشتمل على كفاءتين فرعيتين متآزرتين : كفاءة الإدراك الحسي perceptual competence ، وكفاءة الإدراك الذهني cognitive competence أو لنقل : إن هذه الكفاءة الإدراكية - والإنسان يمتلك منظومة واسعة من الكفاءات في جهازه العضوي[2] broad set of competencies in an organism - هي كفاءة حسية - ذهنية معاً percepto-cognitive . ولعل مفهوم (التشغيل المتوازي Parallel Processing) يوضح - ولكنه لا يتطابق مع - مانقصده بمفهوم (الكفاءة الإدراكية) . فالتشغيل المتوازي -وفق تعريف الرابطة النفسية الأمريكية APA-

(1) Shimon Edelman: some common assumptions to reconsider in the modelling of the brain and behavior. In: Journal of Experimental & Theoretical Artificial Intelligence, 2015. On: www.tandfonline.com/doi/pdf/

(2) Michael F. Mascolo (2008): the concept of domain in developmental analyses of Hierarchical Complexity. P. 330. In: World Futures, 64: 330-347, 2008. On: dareassociation.org/Papers/GWOF_A_330284%20Domain.pdf

يعني «عمليتان عقليتان أو أكثر يتم تنفيذها بالتوازي»[1] . وفي إطار هذا المفهوم يتحدث مثلاً عالم العصبونيات سمير زكي عن أنساق التشغيل الذهني/ الإدراكي الحسي processing-perceptual systems [2] فيما يتعلق بالبصر حيث يصل الى أنه يوجد في الدماغ موضعان في القشرة المخية أحدهما لـ(إبصار ما نرى) والثاني لـ(فهم ما نرى) ، وهما يشتغلان بشكل متوازٍ ، ولكن ليس بالضرورة بشكل متزامن .

ومن ثم فإذا أُطلق مفهوم (الإدراك) بدون نعت مخصص فإن المقصود به يكون هو تلك الكفاءة الإدراكية[3] . وعلى هذا فإننا عندما نستخدم في الترجمة العربية لـ(cognitive linguistics) صيغة (اللسانيات الإدراكية) ، أو لـ(cognitive psychology) صيغة (علم النفس الإدراكي) أو لـ(cognitive

---

(1) Glossary of Psychological Terms. On:

http://www.apa.org/research/action/glossary.aspx?tab=16

(2) S. ZEKI (1998): Parallel Processing, Asynchronous Perception, and a Distributed System of Consciousness in Vision. In: THE NEUROSCIENTIST Volume 4, Number 5,1998. On: www.vislab.ucl.ac.uk/pdf/neurosc98.pdf

وانظر أيضاً :

S. Zeki and A. Bartels (1999): Toward a Theory of Visual Consciousness. In: Consciousness and Cognition 8, 225-259 (1999). on: mobile.www.daysyn.com/Zeki1999.pdf

(٣) يقترب طرحنا هذا لمفهوم (الكفاءة الإدراكية) من مفهومي (ملكة الإدراك) و(جهاز إدراك المفهومات والرموز) عند عبد الرحمن أيوب . انظر : د . عبد الرحمن أيوب : تحليل عملية التكلم وبعض نتائجه التطبيقية . (مجلة عالم الفكر : المجلد ٢٠- العدد٣- ١٩٨٩) ص٦٥ ، ٦٦. ولكن طرحنا يختلف عن طرح عبد الكريم العثمان لمقولة (النشاط الإدراكي) الذي يقسمه إلى : «١- الإدراك الحسي . . . و٢- الإدراك العقلي . . .» . فالقسمان ما يزالان في هذا الطرح منفصلين . انظر : عبد الكريم العثمان . سبق ذكره . ص٢٧٨ .

Anthropology) صيغة (الأنثروبوجيا الإدراكية)[1] ، فإن الغاية الإبستمولوجية تكون هي تكريس الإشارة إلى أننا إزاء مقاربة إدراكية حسية/ ذهنية perceptо-cognitive approach[2] لـ(اللغة) ، وللـ(النفس) ، وللـ(الجماعة) ؛ إي إزاء تكاملية بين إدراكاتنا الحسية وتفكيرنا الواعي ومشاعرنا وعلاقاتنا . وسواء سُمّيت هذه التكاملية بـ(نظرية الفعالية) activity theory أو بـ(نظرية الموقفية) situativity theory أو (نظرية الإدراك المتجسدن) أو أي اسم آخر[3] فكل ذلك يشير إلى (الكفاءة الإدراكية) التي تعني - في تصورنا - مفهوماً يشاكل إلى حد ما أطروحة الفيلسوف كانت Kantian thesis عن طبيعة (الإدراك الذهني الحسي perceptual cognition) كما عرضتها الباحثة الهندية مونيما شادها Monima Chadha : أي أطروحة «أن التجارب الإدراكية الحسية تتطلب التآزر

---

(١) استخدم الدكتور سعد الصويان هذا المركب : (الأنثروبولوجيا الإدراكية) في مقالته (التفكير العلمي والخصوصية الثقافية) على موقعه الشخصي : http://www.saadsowayan.com/html/Articles/ A13.htm . واستخدم محمد ميلاد المركب نفسه في ترجمته لمقالة جون ـ فرانسو دورتييه (في الأصول الرمزية للمجتمعات) على : http://www.demounisalim.com/ في ٢٩/٩/٢٠١٠م

(٢) هذا التركيب المزجي استخدمه الفرنسي المعاصر (فيليب بوتز) وهو حاصل على شهادتي دكتوراه : الأولى في الفيزياء والثانية في المعلومات والاتصال ، كما أنه شاعر وناقد في الشعر الإليكتروني بخاصة ، وهو صاحب نظرية نقدية أطلق عليها النظرية الوظيفية الإجرائية The functional pro-cedural theory . انظر المقالة التالية التي تعود إلى عام ٢٠٠١م والتي ورد فيها هذا التركيب :

Phillipe Bootz: Reader/Readers: reading and beyond. on: www.p0es1s.net/poetics/symposion2001/bootz.pdf

(٣) من الشائق أن نرى اختصاراً لنظريات الإدراك الذهني المتجسدن هو (ديلز DEEDS) ؛ وهو جماع الحروف الأولى من : ,- Dynamical -, Embodied -, Extended -, Distributed -, and Situated

انظر :

Leslie Marsh (2007): Michael Wheeler: Reconstructing the cognitive world: The next step. In: (Phenom Cogn Sci) Springer Science + Business Media B.V. on: cog-prints.org/5893/1/wheelerFINAL.pdf

الفعال بين قدرات الحواس وقدرات العقل»[١] .

الخلاصة:

استخدام الصيغة (إدراك ذهني) مقابلاً لـ(cognition) ليس من قبيل التفضيل اللفظي . إنه - وفق معطيات ما قدمته المقالة فيما سبق - اختيارُ مكافئ بأفضلية تحقيقه الغايةَ الإبستمولوجية منه . فالهدف هو استحضار الانسجام والتوافق مع المنظور الإبستمولوجي الذي تسعى الإدراكيات في تطوراتها المعاصرة إلى تجسيده ، والذي يقوم على أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين الحالات الداخلية لنظامنا الإدراكي ، والعالم . فنحن لا نواجه العالم بأدوات محايدة معرفياً ، وإنما نواجهه بالقصد ؛ بقصد التفاعل ، أو التكيف ، أو الاستحواذ ، أو التفسير ، أو التنبؤ ، أو التخيل . . إلخ . هذه المواجهات هي عمليات بناء للعالم ، أو ديناميات إنشاء للعالم ، تتسم بالتجدد الحيوي ، وبالتجريب والنمو والتعديل ؛ أي تتسم بالتنوع الإدراكي cognitive diversity[٢] .

وبهذا المنظور فنحن أمام إبستمولوجيا ترى المعرفة هي ما تنشئه بنياتنا الجسدية ، وما يمكننا منه معمارُ جهازنا العصبي ؛ أي ما ينشئه نظامنا الإدراكي . يقول العالم الروسي فالانتين تورشين «المعرفة هي حضور نموذج معين للواقع في الدماغ . وزيادة المعرفة - أي انبثاق نماذج جديدة للواقع في الدماغ - هي عملية الإدراك الذهني»[٣] .

---

(1) Monima Chadha: Perceptual Cognition: A Ny?ya-Kantian Approach. P. 198. In: Philosophy East and West, Vol. 51, No. 2 (Apr., 2001), pp. 197-209. on: www.sjsu.edu/people/anand.../Perceptual-Cognition-by-M.-Chadha.pdf

(2) Michael A Bishop: Reflections on Cognitive and Epistemic Diversity: Can a Stich in Time Save Quine?.p.3. on: philosophy.fsu.edu/content/download/.../A%20Stich%20in%20Time.pdf

(3) Valentin F. Turchin (1977): The Phenomenon of Science: a cybernetic approach to human Evolution. Translated by Brand Frentz. P.67. Columbia University Press.

ومن هنا فإن النسبية هي الجوهر المقوّم لهذه المعرفة . ولقد أفاض العالم اللساني الإدراكي سيدني لامب في تقديم الأسس الإبستمولوجية لهذه النسبية ؛ وذلك من خلال دعمه القوي لفرضية وورف الشهيرة ، وهو الدعم المؤسس على دراسة بنية واشتغال النظام العصبوني الإدراكي لدى الإنسان the human neurocognitive system[١] . ولقد امتدت هذه الإبستمولوجيا النسبية إلى مجال النظرية العلمية ؛ فلم تعد يُنظَر إليها على أنها تقدم «وصفاً موضوعياً للعالم المحيط» ، وإنما على أنها «أداة تحاول أن تقدم تنبؤاً أفضل بديناميات هذا العالم المحيط ، وأن تمكّن من التصرف في هذه الديناميات بشكل أوفق»[٢] .

وعلى ضوء ذلك يترسخ لدينا ما تقوله دراسة حديثة (٢٠١٥م) :

«تذهب فكرة الجسدنة إلى أن تشغيل المستوى الأعلى higher level processing يتأسس في تجارب الكائن العضوي الحسية والحركية ؛ ومن ثم فإن مثل هذه الأطر النظرية غالباً ما تسمَّى نظريات الإدراك الذهني المتأسس grounded cognition . . . وطبقاً لنظريات الجسدنة فإن تشغيل المعلومات حول الأدوات ، والنكهات ، والأنشودات ، واتجاهات القيادة ، وتعبيرات الوجه الشعورية ، والخصائص الاجتماعية وخصائص الشخصية ، وحتى المفاهيم المجردة الاجتماعية أو الأخلاقية أو الشعورية أو الدافعية ، إلى جانب أنواع أخرى كثيرة من المعلومات ، كل ذلك يتأثر ، ويُحَصَّل ، ويرتبط بموارد الإدراك الحسي ، وبالموارد الحركية والحسية الجسمية ، بل إنه - في بعض الأحيان- يعتمد على هذه الموارد»[٣] .

---

(1) Markus F. Peschl: Constructivism, Cognition, and Science - An Investigation of Its Links and Possible Shortcomings. In: Foundations of Science, special issue on "The Impact of Radical Constructivism on Science", edited by A. Riegler, 2001, vol. 6, no. 1-3: 125-161.on:

https://www.univie.ac.at/constructivism/pub/fos/pdf/peschl.pdf

(2) Ibid.

(3) Ibid. p. 151

فمثل هذا القول يضعنا أمام حقائق التطورات الإبستمولوجية التي تفضي إلى أننا كبشر نمتلك في أدمغتنا وأجسادنا ما يمكن أن نصطلح عليه بمصطلح (الكفاءة الإدراكية) . وهذه الكفاءة تقوم على تفاعل الإدراك الذهني والإدراك الحسي لتحقيق التكيف الملائم مع البيئة المحيطة ، ولاكتساب المعرفة ونحوها . فـ«المشروع كله يبحث عن فهم كيف أن العمليات الذهنية - مثل : الإحساس ، والتصنيف ، والذاكرة ، واللغة ، وفي المدى الأقصى : الوعي نفسه - ينتجها النظام البيولوجي»[1] . ولمن يريد أمثلة كثيرة على ما بات يُطلق عليه جازانيجا وزملاؤه «الارتباطات التشريحية لجوانب مختلفة من الإدراك الذهني» أن يراجع كتابهم (العصبونيات الإدراكية : بيولوجيا العقل)[2] . ولكن يلزم هنا أن يلاحَظ أن مقولة (العقل) لم تعد ذلك المفهوم المجرد ، بل لم يعد يُكتَفى بترادفها مع (الدماغ) . إنها فاعلية الجسدنة الشاملة في تفاعلها التكيفيّ مع البيئة المحيطة : «إن رغباتنا وأفكارنا لا تأتي فقط من أدمغتنا ، وإنما من كل خلية في أجسادنا»[3] .

ولعله على ضوء كل ما سبق يمكننا أن نتحقق الآن من صدقية ما قاله كروز Cruz عام ٢٠٠٣م إن العلم الإدراكي سوف يلعب دوراً ذا مغزى في

---

(1) Jeanne Fahnestock (2005): Rhetoric in the Age of Cognitive Science. In: Richard Graff (ed.): The Viability of Rhetoric. P. 160. New York: State University of New york Press.pp. 159- 179. on:

cogsci.uwaterloo.ca/courses/COGSCI600.2009/Fahnestock(2005).pdf

(2) Michael S. Gazzaniga et al (2009): Cognitive Neuroscience: Biology of the Mind. (third edition) .W. W. Norton & Company, Inc: New York- London.

(3) Cynthia Sue Larson (2012): reality shifts: When Consciousness Changes the Physical World. P.3. Published by RealityShifters- USA.

الإبستمولوجيا»(١) . وإذا كان الأمر كذلك ، وإذا كانت «مهمة الترجمة دائماً تسير بموازاة إبستمولوجيا مرحلتها التاريخية»(٢) فإن المأمول من نموذج الترجمة المصطلحية التي عرضتها هذه المقالة أن تكون حالة ممثلة لبعض أبعاد الإبستمولوجيا الإدراكية التي تستحوذ في معرفة المرحلة التاريخية المعاصرة على مكانة الصدارة المرموقة .

---

(1) Cruz, J. (2003) Epistemology , Encyclopedia of Cognitive Science, Vol. 2, L. Nadel (ed. in chief), London: Nature Publishing Group, 23-28.

عن :

Zekiye Kutlusoy: Cognitive Epistemology. in Redefining Knowle -dge. p. 40. on: dspace.uludag.edu.tr:8080/jspui/bitstream/11452/1596/1/M5.pdf

(2) Vidal Claramonte, M. Carmen ?frica. (2009): Rethinking Translation in the 21ST Century. P. 41. In: MonTI: Monograf?as de Traducci?n e Interpretaci?n [online] 2009, on: <http:// www.redalyc.org/articulo.oa?id=265119728006>

الترجمة والمنعطف الإدراكي
تجليات الأوهام الدلالية
وتصدع وهم التكافؤ(*)

في حاضر المعرفة العلمية المعاصرة ثمة حديث متزايد عما يطلق عليه (الحس الداخلي بالحدث the inner sense of action) ، أو عما يطلق عليه «جسدنة[1] المعنى في الجهاز الحركي والحسي» meaning embodiment in

---

(*) نُشرت في مجلة (جسور) : محكمة- العدد٣ سبتمبر ٢٠١٤م

(١) أشرنا من قبل إلى مفهوم (الجسدنة embodiment) ، وهو يقوم على أن العمليات الإدراكية متجذرة بعمق في تفاعلات الجسد مع العالم . وحول هذا المفهوم عرضنا رؤية مارجريت ويلسون في مقالتها :

Margaret Wilson: Six views of embodied cognition. In: Psychonomic Bulletin & Review 2002, 9 (4), 625-636. On:

english6.net/s/six-views-of-embodied-cognition-e289-pdf.pdf

وبإيجاز نقول هنا إن مارجريت ويلسون في هذه المقالة تعالج ست فرضيات حول الإدراك المتجسدن ؛ وهي :

١ . أن الإدراك مرتبط بالموقف : بمعنى أن الفاعلية الإدراكية تقع في سياق عالم من المحيط الواقعي ، وأنها تتضمن بشكل متأصل الإدراكَ الحسي perception والفعل action .

٢ . أن الإدراك مضغوط بالزمن : بمعنى أن الإدراك يجب أن يُفهم في حدود كيفية قيامه بوظيفته تحت ضغوط التفاعل الزمني الواقعي مع المحيط .

٣ . نحن نفرّغ حِمل العمل الإدراكي على المحيط : فبسبب المحدوديات القارّة في قدراتنا في تشغيل المعلومات (مثلاً : محدوديات الانتباه والذاكرة العاملة) فإننا نستغل المحيط لتقليص عبء العمل الإدراكي ؛ فنجعل المحيط باقياً كما هو ، أو حتى نتلاعب بالمعلومات لأغراضنا ، ونجني هذه المعلومات فقط على أساس الحاجة للمعرفة .

٤ . المحيط جزء من الجهاز الإدراكي : فتيار المعلومات بين العقل والعالم بالغ الكثافة =

sensory and motor systems ، أو عما يوضع أحياناً تحت عنوان (فرضية المحاكاة الجسدنية the embodied simulation hypothesis التي يعرّفها بيرجين بقوله «نحن نفهم اللغة عن طريق قيام عقولنا بمحاكاة التجارب التي تصفها اللغة .

والاستمرارية لدرجة أنه لكي يدرس العلماء طبيعة الفاعلية الإدراكية فإن العقل وحده لا يكون وحدة تحليلية ذات معنى .

٥ . الإدراك غرضه الفعل :actionفوظيفة العقل هي أن يقود الفعل ، والآليات الإدراكية -مثل الإدراك الحسي والذاكرة- يجب أن تُفهم في حدود أقصى ما تسهم به بالنسبة إلى الملاءمة السلوكية للموقف .

٦ . الإدراك دون اتصال أساسُه الجسد : أي أنه حتى في حالة الانفصال عن المحيط فإن فاعلية العقل تتأسس في الآليات التي تطورت من أجل التفاعل مع المحيط : أي آليات التشغيل الحسي والتحكم الحركي .

وانظر كذلك المقالة الممتازة الواردة تحت مدخل (Embodied Cognition) في موسوعة ستانفورد الفلسفية :

Wilson, Robert A. and Foglia, Lucia, "Embodied Cognition", The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Fall 2011 Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL = <http://plato.stanford.edu/archives/fall2011/entries/embodied-cognitio.

أما بالنسبة إلى اختيارنا المقابل (جسدنة) ترجمةً لمصطلح (embodiment) - وليس المقابلين الشائعين : تجسيد ، أو تجسيم- فذلك لاعتبارين : أولهما أن embodiment مفهوم يدل على «عملية دينامية تتصل بحالات الذهن brain states وبنشاط الخلايا العصبونية neural activity ، كما أنه يدل على أن «التجربة الجسدية ليست ببساطة مسألة فسيولوجية أو حركية (أي الجسد بوصفه شيئاً) ، وإنما هي أمر يتطلب معرفة الكيفية التي يتحرك بها الناس بشكل دينامي في العالم الطبيعي والثقافي» . راجع : Raymond W. Gibbs(2005) Embodiment and Cognitive Science. p. 9-10. Cambridge University Press . فهذه الدلالة الدينامية بحاجة إلى مقابل يمكن لهيئته الصرفية أن تبرزها . أما الاعتبار الثاني فهو أن صيغة (الفعلنة) أصبحت شائعة في العربية المعاصرة ، وبخاصة في الثقافة العالمة ، مرتبطة بالمفاهيم التي يشكل نسغَها الدلالي دلالتُها على (عملية) لها طابع الاستمرارية والحركة- انظر : د . عبد الحميد الأقطش : «التوليد اللغوي على وزن (فعلنة) في الاستعمال العربي المعاصر» . مجلة مجمع اللغة العربية الأردني .

http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2009-02-10-09-36-00/417-79-2.htm

ونحن نفعل ذلك عن طريق أنماط استعمال أجزائنا الفسيولوجية نفسها التي تطورت أولاً لإدراك العالم الواقعي والفعل فيه»[1] فعندما نقرأ - مثلاً - كلمة (نضرب) فإن الجزء نفسه الموجود في مركز الحركة في القشرة الدماغية تحدث له استثارة تماثل الاستثارة نفسها التي تحدث فيه عندما (نضرب) بالفعل . وعلى ما يبدو فإن هذا يعني أن ذهننا يحاكي الحدث الذي نقرؤه! وإذا كان مثال (الضرب) هذا غير كاف فلنأخذ إثباتات جلينبرج و(كاشاك) (٢٠٠٢) التي ذهبت إلى أن التشغيل الذهني للجمل التي تصف حركات اليد يتضمن استثارة البرامج الحركية نفسها التي يتطلبها القيام بهذه الحركات فعلياً[2] . ولمزيد من التأكيد لنأخذ تلك النتيجة التي انتهت إليها إحدى الدراسات الأحدث (٢٠٠٨) ؛ وهي دراسة عن إدراكيات (الألوان) استُخدمت فيها مع المختبرين تقنيةُ التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي fMRI .[3] ومؤدى هذه النتيجة أن إدراك الألوان التي لها مفردات لغوية متوفرة بسهولة تستثير المناطق الخلفية اليسرى للفص الصدغي الجداري من المخ ، وهذه المناطق نفسها تسهم أيضاً في عمليات إيجاد الأسماء عندما يُطلَب النطق باسم اللون بصوت عالٍ .

(1) Bergen, Benjamin K.: Louder than Words: The New Science of How the Mind Makes Meaning.p. 13. New York, NY: Basic, 2012

نقلاً عن :

Flores, Krivo (2014) "Semantics Embodied: Cognitive Linguistics and Searle's Account of Linguistic Intentionality, p. 43." Res Cogitans: Vol. 5:Iss. 1, Article V, On: http://dx.doi.org/10.7710/2155-4838.1099

(2) Peter Gärdenfors:The Information Processing Mechanism of the Brain.on: www.eeginfo.com/research/articles/information_processing.pdf

(3) functional magnetic resonance imaging

وبهذه التقنية يستطيع العلماء أن يروا متى وأين يتدفق الدم إلى أجزاء مختلفة من المخ . وهذا التدفق يراه العلماء علامة على زيادة في النشاط الذهني .

ومن ثم فما يظهر هو أن اللغة تؤثر في أنماط الاستثارة العصبونية neural الجارية عند إدراك اللون[1] .

إذن ثمة علاقة وثيقة أصبحت مثبتتة بين تجاربنا وكلماتنا وأمخاخنا! وبالتالي فإن ما يحدث عندما نوجه انتباهنا إلى عنصر معين مما يقع عليه إدراكنا هو ارتفاع الاستثارة في قسم معين من القشرة الدماغية فيصبح هو الأقوى والمهيمن على القشرة الدماغية بكليتها ، فيتصل بالعديد من قوالب المدركات الأخرى مكوناً معها شبكة عصبونية . وإذا كان لهذا العنصر أهمية خاصة بالنسبة إلى حياتنا فإنه يدخل -تخزيناً واسترجاعاً- فيما يعرف بسلاسل تفكيرنا[2] . ولقد أثبتت التجارب التي استخدمت تقنية التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي أن مناطق المخ التي تتوسط في العمليات اللغوية تشارك في الشبكات العصبونية التي يستثيرها الإدراك[3] .

مثل هذه النتائج العلمية تكتسب أهميتها ومغزاها بالنسبة إلى ما نحن صدده في هذه الورقة ؛ وهو : التحديات المعرفية المعاصرة التي تواجه نظرية الترجمة ، وبخاصة التحديات التي باتت تطرحها المقاربات الإدراكية وتداخلها الاختصاصي مع مستجدات لسانية مهمة أبرزها المستجد التداولي ؛ حيث تَجَسَّد هذا التداخلُ في (التداوليات الإدراكية cognitive pragmatics) التي تُعنى بدراسة العمليات الذهنية في التواصل the mental processes of communication[4] ، وفي مقدمتها

(1) Li Hai Tan, Alice H. D. Chan, Paul Kay, Pek- Lan Khong, Lawrance K. C. Yip, and Kang - Kwon Luke: Language affects patterns of brain activation associated with perceptual decision. 2008 by The National Academy of Sciences of the USA. On: www.pnas.org/cgi/content/full/ 0800055105/DC1.

(2) Ibid, p. 15

(3) Li Hai Tan. Op cit, p.1

(٤) هذا هو العنوان الفرعي لكتاب برونو بارا (Bruno Bara) الذي صدر بالإيطالية عام ١٩٩٩م ، وترجمه إلى الإنجليزية (جون داوثويت John Douthwaite) عام ٢٠١٠م تحت عنوان رئيس هو (التداوليات الإدراكية Cognitive-pragmatics) . ولكن مع الأسف لم أستطع الحصول عليه .

عمليات الاستدلال في الفهم[1] the inferential processes in comprehension ، مع ما في ذلك من علاقة وثيقة بالترجمة باعتبار أن (الفهم) هو اللب المحوري (أداةً) و(غايةً) فيها .

لقد أشرت في دراسة سابقة[2] إلى أن علم الدلالة الوضعي كان يفترض أن الواقع هو وجود موضوعي مستقلٌ عن الذات ، وأنه متاح بشكل واضح قابل للملاحظة ؛ ومن ثم انطلق الدلاليون الوضعيون من تصورٍ مؤداه أن التمثيل الأمين للأشياء القائمة في هذا الواقع هو حجر الأساس للمعنى .

ولقد أشرت أيضاً في سياق الدراسة نفسها إلى تصدي كثير من الاتجاهات المعرفية بالنقد والتقويض لهذه المقولة ؛ حيث تبين أن الواقع يبدو بالغ الطرافة والغنى والتعقيد لدرجة أننا لا نستطيع تمثيله بصورة تامة وتفصيلية بوسائل بسيطة[3] . ولذلك فإن أنساقنا الذهنية تضفي حدوداً على موضوعات العالم في حين أن هذه الموضوعات نفسها ليس لها في الواقع هذه الحدود . وفي هذا السياق أشرتُ إلى قول مارفن مينسكي «ليس ثمة شيئان أو حالتان ذهنيتان متماثلتان دائما ؛ ولذا فإن كل عملية سيكولوجية يجب أن تستعمل وسيلة أو

---

(1) Christoph Unger (2002) Cognitive-pragmatic explanations of socio-pragmatic phenomena:: the case of genre. Pdf on: cogprints.org/5439/1/CogPragExpl.pdf

(٢) انظر : د . محي الدين محسب : منهجية دراسة الاستعارة من الأساس اللغوي إلى التأسيس الإدراكي . ص٦٣٠ في : كتاب الندوة الدولية (قضايا المنهج في الدراسات اللغوية والأدبية : النظرية والتطبيق) -عقدت في الفترة ٧- ٢٠١٠/٣/١٠م- قسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة الملك سعود- الرياض . وسيرد نصها في كتابنا هذا .

(٣) لقد أكدت الفيزياء الحديثة ، وبخاصة فيزياء الكم quantum physics ذلك بشكل قاطع ومتواتر ؛ فالإليكترونات -وفقاً لـريتشارد فينمان Richard Feynman (١٩١٨-١٩٨٨) - يمكنها أن توجد في أكثر من موقع في وقت واحد ، ومن ثم فهي فيزيائياً حاضرة وغائبة !! انظر :

James Higgo (1999): A Lazy Layman's Guide to Quantum Physics . On: http://www.higgo.com/quantum/laymans.htm

أخرى لتستحث في الذهن وهْمَ التماثل»[١] . ولعلنا هنا نتذكر ما يعرف في علم النفس بـ(الارتباطات الخادعة illusory correlation) باعتبارها حالة نموذجية من حالات وهم التماثل ؛ حيث يعتقد الناس في وجود ارتباط بين عنصرين في حين أنه فعلياً لا وجود لهذا الارتباط ، أو أنه ارتباط بالغ الضآلة . ويبدو أن هذه الظاهرة تمتد جذورها فينا من مرحلة الطفولة . تذكر مثلاً إحدى التجارب النفسية أن الأطفال في هذه التجربة حين طُلب منهم أن يسندوا إما الفعل (يمشي walk) أو الفعل (يدور roll) إلى لعبة على شكل (بقرة) ولكنها بعجلتين ، وإلى لعبة على شكل (عربة) ولكنها برجلين ، فإن هؤلاء الأطفال أسندوا فعل (يدور roll) إلى البقرة ، وأسندوا فعل (يمشي walk) إلى العربة[٢]!

وشيئاً فشيئاً تصاعد إدراكُ مدى التعقيد والتركيب في كيفية بناء التمثيلات الذهنية للمعنى بناء على نسبية إدراكات الواقع ؛ أي بناءً على «أن العالم -كما نعيشه- هو نتاج الإدراك وليس علة له»[٣] .

وفي سياق هذا التصاعد المعرفي ازداد الإدراك بأن (الذهن) هو - وفق شرح مينسكي[٤] - منظومة مركبة من البنيات والعمليات المتلاحمة مع شبكة ضخمة من بنيات وعمليات أخرى مشابهة . وهذا التعقيد الماثل في أننا نستخدم مئات من المراكز الذهنية المختلفة لمخططات مختلفة لتمثيل الأشياء بطرق مختلفة هو ما يجعل عقولنا لا تفعل الأشياء بطريقة واحدة إلا نادراً .

---

(1) Marvin Minsky (1987): The Society of Mind, New York, Simon & Schuster.p. 299

(2) David H. Rakison: Parts, motion, and the development of the animate-inanimate distinction in infancy. P.13. on: psych.stanford.edu/~jlm/pdfs/rakison_formatted.doc

(٣) انظر قوله هذا في :

Bertalanffy, L.(1968): General System Theory. p. 240.

London: The Penguin Press..

(4) Marvin Minsky : Minds are Simply What Brains Do. On

http://www.leaderu.com/truth/2truth03.html

فكل ذهن بشري إذن يمتلك ثروة من موارد تمثيل العالم ، سواء عالم الذات أم عالم الواقع .

ولعله مما يبين ما نعنيه بصفة (الضخامة) في هذه الشبكة الذهنية أن التقديرات الجارية تظهر أن هناك في ذهن كل فرد بشري : من ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (=١٠^١٠) إلى ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (= ٢٠^١٠) خليـــة عــصـــبـيــــة ، و١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (= ١٦^١٠) نقطة اشتباك synapses ، وأن كل خلية عصبية بها حوالي ١٠٠٠ رابط في المتوسط[1] .

وبطبيعة الحال كان لكل ذلك انعكاسه المباشر على اللسانيات الإدراكية التي تبنّت الأطر الإبستمولوجية الآتية[2] :

١- أن المعاني هي وضع مفاهيم conceptualizations عن التجارب ،

٢- أن النحو يعكس هذا الوضع ،

٣- أن هذا الوضع للمفاهيم ، وهذه التجارب ، ليسا في علاقة توازٍ تام ، واحدة إزاء واحدة ، مع العالم الواقعي ، وإنما ذلك يرتبط بتجاربنا الجسدية .

٤- أن التنوع اللغوي هو نتيجة التعارضات في الطرق التي يُمفهِم بها المتكلمون التجارب conceptualize .

وهنا لا بد أن نشير إلى نظرية اللساني الإدراكي سيدني لامب S. Lamb التي عرضت لها في الدراسة المشار إليها أعلاه ؛ وذلك لصلتها الوثيقة بما نحن صدده هنا . ففي بحثه (البنية الإدراكية- العصبونية في التفاعل بين اللغة

---

(1) Alexander Borzenko (2008): Language Processing in Human Brain.p.2. Proceedings of the First AGI Conference, IOS Press, Volume 171 Frontiers in Artificial Intelligence and Applications. Edited by: P. Wang, B. Goertzel and S. Franklin. On: www.proto-mind.com/SAHIN.pdf

(2) Farzad Sharifian: Linguistic theory and cultural conceptualizations. pdf on: www.colorado.edu/linguistics/symposium/PDF/Farzad

Neuro-Cognitive Structure in the Interplay of Language and Thought[١] والفكر) يستثمر لامب فكرة (وهم التماثل) التي أشار إليها مينسكي . وفي هذا البحث يتحدث لامب باستفاضة عما أسماه (الأوهام الدلالية semantic mirages) وعما أسماه مغالطة (وحدة معجمية واحدة لكل شيء واحد one-lexeme-one-thing fallacy) ، ومن ثم يقدم لامب دعماً قويا لفرضية النسبية اللغوية ، ومن ثم لفرضية النسبية الثقافية ، التي أرساها في الفكر اللساني الحديث بنيامين وورف[٢] .

ينطلق لامب من القول بأن «أنظمتنا الذهنية ، سواء فيما يتعلق بالمكان أو الزمن ، أو بأبعاد تصورية أكثر تجريداً ، تضفي حدوداً على العالم ، في حين أن هذا العالم نفسه ليس له هذه الحدود» . ويتساءل : لماذا تفعل أنظمتنا الذهنية ذلك؟ ويجيب «لأنها لو لم تفعل ذلك فلن يمكن لأحدنا أن يتحدث مع الآخر عن العالم ، أو أن نفكر عن أشياء هذا العالم . فبما أن كل شيء يرتبط -بطرق مختلفة- بأشياء أخرى ، ومن ثم في النهاية فالشيء الواحد يرتبط بكل شيء ، فإننا لن نستطيع أن نتحدث أو أن نفكر عن كل العالم دفعة واحدة . ولذلك فإننا مضطرون إلى تقطيع هذا التيار المشكالي[٣] ، وإلى تجزيئه عن طريق وضع

---

(1) Sydney M. Lamb: Neuro-Cognitive Structure in the Interplay of Language and Thought. In: Martin Pütz & Marjolijn H. Verspoor (eds.), Explorations in Linguistic Relativity. Amsterdam: John Benjamins, 2000. On: http://www.ruf.rice.edu/~lamb/lt.htm

(٢) للمزيد من التفصيل حول فرضية وورف انظر

Carroll, J. (Ed.) (1964) Language, Thought and Reality. Selected Writings of Benjamin Lee Whorf

وانظر كذلك : د . محي الدين محسب : اللغة والفكر والعالم : دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق . (مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت- ١٩٩٨) .

(٣) يترجم منير البعلبكي في قاموس (المورد) kaleidoscope بـ(المشكال) ويعرفه بأنه «أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما إن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان»

حدود فاصلة . وحيث إن هذه الحدود هي من وضع عقولنا ، ولا وجود لها في الواقع ، فإننا يمكن أن ننظر إليها على أنها وهمية» . وعلى هذه المقدمة يبني لامب النتيجة التالية «كل وضع بنية في نماذجنا الذهنية يتم على حساب تجاهل بعض خصائص الظاهرة المنمذجة» . ومن ثم ينتقل إلى السؤال الجوهري الذي يهمنا في سياقنا الحالي : «هل هناك أي سبب لكي نتوقع أن كل البشر- بصرف النظر عن اختلاف ثقافاتهم ولغاتهم- يشتركون في هذا النظام الوهمي نفسه؟» . وفي إجابة هذا السؤال فإن لامب يستدعي فرضية وورف القائلة بأن كل جماعة بشرية ذات خلفية لغوية وثقافية تملك نموذجاً ذهنيا مختلفاً عن الجماعات الأخرى . وما يدعم هذه الفرضية -في استدلال لامب- هو حقيقة أن أي نموذج ذهني هو بالضرورة نموذج تبسيطيّ -ومن ثم مشوّه- لهذا الذي يحاول تمثيله . ومن ثم فمن السهل أن نقدّر أن أنساقاً تنتمي إلى ثقافات مختلفة لا بد أن تكون أنساقاً مختلفة ؛ لأنها -ببساطة- أنساق غير مكتملة بطرق مختلفة .

والحقيقة أن ما يذهب إليه لامب هنا تؤكده دراسات حديثة في اللسانيات النفسية . فإذا أخذنا مجال (الألوان) مثلاً فسنجد أن هذه الدراسات تذهب إلى «أن اللغة ترتبط بشكل غير متكافئ في تمييز الألوان التي تعرض في مجال الرؤية الأيمن وذلك بالمقارنة مع مجال الرؤية الأيسر ، بما يؤكد فرضية وورف من منظور التنظيم الوظيفي للذهن . وبالتحديد فإن تمييز الألوان ذات الأسماء المختلفة أسرع في مجال الرؤية الأيمن منه في مجال الرؤية الأيسر ؛ وذلك لأن التمييز المعجمي في النصف المخي الأيسر يزيد من حدة التباين الإدراكي . . . ومن ثم فما يبدو هو أن المدركين يرون الجانب الأيمن من مجال رؤيتهم مفلتراً عبر عدسات لغتهم»[1] . وفي هذا السياق تؤكد الاختبارات أن المتحدثين بالإنجليزية -مثلاً- تتضاءل لديهم المسافة الفارقة بين لوني (الأخضر) و(الأزرق)

---

(1) Li Hai Tan, et al, op cit, p. 1

عن تلك المسافة التي تفصل بينهما في لغة التاراهومرا (في المكسيك) التي تستعمل كلمة مستقلة لكل لون منهما . وفي الروسية نجد تمييزاً بين درجتين من (الأزرق) : الأزرق الفاتح (goluboy) ، والأزرق الداكن (siniy) . وما يترتب على ذلك هو أن المتحدثين بالروسية يكونون أسرع في تمييز اللونين اللذين يقعان في تصنيفين لغويين مختلفين من تمييز الألوان التي تقع تحت الصنف الواحد نفسه ، وهذا ما لا يستطيعه المتحدثون بالإنجليزية[١] .

ولكن لامب لا يكتفي بتقرير اختلاف الأنساق الثقافية ، وإنما يصل إلى القول بأنه حتى أولئك الذين ينتمون إلى ثقافة واحدة يختلفون ، بل إن الشخص الواحد نفسه يختلف تفكيره من وقت إلى آخر . وتعليل ذلك ببساطة أن كل شخص يرد له أثناء حياته (دخول) inputs حسية مختلفة عما يرد لأي شخص آخر بسبب اختلاف التجارب . فما تحفزه في مخ شخص تجربةٌ معينة من (عُقَد) nodes الشبكة العصبونية ، وبالتالي من بؤر التصورات الأعلى والأدنى ، لا يتطابق مع ما تحفزه التجربةُ نفسها لدى شخص آخر . ومن ثم فإن لدى كل منا معرفة بالعالم مختلفة باختلاف التصورات التي نمثّل بها البيئة المحيطة في العالم القائم خارجنا . ولا شك أن الأساس العلمي الذي استمد منه لامب مرجعية هذه النسبية الفردية أو الذاتية إنما يكمن في بحوث البيولوجيا العصبونية . فإيدلمان Gerald Edelman[٢] الذي رفع شعار (لا يوجد شخصان مجهَّزان بالطريقة نفسها no two people are wired the same way) يذهب إلى أن الخلايا العصبية في المخ تترابط فيما بينها لتشكل طُرُزاً patterns مركبة وخاصة بكل ذات بشرية أثناء نموها وتجربتها المعيشة . ويؤكد إيدلمان ملمحاً في غاية الأهمية ؛ وهو أن بعض هذه الطرز يحدث له إعادة تقوية بالتجربة ، في حين أن

(1) Ibid, p. 1

(٢) عالم أحيائي أمريكي معاصر (ولد عام١٩٢٩م) وحاصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٢م . انظر موسوعة ويكيبيديا .

بعضها الآخر يتم استئصاله بعملية انتقائية تشبه عملية الانتقاء الطبيعي في تطور الأنواع في النظرية الداروينية ، ولكنها هنا عملية تحدث داخل مخ الفرد الواحد وطوال حياة هذا الفرد . ومن ثم فليس هناك شخصان يحدث عندهما ذلك الترابط ، أو إعادة التقوية ، أو الاستئصال ، بالطريقة نفسها . بل ليس هناك إدراكان متطابقان لتجربة معينة لدى الفرد الواحد ؛ فنحن لا ننزل نهر الإدراك مرتين[1]!

وعلى ضوء كل هذه المعطيات يأتي طرح السؤال الآتي : هل يمكن لنا إذن أن نزعم بأن ثمة إمكاناً للترجمة بين اللغات؟!

والحقيقة أن هناك إجابتين عن هذا السؤال ، وكل إجابة منهما تناقض الأخرى! (نعم)! هناك إمكان للترجمة ، و (لا)! ليس ثمة إمكان للترجمة! وعلى الرغم من هذا التناقض فإن كلتا الإجابتين صحيحة ، ولكل منهما عبر تاريخ التفكير أنصار ومدافعون! وهذا ما يمكن أن نلمسه في الثنائية النظرية التي أرساها (جورج شتاينر)»[2] George Steiner عام ١٩٧٥م ؛ وهي ثنائية النظرية الكليانية ، والنظرية المونادية . فالنظرية الكليانية universalist position يذهب أنصارها إلى أن هناك كليات قابلة للتجريد تعم جميع اللغات ، ومن ثم فضمناً يتماثل التواصل بين الثقافات المختلفة ، وعليه تكون الترجمة ممكنة . أما النظرية

---

(١) للمزيد من التفصيل حول نظرية إيدلمان انظر بحثه :

Gerald M. Edelman: (2003): Naturalizing consciousness: A theoretical framework. pdf on: www.pnas.org_cgi_doi_10.1073_pnas.0931349100

(٢) انظر للمزيد من التفصيل :

Sang Zhonggang: (2006):A Relevance Theory Perspective on Translating the Implicit Information in Literary Texts. Journal of Translation, Volume 2, Number 2, on: www-01.sil.org/siljot/2006/2/48007/siljot2006-2-05.pdf

المونادية[1] monadist position ، أو لنقل (النظرية النسبيـة) فهي تؤكـد أن هناك اختلافات هائلة بين اللغات ، وعلى هذا فطرز التفكير داخل هذه اللغات لابد أن تكون متغايرة ؛ ومن ثم فالترجمة الحقيقية مستحيلة . ولا شك أن وجود هذين الموقفين النظريين يضعنا أمام مشكلة الأساس الإبستمولوجي لقضية الترجمة بصفة عامة .

لقد اعتدنا في الدراسات الترجمية على القول بأن هناك مناطق معينة تمثل صعوبات وتحديات أمام الترجمة . ولا شك أن الأدبيات الترجمية تمتلئ بذخيرة وافرة من الاقتراحات والحلول التي طرحت لتجاوز هذه الصعوبات والتحديات . لكن كل ذلك ليس هو ما يعني الورقة الحالية . ما يعنينا هنا هو الأثر الذي أحدثه ويحدثه في نظرية الترجمة صعودُ النسبية التداولية والنسبية الإدراكية اللتين جسدهما اتجاهان لسانيان كبيران أصبحا يحتلان صدارة المشهد اللساني على الأقل منذ الثلث الأخير من القرن العشرين الميلادي الماضي ؛ وأعني بهما (التداوليات) و(الإدراكيات) ، وهما الاتجاهان اللذان بلغ انتشارهما إلى المرحلة التي نشهد فيها تداخلهما الاختصاصي ماثلاً في تلك الاختصاصات الصاعدة مثل : التـداوليـات الإدراكيـة cognitive pragmatics ، التي تُعنى بالعـمليـات الذهنية الضالعة في التواصل المقصود ؛ أي تُعنى بما يجري في عقل الشخص المنخرط في التفاعل التواصلي مع الآخر[2] . والتداوليات العصبونية

---

(١) هذا المصطلح مستمد من فكرة الموناد monad في فلسفة لايبنتز (١٦٤٦- ١٧١٦) المونادية -mon adology . والقياس هنا هو أنه كما أن في الكون ما لا حد له من المونادات المليئة بالطاقة والقوة ، وليس ثمة موناد يشبه الآخر ، فكذلك اللغات .

(٢) Maurizio Tirassa: Communicative Competence and the Architecture of the Mind/Brain. P.419. In: Brain and Language 68, 419-441 (1999). available online at http://www.idealibrary.com

neuropragmatics[1] التي تذهب إلى أنه «من المحتمل ألا يكون ثمة خلية ثابتة وحيدة تقوم بإعطاء استجابات ملائمة اجتماعياً في المحاورة»[2] . وفي ذلك كما نرى تعزيز لما سقناه في مطلع هذه الورقة ؛ ولما أكده لامب وهو أن كل وضع بنية في نماذجنا الذهنية يتم على حساب تجاهل بعض خصائص الظاهرة المنمذجة» .

ولعل أول وأظهر أثر بادٍ لنا في رصد التحول في الأساس الإبستمولوجي لنظرية الترجمة هو ربط نظرية الترجمة بنظرية التفسير ، حيث أصبحت الترجمة تعَرَّف بأنها «عملية من فعل التفسير a process of an act of interpretation»[3] ، أو أنها -على حد مصطلح شتاينر- «مهمة تأويلية»[4] hermeneutical task وحيث إن (التفسير) فاعلية ذهنية تواصلية فهو محكوم بقدرتنا الإدراكية ومخططاتها التصورية . وبما أن المقوّم الجوهري لهذه القدرات وهذه المخططات هو اشتغالها بآلية (وهم التماثل) التي بدونها يستحيل التواصل

---

(١) تبحث في الارتباطات بين العمليات الذهنية المنخرطة في التواصل والمناطق المخية المسئولة عن هذه العمليات . للمزيد انظر :

- Bruno G. Bara: Cognitive pragmatics: The mental processes of communication. P. 453. In: Intercultural Pragmatics 8-3 (2011), 443-485. On: www.psych.unito.it/../pdf/2011_Bara_InterculturPragmat

وانظر كذلك :

- Bruno G. Bara and Maurizio Tirassa (2000): Neuropragmatics: Brain and Communication. In: Brain and Language 71, 10-14. available online at http://www.idealibrary.com

(٢) انظر . Bruno G. Bara, op cit., p.12

(3) Sang Zhonggang: (2006):A Relevance Theory Perspective on Translating the Implicit Information in Literary Texts. Journal of Translation, Volume 2, Number 2, p. 47 on: www-01.sil.org/siljot/2006/2/48007/siljot2006-2-05.pdf

(٤) انظر :

Neslihan Kansu-Yetkiner: Contemporary Translation Theories-II. On: xa.yimg.com/kq/groups/21730780/856965307/name/kuram-1

حتى بين أعضاء اللغة الواحدة ، فإن عمليات التفسير ، وضمنها عملية الترجمة ، لا بد أن تكون ذات أساس إدراكي تداولي . وهنا تبرز قيمة إحدى النظريات الإدراكية ؛ وأعني بها (نظرية المخطط schema theory) التي شغلت مكانة محورية في عدة أنظمة علمية منذ سبعينيات القرن الميلادي الماضي[1] . وبإيجاز يمكن القول إن هذه النظرية تقدم نموذجاً للوسائل التي يقوم بها العقل إزاء المعرفة المتحصلة من التجربة الفعالة تنظيماً ، واستدعاء ، واستثماراً ، وتكييفاً[2] . على أن أهم ملمح في ملامح المخطط الإدراكي التي ترسمها تلك النظرية هو أن تلك المخططات ليست أجزاء مستقلة ساكنة ، وإنما بنيات نشطة ، ومتطورة ، ومتغيرة دائماً[3] . ومن ثم فإن ما يحدث في أذهاننا إزاء أية تجربة جديدة من تنشيط لمخطط إدراكي سابق حصّلناه من تجربة سابقة إنما هو تنشيط قائم على افتراض (التماثل) بين التجربتين . وهذا الافتراض للتماثل يظل قائماً في وعينا الإدراكي بالتجربة الجديدة محدثاً أثره في تعديل مخططنا السابق - بإسقاط عناصر وإضافة أخرى- أو في وضع مخطط إدراكي جديد . وهنا نشير إلى تلك النتيجة المتحصلة في علم الخلايا العصبية ومؤداها أن المخ البشري مصمم على قدرة بيولوجية راسخة هي (آلية إعادة التصنيف المفهومي mechanism of conceptual recategorisation) ، أو - في اصطلاح آخر- إعادة ترتيب القائمة relisting . وهذه الآلية هي التي تجعلنا نعيد تقييم الواقع ، ومن ثم نعيد تصنيفه مفهومياً . وهنا يشار إلى أن ثمة ثلاث طرق رئيسة تُطلِق عملية

---

(1) Elena Semino: Schema Theory and the Analysis of Text Worlds in Poetry. P. 3 on:

https://www.academia.edu/553154/Schema_theory_and_the_analysis_of_text_worlds_in_poetry

(2) Rob Pope and Andrea Macrae: Linguistics, Stylistics and Cognitive Poetics . On: http://www.routledge.com//textbooks/9780415498760/pdf/Part3/3-10

(٣) انظر السابق نفسه ، وانظر : Elena Semino, op cit, p. 5

الإعادة هذه : التحول الاقتراني[1] metonymic ، أو التحول الاستعاري metaphoric ، أو الدمج المفهومي[2]blending .

لنأخذ مثلاً العبارتين التاليتين :

١- هل يمكن أخذ الأسد إلى حديقة الحيوان؟

٢- هل يمكن أخذ الحافلة إلى حديقة الحيوان؟

والسؤال هنا : ما الذي يجعلنا نعطي تفسيرين مختلفين للعبارتين؟ من الواضح أنه لا المكون التركيبي ولا المكون الدلالي يستطيع أن يفسر اختلاف التفسير . إنه المكون الإدراكي التداولي . فهو الذي يجعلنا نفهم أن العبارة

---

(١) الاقتران في منظور اللسانيات الإدراكية هو عملية إدراكية فيها يوفر عنصر مفهومي ما ، أو هوية ما (شيء ، حدث ، خاصية) وصول الذهن إلى هوية مفهومية أخرى ، داخل الإطار نفسه ، أو داخل نموذج إدراكي مؤمثل . ويشيع في اللسانيات الإدراكية مصطلح Metonymic thought وهو ما أقترح ترجمته بـ(التفكير الاقتراني) . ولقد درج بعض الباحثين العرب على ترجمة metonymy بـ(الكناية) وهو مقابل لا يمثل بدقة مفهوم هذا المصطلح في البلاغة الغربية وفي اللسانيات الإدراكية بصفة خاصة : فالتفكير الاقتراني هو دلالة مفهوم على مفهوم آخر لوجود اقتران الملابسة -وليس المشابهة كما في التفكير الاستعاري- بين المفهومين . ويلاحَظ أن (التفكير الاقتراني) و(التفكير الاستعاري) ينضويان في اللسانيات الإدراكية تحت ما يسمى بنظرية (الشبكات الدلالية الشُّعاعية = radial semantic networks) وتذهب إلى أن المعاني المتنوعة التي تُسنَد إلى الكلمات ، والأشكال النحوية ، المتعددة دلالياً ، يرتبط كلٌّ منها بالآخر بشكل متسق في شبكات من المعنى . ، وكل شبكة ترتبط بنموذج prototype (أو نماذج) أصلي ومعان هامشية ترتبط بهذا النموذج . انظر للمزيد :

- David S. Danaher "An Introduction to Cognitive Grammar (CG)" on: cokdybysme.net/pdfs/cgenglish.pdf

Zoltán Kövecses and Günter Radden (1998): Developing a Cognitive Linguistic View. In: Cognitive Linguistics. Volume 9 (1) de Gruyter - Jan 1, 1998. on: http://mcs-dd.sagepub.com/lp/de-gruyter/metonymy-developing-a-cognitive-linguistic-view-lxvVFmRdW5

(2) Martsa, S?ndor: "Construction of Meaning during Conversion" p. 4. on: husse-esse.hu/wp-content/2007/09/construction-of-meaning

(هل يمكن وضع الأسد في حديقة الحيوان؟) حيث إن الإطار الأولى تعني الذهني لـ[حديقة الحيوان] - في البيئة الثقافية التي تعرف هذا المفهوم- يتضمن إمكاناً لوضع الحيوان (الأسد هنا) في هذا المكان ؛ أي أن (الأسد) و(حديقة الحيوان) بينهما ارتباط إدراكي ثقافي . أما العبارة الثانية فما يجعل تفسيرها ، أو لنقل : ترجمتها ، بعبارة مثل (هل يمكن أن نستقل الحافلة إلى حديقة الحيوان؟) هو أنها تستثير في الذهن إطاراً إدراكياً يربط بين (الناس) و(الحافلة) في البيئة الثقافية التي تستعملها للانتقال من مكان إلى آخر . فالذهن في السؤال الأول يربط بين مفهوم (الأسد) ومفهوم (حديقة الحيوان) . أما في السؤال الثاني فهو لا يربط بين مفهوم (الحافلة) ومفهوم (حديقة الحيوان) ، وإنما يربط بين مفهوم (الحافلة) ومن يستعملها وسيلة للانتقال .

وهنا يظهر سؤال : إذا كان الإطاران الإدراكيان مختلفين على هذا النحو فلماذا تماثلت الصيغة الحدثية (أخذ) في عبارتي السؤالين؟ وهنا نقول إن أطر نظريات الترجمة التقليدية لا تسعف بجواب شاف . إن ما يسعفنا هو نظرية (وهم التماثل) المطروحة في إطار النسبية الإدراكية . لنفحص العبارتين بحثاً عن الأساس الذي سوغ في الحالتين استعمال (أخذ) متعدياً إلى (الأسد) في الحالة الأولى ، ومتعدياً إلى (الحافلة) في الحالة الثانية . ولنبدأ بتحديد العنصرين البنيويين الأساسيين اللذين يشيد بهما الذهن حدث (الأخذ) ؛ وهما : الآخذ والمأخوذ . ونلاحظ في الحالتين اللتين معنا أن الآخذ المنفِّذ المفترض هو إنسان . أما المأخوذ فهو بصفة عامة ما يدخل في استحواذ الآخذ ، ومن ثم يمكنه التصرف فيه . وعلى هذا فأخذ (الأسد) يعني أنه مستحوذ عليه ، ومتصرف فيه . ومن هذا التصرف إمكان نقله من مكان إلى مكان . أما (الحافلة) فهي مصنوعة أصلاً أداة للتصرف فيها بجعلها تنقلنا من مكان إلى مكان . هذا القدر من التصرف بالحافلة يدخلها ضمن فكرة الاستحواذ ، ومن ثم فنحن (نأخذها) . هذا هو وهم التماثل الأول الذي سوّغ إطلاق (الأخذ) على الحالتين . أما وهم التماثل الثاني فهو يتضح بالتحليل الآتي : من عبارة (هل

يمكن أخذ الأسد إلى حديقة الحيوان؟) نستدل أنها تعني ضمناً أن (الأسد) في مكان آخر غير مكان حديقة الحيوان . ومن عبارة (هل يمكن أخذ الحافلة إلى حديقة الحيوان؟) نستدل أنها تعني ضمناً أيضاً أن الحافلة في مكان آخر غير مكان حديقة الحيوان . إذن في الحالتين ثمة انتقال من (مكان ما) إلى (مكان حديقة الحيوان) . فـ(الأخذ من . . . إلى . . .) يماثل (النقل من . . . إلى . . .) ، و(المأخوذ من . . . إلى . . .) يماثل (المنقول من . . . إلى . . .) .

هذه الملاحظات تضعنا أمام حقيقة ماثلة في السنوات الأخيرة لدى المقاربات الإدراكية للغة ؛ وهي أن (المعنى) هو عملية مفْهَمَة conceptualization ذاتية ، وموسوعية الطابع ، وقائمة على التجربة الإنسانية ، ومتجذرة في اللغة والثقافة في نماذج إدراكية . ولعل تشخيص (المعنى) -على هذا النحو- يستدعي أن نربطه بالمقولة الإدراكية المهمة ؛ وأعني بها مقولة (الفضاءات الذهنية) mental spaces . ففي هذه الفضاءات يتم إنشاء المعنى . وإذا عرفنا أن هذه الفضاءات الذهنية «ليست بنيات جاهزة في وعينا ، وأنه في أثناء توليد الخطاب يظهر فضاء ذهني جديد في كل وقت ، وأن اللغة تملك وسائل معينة لخلق وتشييد الفضاءات الذهنية»[1] ، أقول : إذا عرفنا ذلك فإن ما يترتب عليه هو أن (المعنى) بدوره ليس (بنية جاهزة) في وعينا . ولعله لهذا السبب فإن «معظم الكلمات في اللغات الطبيعية متعددة المعاني» polysemous[2] . هذه

---

(1) Elena Sergeevna Kokanova: English sentence adverbs in the framework of the theory of mental spaces . In: Syntactic Functions- Focus on Periphery: Symposium organized by the Linguistic Association of Finland Helsinki, November 14-15, 2003. On: http://www.ling.helsinki.fi/sky/tapahtumat/synfunct/synfunctabstr.htm#poster

وأعتقد أن الباحثة تقصد هنا أن المخ البشري هو الذي يملك هذه الوسائل . فلذا ينبغي أن تفهَم (اللغة) في هذا الاقتباس على أنها نظام ذهني .

(2) Vera I. Zabotkina,Elena L. Boyarskaya: Sense disambiguation in polysemous words: cognitive perspective. In: Psychology in Russia: State of the Art Volume 6, Issue 3, 2013 , p.61. on: www.psy.msu.ru/science/psyrussia/2013-3/2013_3_60-67.pdf

الحقيقة أدركها منذ زمن بعيد أبو حاتم الرازي ، وأطلق عليها مصطلح (الجرّ) ، وهو مصطلح بالغ الدلالة على الارتباط بين اللفظ وتعدده الدلالي ؛ لأن مؤداه أن الدالّ يجرّ أكثر من معنى . يقول الرازي : «ومن الأسماء ما يجر معنيين ، كقولك : الزكوة ؛ قالوا : هو من النمو والزيادة ، يقال : زكا الزرع إذا نما وطال وزاد . ويكون من الطهارة ، قال تعالى (قد أفلح من زكاها) ؛ أي طهرها . ومنها ما يجر ثلاثة معان وأكثر ، كقولك : الدين : معناه الطاعة ؛ يقال : دان له إذا أطاعه . و يكون من الجزاء : يقال : كما تدين تدان ؛ أي كما تعمل تجازى . ويكون من الحساب ؛ قال تعالى (ملك يوم الدين) ، قال المفسرون : يوم الحساب . والدين : العادة ؛ قال الشاعر : ?هذا دينه أبداً وديني ؛ أي دأبه ودأبي . فعلى هذا مجاري الأسماء»[١] . وإذا كان الإدراكيون يقولون : «إن كل كلمة لها تمثيل ذهني مركّب a complex mental representation مرتبط بها»[٢] ؛ فإن هذا التركيب الذهني يقرّ تلك القاعدة العامة التي صاغها الرازي بقوله «وعلى هذا مجاري الأسماء» . على أن الحقيقة الأخرى التي يلزم التنبيه عليها أيضاً هي أن كل تركيب لغوي - وليس الكلمة فحسب - هو متعدد دلالياً ، بل تذهب ديبورا تانين إلى أن كل «استراتيجية لغوية» متعددة المعاني[٣] .

وفي ضوء ذلك كله وجد مفهوم (المعنى) طريقه إلى الارتباط بمفاهيم مثل (وجهة النظر) أو (رؤية العالم) أو (الأيديولوجيا) . وهذا الارتباط نجده قائماً

---

(١) الرازي ، أبو حاتم : الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، تحقيق حسين بن فيض الله الهمذاني . ص ١١٠ - دار الكتاب العربي ومطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(2) Vera I. Zabotkina,Elena L. Boyarskaya: Sense disambiguation in polysemous words: cognitive perspective. In: Psychology in Russia: State of the Art. Volume 6, Issue 3, 2013 , p.61. on:

www.psy.msu.ru/science/psyrussia/2013-3/2013_3_60-67.pdf

(٣) انظر الفصل الثاني (The Relativity of Linguistic Strategies: Rethinking Power and Solidarity in Gender and Dominance. Pp. 19- 52) من كتابها ، وبخاصة: pp. 24- 32

Tannen, Deborah. 1993. Gender & discourse. New York & Oxford:

بوضوح في حقلي (اللسانيات النقدية) و(التحليل النقدي للخطاب) . يقول روجر فاولر مثلاً : «إن الشفرات اللغوية لا تعكس الواقع بشكل محايد . إنها تفسر وتنظم وتصنف موضوعات الخطاب . إنها تجسد نظريات في كيفية تنظيم العالم : رؤيات للعالم ، أو أيديولوجيات»[1] . ويقول جان ويبر J. Weber في كتابه (التحليل النقدي للرواية : مقالات في أسلوبيات الخطاب) : «إن عملية القراءة هي إلى حد كبير عملية استدلالية لتشييد المعنى» ، ويضيف : «إن نسق الافتراضات المستعملة في التشغيل الاستدلالي للنص يشكل الأيديولوجيا ، أو ما سنسميه بالعالم الإدراكي أو العالم الأيديولوجي»[2] .

ولا شك أن هذه الحقيقة تضع بعداً إبستمولوجياً جديداً أمام نظرية الترجمة . هب أننا نريد ترجمة العبارتين اللتين وقفنا عندهما للتو إلى عبارتين بالإنجليزية . يمكننا أن نقول مثلاً في ترجمة العبارة الأولى : should we take the lion to the zoo? ، فهل نترجم العبارة الثانية بالعبارة الآتية should we take the bus to the zoo? أم أن الأدق أن نترجمها بالعبارة (should we ride the bus to the zoo?)؟ ما يطرحه ذلك أمام نظرية الترجمة ليس هو مجرد ترجمة هذه العبارات البسيطة . إنه يطرح قضية الأساس المعرفي الذي ينطلق منه المترجم . هل ينقل إلى اللغة الهدف ما يجسد الإطار الإدراكي بتركيبه التمثيلي الذهني القائم في اللغة المصدر (أخذ الحافلة)؟ أم أن الأحرى به أن يختار من اللغة الهدف ما يجسد الإطار الإدراكي المباشر الأبسط تعقيداً (ride the bus)؟ وبعبارة أخرى نقول : أين يقع إعمال المبدأ الإدراكي (الصدارة الإدراكية) cognitive priming في إشكالية قضية التكافؤ في نظرية الترجمة؟ هل الصدارة تكون للمفهوم الذي له الصدارة إدراكياً في اللغة المصدر ، أم تكون لما له الصدارة في اللغة الهدف؟

---

(1) Roger Fowler: 1986: Linguistic Criticism. p. 27. Oxford : Oxford University Press

(2) Weber, Jean Jacques (1992). Critical Analysis of Fiction: Essays in Discourse Stylistics. pp. 13-14. Amsterdam / Atlanta.

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي منا أولاً وقفة أمام مفهوم (الصدارة الإدراكيـة) . ولعل مراجعة أدبيات هذا المفهوم تمكننا من تعريف (الصدارة الإدراكية) بأنها عملية قياس لا واعٍ يُفسَّر فيها ، أو يُدرَك ، مثير جديد (تجربة ، موقف ، كلمة . . .إلخ) على ضوء الخُبرة الإدراكية الناجمة من مثير سابق مماثل له . وبطبيعة الحال فإن الصدارة الدلالية تقع ضمن الصدارة الإدراكية : نحن نفهم الكلمات التي نقرؤها أو نسمعها الآن على ضوء خبرتنا السابقة بمعانيها ودلالاتها المباشرة أو الضمنية . هذه المعاني السابقة لها الصدارة في إدراك المعنى .

على ضوء ذلك تصبح تجربة صاحب النص في اللغة/ المصدر مع لغته تجربة غير قابلة للترجمة ، ويصبح النص الذي يضعه المترجم إنما هو انعكاس لتجربته الإدراكية مع لغته هو ، من جهة ، ولتجربته الإدراكية هو مع اللغة التي يترجم منها ، من جهة ثانية . ومؤدى ذلك أننا أمام (نصّين) وليس أمام (نص) و(نسخة منه بلغة أخرى)!

ولكي نقدّر حجم التعقيد الذي تواجهه نظرية الترجمة بوصولنا إلى هذا المؤدى وهو أن المترجم - وهو غالباً ما يكون ابنَ اللغة الهدف- لا يستطيع أن يميز ما هو في الصدارة الإدراكية في وعي أعضاء اللغة المصدر ، ومن ثم في تفكيرهم وثقافتهم -أقول : لكي نقدر حجم التعقيد فإننا نضيف إلى ذلك أنه في بعض السياقات النصية تكون الصدارة الإدراكية للمعنى البعيد جداً عن الصدارة الدلالية في الوعي اللغوي العام . لنأخذ - على سبيل المثال- عبارة (قرأ فلان في سرِّه آية الكرسي) . فهي في دلالتها تستدعي السجل اللغوي الخاص بالدين والتدين ، أو أنها تعبر عن الورع أو ما إلى ذلك . ولكن لننظر إلى هذه العبارة نفسها في سياق رواية نجيب محفوظ (حضرة المحترم ، ص٧) حيث يسرد الراوي حدَث بدء البطل حياتَه الوظيفية بمقابلة المدير العام في مكتبه ، ثم يقول الراوي إن هذا البطل «وهو يغادر المكان قرأ في سرّه آية الكرسي»!! فالعبارة هنا تتحول كلياً إلى الدلالة العميقة على ذلك التطلع العارم في نفس بطل الرواية

(عثمان بيومي) للوصول إلى (الكرسي) الذي يجلس عليه المدير العام ، ومن ثم يصبح تعبير (آية الكرسي) تورية تشير إلى آية المنصب ؛ أي إلى علامته الدالة على السلطة والتحقق الوظيفي والاجتماعي ، وهي العلامة التي ظل البطل يركض ويلهث وراء مدلولاتها إلى نهاية الرواية . والسؤال هنا : لأي وجهة تعطى الصدارة الإدراكية : للمعنى الديني الورعي؟ أم لذلك المعنى الملتحم عضوياً بخطاب النص؟ ومن ثم فإن اختيار إحدى الإجابتين يترتب عليه ما يلي : هل إذا قمنا بترجمة رواية (حضرة المحترم) إلى الإنجليزية نترجم العبارة (وقرأ في سره آية الكرسي)[1] هكذا :

and he silently read "the Chair verse !"

أو هكذا : and he silently recited Ayat Al-Kursi

أم أن الانتباه إلى مبدأ الصدارة الإدراكية التي يدعمها النص يجعلنا نترجمها هكذا :

And he secretly read "the sign of the chair"

وعلى ضوء كل ما سبق فإن نظرية (التكافؤ) المحايثة لنظرية الترجمة عموماً وطوال تاريخها الممتد ، بدت أمام مأزق حقيقي ، إلى الحد الذي ذهبت فيه سنيل هورنبي Snell-Hornby إلى القول بأن «مفهوم التكافؤ في الترجمة ما هو

---

(١) على موقع /http://quranexplorer.com قُدّمت خمس ترجمات مختلفة ، لخمسة مترجمين مختلفين ، لقوله تعالى {وسع كرسيه السموات والأرض} ٢٥٥/ البقرة ؛ وذلك على النحو التالي :

His throne comprehendeth the heavens and the earth

His Kursî extends over the heavens and the earth,

His Kursiyy (Chair) extends to the Heavens and to the Earth

His throne includeth the heavens and the earth

His Throne doth extend over the heavens and the earth

إلا وهم»[1]. ولعل تأمل جملة النعوت التي أضيفت لوصف (التكافؤ) (التكافؤ النحوي، التكافؤ النصي، التكافؤ الدلالي، التكافؤ التواصلي، التكافؤ التداولي، التكافؤ الأقصى optimal equivalence . . .إلخ) يؤكد وجود قلق واضح تجاه هذا المفهوم. وفي هذا السياق تطرح المقاربة الإدراكية رؤية تذهب إلى أن عالم النص/ المصدر ينعكس عليه وفيه عالم إدراكي. هذا العالم الإدراكي يجب على المترجم تأمينُ فهمه عبر تفسير النص وفهم ثقافة هذا النص[2]. ولكن ما أيسر أن نقول (يجب على المترجم)! والحقيقة هي أنه ما أصعب أن يجد المترجم الوسائل التي ينفّذ بها هذا الذي يجب عليه! لننظر مثلاً لقائمة (الواجبات) التي سردتها منى بيكر Mona Baker في كتابها (بعبارة أخرى: كتاب مدرسي في الترجمة In Other Words: A Course Book on Translation)[3] بخصوص أنواع (التكافؤ) التي (يجب) على المترجم مراعاتها:

١- التكافؤ على مستوى الكلمة Equivalence at word level: وهنا يجب على المترجم أن يتذكر أن الكلمة وحدة مركبة، وهذا يفرض عليه أن ينتبه إلى عدد من العوامل عند فحص الكلمة؛ مثل: دلالتها على العدد، والنوع، والزمن (p.10-44).

٢- التكافؤ فوق مستوى الكلمة Equivalence above word level: والمقصود بذلك ترجمة المتصاحبات اللغوية، والتعبيرات الإصطلاحية، والعبارات المسكوكة. (pp. 46-81)

---

(1) Vanessa Leonardi Equivalence in Translation: Between Myth and Reality . In: Translation Journal, V4, N4, October 2000. On: http://www.translationjournal.net/journal/14equiv.htm

(2) Eliza Kitis: "The Pragmatic Infrastructure of Translation" p. 70 , on: www.enl.auth.gr/staff/EKitis-Translation_Communic.pdf

(3) Mona Baker: (1992): In Other Words: A course book on translation. London: Routledge Pdf on: getebook.org/?p=222661

٣- التكافؤ النحوي Grammatical equivalence : وهنا تذكر بيكر بالتنوع والتغاير القائمين بين اللغات في المقولات النحوية . هذا التغاير يؤدي إلى مشكلات في إيجاد المقابل في اللغة/ الهدف ، وإلى تغاير ملحوظ بين نص اللغة/ المصدر ونص اللغة/ الهدف في طريقة بناء الجملة ؛ الأمر الذي يؤدي إلى اختلاف في تنظيم المعلومات أو بناء الرسالة . وكل ذلك قد يغري المترجم بالحذف أو الإضافة . (pp.82- 118)

٤- التكافؤ النصي Textual equivalence : تشير بيكر إلى أهمية مراعاة النسيج النصي ، والبنية الموضوعاتية والمعلوماتية القائمة في النص/ المصدر ، ووسائل الربط اللغوي cohesion فيه ؛ حيث إن كل ذلك يقدم معالم مفيدة في فهم وتحليل النص/ المصدر بما يمكّن المترجم من إخراج نص مترابط ومتسق لجمهوره المتلقي . وهنا تقول بيكر إن الأمر متروك للمترجم في أن يبقي أو لا يبقي على وسائل الربط والاتساق القائمة في نسيج النص/ المصدر . ولكن قراره في ذلك يسترشد بثلاثة عوامل : جمهوره المستهدف ، والغرض من الترجمة ، ونمط النص المترجم . (pp.119- 216)

٥- التكافؤ التداولي Pragmatic equivalence : وهنا تركز بيكر على الاتساق النصي coherence فتقول إن على المترجم أن يستبط المعاني الضمنية غير المصرح بها في النص/المصدر ؛ ومن ثم فدور المترجم هنا هو أن يعيد خلق مقاصد المؤلف الذي ينتمي إلى ثقافة أخرى ، وذلك من أجل تمكين قارئ النص/ الهدف من فهم هذه المقاصد بشكل واضح . (pp. 260)

والملحوظة الواضحة إزاء هذه القائمة أن (التكافؤ) يواجه مشكلة في كل مستوى من هذه المستويات . وهذا ما يجعل القائمة قائمة بالمشكلات التي تتحدى التكافؤ . ولعل مما له مغزاه هنا أن منى بيكر التي وضعت هذه القائمة ، ووزعت عناصرها على فصول كتابها ، هي نفسها التي تضع في بداية الكتاب عبارة فيرث (Firth, 1957: 197) التي يقول فيها «هل نحن نعرف في الحقيقة كيف نترجم؟ أو ماذا نترجم؟ . . . هل نحن مضطرون لأن نقبل بوجود (أفكار

عارية) كوسيلة للعبور من لغة إلى أخرى؟ . . . المترجمون يعرفون أنهم يَعْبُرون ، ولكنهم لا يعرفون بأي نوع من الجسور يعبرون . إنهم غالباً ما يكررون العبور عن طريق جسر مختلف في كل مرة» . ولا شك أن ما يريد فيرث قوله هنا هو أن القبول بوجود (أفكار عارية) ؛ أي مجردة ومطلقة ومتعالية على الاختلاف الإدراكي والنسبية الثقافية ، إنما هو قبول بالوهم! ومن ثم فإن وضع منى بيكر لهذا المقتبس عن فيرث ينطوي ضمنياً على قدر من التشكك في وجود (التكافؤ) . ويبدو أن هذا التشكك نفسه ظل ملازماً لتفكير منى بيكر حيث إنها في مقابلة معها عام ٢٠٠٨م تقول «لا أظن أنه ينبغي أن نسقط مصطلح (التكافؤ) . فلو فعلنا ذلك فسيكون من الصعب أن نقارن النصوص/ الهدف بالنصوص/ المصدر ، وهو التمرين الذي سيبقى مهماً جداً بالنسبة إلى العلم [الترجمة] ، وبخاصة في تدريب المترجمين والمفسرين . ولكن يجب أن نأخذ بالنسبة إلى مفهوم التكافؤ توجهاً أكثر ليونة فنطبق تعريفات له مختلفة في السياقات المختلفة . وبالقدر الذي نكون فيه واضحين في كيفية استخدام المصطلح في أي مناسبة ، وبالقدر الذي نحذر فيه الطلاب وأنفسنا من الطبيعة الإشكالية المتأصلة في هذا المفهوم ، فإنني لا أرى صعوبة معينة في الاستمرار باستخدامه كلما أثبت قدرته على أن يكون نافعاً»[١] . ولا يخفى هنا مدى إدراك عدم الكفاءة المصطلحية لمصطلح يتغير تعريفه مع كل سياق ، ومع كل مناسبة ، ويتسم بطبيعة إشكالية متأصلةً!

لقد حاول يوجين نايدا أن ينقذ نظرية (التكافؤ) بالقول بأنه مادامت «التكافؤات المتطابقة identical equivalents» لا وجود لها ، فعلى (علم الترجمة) - وهذا مصطلحه[٢]- أن يأخذ بما سمّاه تارةً مفهوم (التكافؤ الديناميي dynamic

---

(1) Mona Baker: "Ethics of Renarration: Mona Baker Is Interviewed by Andrew Chesterman." Cultus1, no. 1(2008) : 10-33, on: www.monabaker.com/documents/CULTUSInterviewFinal.pdf

(٢) في كتابه : Eugene Nida: (1964): Toward a Science of Translating. Leiden: Brill

equivalence) ، أو بما أسماه تارةً أخرى مفهوم (التكافؤ الوظيفي functional equivalence)[١] ؛ قاصداً به أن يقوم النص المترجَم بإحداث أثر في متلقيه في اللغة/ الهدف يماثل الأثرَ نفسه الذي أحدثه النص الأصلي في متلقيه في اللغة/ المصدر . ومن أجل الوصول إلى هذا القصد اعتمد نايدا على النموذج اللساني الذي كان تشومسكي قد أرساه منذ عام ١٩٥٧ في كتابه (البنى التركيبية) وعُرف بالنموذج التحويلي التوليدي . ولكن مقترح نايدا هذا وُوجهَ بسيل من النقد أبرزُه ذلك النقد الذي قام به إدوين غينتسلر[٢] ، وأقساه ذلك النقد الذي قام به علماء ترجمة الكتاب المقدس[٣] . يصف بويثريس Poythress مثلاً نظرية التكافؤ الدينامي بأنها نظرية ذات نزوع اختزالي reductionistic ، ويسرد من وجوه قصورها الاختزالي ما يلي :

١- أنها متورطة في الاختزال عن طريق تجاهل كل خصوصيات المتكلم الفرد .

---

(١) في كتابه المشترك مع جان دي وارد :

Eugene A. Nida & Jan de Waard: (1986): From One Language to Another: Functional Equivalence in Bible Translation) Nashville: Thomas Nelson)

(٢) إدوين غينتسلر ، ترجمة د . سعد مصلوح : في نظرية الترجمة : اتجاهات معاصرة . ص ١٤٨ وما بعدها . (المنظمة العربية للترجمة) - بيروت ٢٠٠٧م .

(٣) انظر مثلاً :

- Anthony Howard Nichols, (1996): "Translating the Bible: A Critical Analysis of E. A. Nida's Theory of Dynamic Equivalence and Its Impact Upon Recent Bible Translations," Ph.D. dissertation, University of Sheffield. : وفق ما وردت الإحالة إليه في الدراستين التاليين

- V.S. Poythress, (2004): Truth and Fullness of Meaning: Fullness versus Reductionistic Semantics in Biblical Interpretation . On: http://www.bible-researcher.com/poythress.html

- Michael Marlowe: (2012): Against the Theory of Dynamic Equivalence . On: http://www.bible-researcher.com/dynamic-equivalence.html

٢- أنها تختزل المعنى إلى معنى الجمل ، وتتخلى عن فحص التفاعل مع سياق الموقف أو السياق النصي الأكبر للخطاب . وإذا كان نايدا نفسه قد نصح بوضوح في موضع آخر[1] بالانتباه إلى السياقات الأكبر للفقرات والخطاب ، فإن نصيحته تلك تتعارض مع النموذج التحويلي الذي تبناه ، والذي قصر تحليله على الجمل ومكوناتها .

٣- أنها تختزل كل التعبيرات المجازية إلى المستوى الحرفي ؛ حيث إن البنى الشكلية النواة في النحو التحويلي التوليدي لا تتعامل إلا مع المعاني الحرفية .

٤- أنها تختزل المعنى من الثراء الذي يشمل الأبعاد الإحالية والعاطفية والتعبيرية وغيرها إلى مستوى وحيد هو «المعنى اللغوي» .

٥- أنها تزعم أن المعاني في النص الأصلي كلها واضحة وشفافة . وهذا الزعم ربما يكون صحيحاً بشكل تقريبي مع بعض أنماط النصوص الأصلية ذات الموضوعات التقنية أو المسائل الحياتية ، ولكنه يبعد تماماً عن الصحة بالنسبة إلى أنماط نصية أخرى ، وبخاصة النصوص الدينية التي تنطوي على الغوامض والأعماق .

٦- أنها تختزل معنى الجملة المركبة غير النواة إلى مكوناتها النووية . ولكن المعاني في الواقع لا تختزل بالطريقة البسيطة نفسها إلى معاني بنياتها النووية .

هذه القائمة من الانتقادات يمكن عدُّها تفصيلات لمشكلة أساس ؛ وهي أن نظرية نايدا تتحكم فيها استعارة إدراكية راسخة عبر الزمن والفكر ؛ وأعني بها

---

(١) هنا يحيل بويثرس إلى ما قاله نايدا وتابر في كتابهما (نظرية الترجمة وممارستها Eugene A. Nida and Charles R. Taber, The Theory and Practice of Translation (Leiden: Brill, 1982)) :
«المترجمون واللسانيون الخبيرون قادرون على التدليل على أن الجملة المنفردة بدورها ليست كافية . ومن ثم يجب أن يتم التركيز على الفقرة ، وإلى حد ما على الخطاب بكليته»
(Nida and Taber, Theory, 102)

تلك الاستعارة التي أطلق عليها مايكل ريدي (استعارة الوعاء The Conduit Metaphor)(١) ، والتي عدَّها ليكوف إرهاصاً قوياً للنظرية الإدراكية المعاصرة في الاستعارة . ومؤدى هذه الاستعارة هو رؤية الكلمات والجمل بوصفها أوعية (أنابيب أو مواسير) للأفكار ، ورؤية حدث الاتصال بوصفه نقلاً لمحتوى هذه الأوعية من لدُن المتكلمين والكتاب إلى السامعين والقراء الذين يقومون بإزالة هذه الأفكار من هذه الأوعية ووضعها في عقولهم . فنايدا يرى أن النص/ المصدر ينقسم إلى مكوِّنين : مكوّن الشكل ، ومكون المعنى . والمكون الأول ؛مكون الشكل ، ما هو إلا (وعاء) للمكون الثاني ؛ مكون المعنى . ومن ثم انقسم التكافؤ عند نايدا إلى نوعين : التكافؤ الشكلي formal equivalence ، وهو يختص بالنظر إلى المكوّن الأول ، والتكافؤ الدينامي أو الوظيفي ، وهو يختص بالنظر في المكون الثاني . وحيث إن الموعَى عليه في (الوعاء) أهم من شكل الوعاء حسب استلزامات تلك الاستعارة الإدراكية ، فإن البحث عن التكافؤ المعنوي - الذي أسماه نايدا بالمكون الدينامي أو الوظيفي- يكون هو الأهم عند (نقل) النصوص من وعاءٍ لغوي إلى وعاء لغوي آخر! (الأهم) ؛ لأنه هو (الجوهر) الثابت والمتعالي على اختلاف السياقات والإدراكات واللغات والثقافات . ومن ثم فهناك لدى متلقي النص في اللغة/ الهدف معان مكافئة في أثرها لأثر المعاني التي يحملها النص في اللغة/ المصدر . وعلى هذا فإن البحث عن ترجمة تعمل على إحداث (أثر مكافئ) يكون هو المطلب لإحداث (استجابة مكافئة) . وعلى ضوء ذلك نفهم قول نايدا وتابر الآتي : «إن التكافؤ الوظيفي في الترجمة هو أكثر من مجرد توصيل صحيح للمعلومات . ففي الحقيقة ثمة عنصر بالغ الأهمية ، ومع ذلك مايزال مهملاً في الغالب ، وهو عنصر العامل التعبيري ؛ حيث إن الناس بالإضافة إلى فهم ما يقال يجب أيضاً

---

(1) Reddy, M. (1979). "The Conduit Metaphor" in Anthony Ortony (Ed.), Metaphor and thought. Cambridge, England: Cambridge University Press.

أن يشعروا به»[١] . ففي السياق المعرفي لنظرية نايدا نفهم أن ما يريد أن يقوله هذا الاقتباس هو أن على المترجم أن يبحث عن (تعبيرية مكافئة وظيفياً) لتعبيرية النص الأصلي ؛ أي تعبيرية مكافئة في (الأثر) الشعوري وليست تعبيرية منقولة بمادتها أو صورتها من النص الأصلي . وعلينا أن نلاحظ هنا أن مفهوم (المكافئ) انزلق ليعني مفهوم (الموازي) . ويتصور نايدا أن هذا (الموازي) يحدث أثراً مماثلاً للأثر الذي أحدثه موازيه في قارئ النص/ المصدر . ومن الواضح أن هذا تصور ينطلق من «مفهوم متعال للإنسانية بوصفها جوهراً لا يغيره الزمان أو المكان»[٢] ، وهو تصور ماثل بوضوح في قول نايدا «إن ما يوحّد البشر أكبر مما يفرقهم . وحتى في حالات اللغات والثقافات المتنافرة جداً هناك أساس للتواصل»[٣] . ولا شك أن هذا التصور يفضي إلى تفسير (أساس التواصل) هذا بأنه يعني جوهرية المعنى . ولعل هذا التفسير هو ما توجّه له فينوتي Venuti بالنقد حين قال بأن النص الأجنبي نفسه هو موضع لكثير من الإمكانات الدلالية التي لا تحدِّدُ الترجمةُ منها سوى معنى مؤقت . فالمعنى نفسه يُرَى كعلاقة جمعية واقترانية ، وليس كجوهر موحّد وثابت»[٤] . ففي ترجمة (أفعال الحركة) مثلاً نجد أن ثمة نمطاً من اللغات تكون الصدارة الدلالية فيه لتعبير

---

(1) Nida and Tabor: Theory and Practice, 25.

نقلاً عن :

Mark L. Strauss: Form, Function, and the Literal Meaning Fallacy in Bible Translation. P.19. On: www.bible-researcher.com/Strauss.LiteralFallacy.pdf

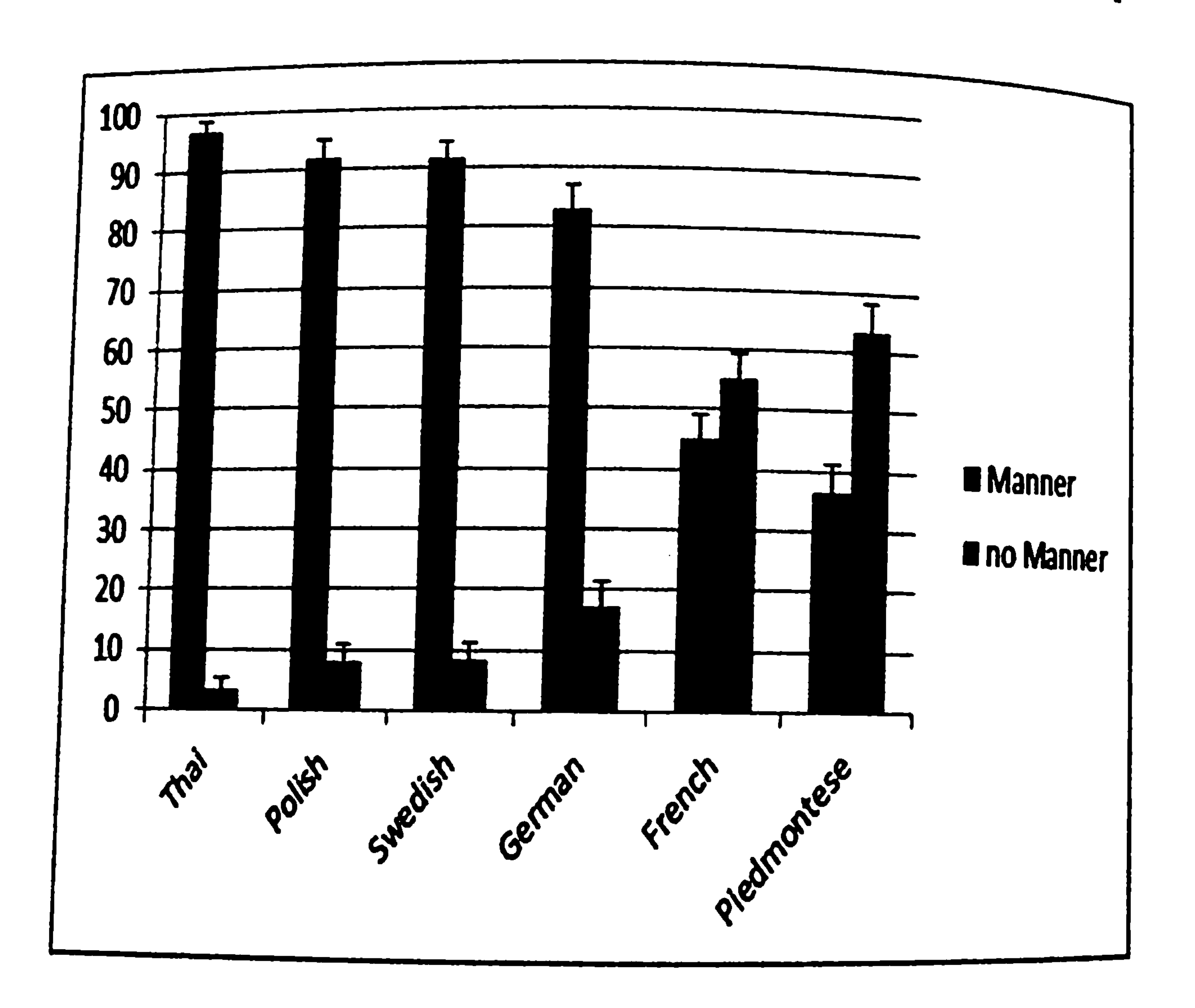
(2) Anica Glodjovi?: (2010) Translation As a Means Of Cross-Cultural Communication: Some Problems In Literary Text Translations. In: Linguistics and Literature Vol. 8, No 2, 2010, pp. 141 - 151. Pdf on: facta.junis.ni.ac.rs/lal/lal201002/lal201002-05

(3) Nida, 1964: 24 p.143

نقلاً عن السابق .

(4) Venuti, L., (1995), The Translator's Invisibibility: A History of Translation, p. 18. Routledge, London and NewYork, 1.143- نقلاً عن السابق

الفعل عن (طريقة manner) القيام بالحركة ، وأن ثمة نمطاً آخر من اللغات لا يكترث أصلا بالتعبير عن هذه الطريقة . وفي المخطط التالي[١] عينة مقارنة بين النمطين في ست لغات (التايية [اللغة الرسمية في تايلاند] ، والبولندية ، والسويدية ، والألمانية ، والفرنسية ، والبيدمونتية [لغة/لهجة يُتحدث بها في الشمال الغربي من إيطاليا]) . فما الذي نعده في هذه الحالة (أساس التواصل) حين نترجم من إحدى لغات النمط الأول إلى إحدى لغات النمط الثاني؟



---

(1) Benjamin Fagard, Jordans Zlatev, Anetta Kopecka, Massimo Cerrutti & Johan Blomberg:: The Expression of Motion Events: A Quantitative Study of Six Typologically Varied Languages . pdf on:

www.academia.edu/4107524/The_Expression_of_Motion_Events...

وإذا كنتُ قد أشرت منذ قليل إلى أن مفهوم (المكافئ) ينزلق في نظرية نايدا إلى مفهوم (الموازي) فلا بد أن أشير هنا إلى أن الأخذ بمفهوم الموازي التعبيري يمكن أن يفضي إلى مشكلات أكثر تعقيداً . لنأخذ مثلاً التعبير (زكاة الفطر) . فالبحث عن موازٍ تعبيري لهذا المفهوم يثير لدى جماعة لغوية/ هدف استجابةً شعورية مماثلة لما يثيره لدى الجماعة اللغوية/المصدر هو أمر يكادُ يستحيل التحقق . ولننظر مثلاً إلى ربط لامياء شريبي[١] بين هذا المفهوم ومفهوم (المواد الغذائية foodstuffs) في الإنجليزية ؛ حيث اقترحت إمكان ترجمته إلى الإنجليزية هكذا :

Obligatory donation of foodstuffs required at the end of Ramadan, the month of fasting.

فمن المعروف أن (الغذاء) مقولة ثقافية تتغاير بتغاير الثقافات ، أو لنقل بتعبير أتوكام داليز «الغذاء رمزية foodstuff is symbolism»[٢] . ومن ثم فليس كل ما هو مقبول كمادة غذاء في ثقافة مقبولاً كذلك في ثقافة أخرى : «الأمريكيون يأكلون المحار ولكن لا يأكلون القواقع . الفرنسيون يأكلون القواقع ولكن لا يأكلون الجراد . الزولو يأكلون الجراد ولكن لا يأكلون السمك . اليهود يأكلون السمك ولكن لا يأكلون الخنزير . الهندوس يأكلون الخنزير ولكن لا يأكلون لحم البقر . الروس يأكلون لحم البقر ولكن لا يأكلون الثعابين . الصينيون يأكلون الثعابين ولكن لا يأكلون البشر . الجاليون في غينيا الجديدة يجدون لحم

---

(١) لامياء شريبي : ترجمة معاني القرآن الكريم بين تحديات المصطلح ومطالب الدلالة . (ماجستير) في كلية الآداب واللغات ، جامعة منتوري قسنطينة- الجزائر- ٢٠١٣م (منشورة pdf على موقع الدكتور محمد ربيع الغامدي) .

(2) Atoukam T. L. Dalis: Historical and Ethnological Analysis of Consumption of Foodstuffs in Adamawa and Western Cameroon .in: Science Journal of Sociology and Anthropology. Volume 2013. On: www.sjpub.org/sjsa/sjsa-222.pdf

البشر لذيذاً»(١) . ويترتب على ذلك أنه حين يكون ثمة ارتباط بين مادة غذائية معينة ومنظومة دينية أو ثقافية معينة فإن هذه الرمزية تزداد كثافة وتركيباً واندماجاً في الخصوصية النسبية .

يمكن القول باطمئنان أن استعارة (اللغة وعاء) التي شكّلت المقوّم المعرفي لنظرية نايدا في الترجمة قد واجهت تحدياً قوياً مع فرضية (الحتمية اللغوية = اللغة تشكّل الفكر) التي تجلّت في مقالات وورف التي ظهرت عام ١٩٥٦م ؛ أي في فترة معاصرة لظهور كتاب نايدا (١٩٦٤م) . ولكن التحدي الحقيقي الذي تواجهه نظريته في الترجمة الوظيفية أصبح ماثلاً في تلك العودة إلى بحث علاقة اللغة بالفكر ولكن من منظور جديد هو المنظور الإدراكي .

لنعد إلى مفهوم (المواد الغذائية) لتوضيح الأسس الإدراكية الكامنة وراء اختلافات الثقافات في رمزيتها ، ومن ثم للتدليل على قولنا بأن البحث عن مواز تعبيري لهذا المفهوم يثير لدى جماعة لغوية/ هدف استجابةً شعورية مماثلة لما يثيره لدى الجماعة اللغوية/المصدر هو أمر يكاد يستحيل التحقق . فحين نرى أن النظريات المقترحة حول الالتزام الديني تذهب -على اختلاف في التفاصيل- إلى أن ثمة أبعاداً ، أو مكونات ، لكل شعيرة(٢) ، وحين ترتبط مادة غذائية معينة بشعيرة معينة ، وحين نعلم أن المواد الغذائية (حيوانات ، نباتات ، في الغالب) هي من معطيات بيئة معينة ، وتخضع لتصنيفات إدراكية ، وأحكام وتقويمات ثقافية ، معينة ، أقول : حين نعلم كل ذلك فإن القول بأن :

Obligatory donation of foodstuffs required at the end of Ramadan, the month of fasting.

---

(1) "Culture's Influence on Perception" p. 73. on: www.sagepub.com/upm-data/45975_Chapter_3.pdf

(٢) راجع مثلاً :

Muhammad Syukri Salleh Religiosity in Development: A Theoretical Construct of an Islamic-Based Development .in: International Journal of Humanities and Social Science Vol. 2 No. 14 [Special Issue - July 2012]. on: www.ijhssnet.com/.../31.pdf

هو مكافئ دينامي، أو وظيفي، لمفهوم (زكاة الفطر) إنما هو قول يسقط - على الأقل - أمرين: أولهما: نسق الأبعاد الكامن في الممارسة الفعلية في تلك الشعيرة الدينية (إخراج زكاة الفطر)، وثانيهما: النسق الإدراكي الثقافي الكامن في محتوى ما يُقدَّم (زكاةً) فيها. واختصاراً نقول إنه يسقط: إدراكيات بنية الحدث، وإدراكيات عناصر محتوى الحدث. فأما بخصوص بنية الحدث فالمكافئ المقترح لا يتضمن مثلاً بُعْدَ الممارسة الجماعية؛ أي التعميم الجمعي على كل فرد في القيام بهذا الالتزام عدا (من لا يَملِك في يوم العيد وليلته طعامًا زائدًا على ما يَكفيه ويكفي عياله)، ولا يتضمن تحديد من له أن يحصل على المُخرَج زكاةً. وبخصوص إدراكيات عناصر محتوى الحدث فإن المكافئ المقترح يسقط اعتبار أن هذا المخرَج المزكّى به (بر، قمح، أرز، تمر . . .) إنما هو نتاج تفاعل تجربة جسدانية مع البيئة والطعام والآخرين من أعضاء الجماعة الاجتماعية؛ أي أن كل نوع من هذه المواد الغذائية مُجَدْوَل إدراكياً عبر آليات إدراك المجال النوعي domain-specific cognitive mechanisms . ومن ثم فإن الحديث عن وجود (مخيال طعامي food imagery) لدى كل ثقافة يبدو حديثاً صحيحاً. ولعل هذا هو البعد الإدراكي الذي استبصره رولان بارت منذ عام ١٩٥٧م حين كتب في كتابه (أساطير Mythologies) عن الطعام قائلاً «إنه ليس فقط مجموعة من المنتجات التي تستخدم لأغراض إحصائية أو غذائية. فهو أيضاً وفي الوقت نفسه نظامُ تواصل، وهيكل صور، وقواعد استعمالات، ومواقف، وسلوك»[١] . ولكن لابد هنا أن نقول إن هذا الاستبصار جاء في سياق الاستبصار الإدراكي العام لأثر التفاعل بين الثقافة والإدراك. وعلى

(١) نقلاً عن:

Jennifer Burcham Whitt: (2011): An Appetite for Metaphor: Food Imagery and Cultural Identity in Indian Fiction. P. 5. A Thesis Presented To The Faculty of the Department of English East Carolina University. Pdf on: thescholarship.ecu.edu/handle/10342/3535

سبيل المثال نشير إلى الفصل الذي كتبه مجموعة باحثين تحت عنوان (أثر الثقافة في الإدراك البصري)[١] . وفي الوقت نفسه نشير إلى مقالة مارك بورنستين Marc H. Bornstein (أثر الإدراك البصري في الثقافة)[٢] . وعلى ضوء هذه الدراسات يمكن لنا أن نقول إن الحدث الذي نقف عند ترجمته هذه الوقفة ؛ أعني (زكاة الفطر) ، وإن عناصر محتواه ؛ أعني المزكّى به (بر ، قمح ، أرز ، تمر . . .) إنما هي أمور غير قابلة للترجمة إلا عبر متوالية من الاختزالات الإدراكية والثقافية . أو لنقل بعبارة أخرى : إنها غير قابلة للترجمة إلا عبر إنشاء وهم التماثل .

أليست الترجمة بحاجة إلى أن تنتظر اليوم الذي وعدنا به بيرتيل أوستيربيرج Bertil Osterberg ؛ وهو اليوم الذي يتحقق فيه إمكان قراءة عملية التفكير داخل الذهن معروضة كفيلم على شاشة الحاسب[٣]؟!

---

(١) انظر هذا الفصل في :

Hans Toch and Clay Smith (eds.): (1968): Social Perception. Ch. 14: The Influence of Culture on Visual Perception by Marshall H. Segall, Donald T. Campbell and Melville J. Herskovits. On: web.mit.edu/allanmc/www/socialperception14.pdf

(2) Marc H. Bornstein (1975): The Influence of Visual Perception on Culture. In: AMERICAN ANTHROPOLOGIST (77).PDF On: onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1525/aa.1975.77.4.02a...

(3) Bertil Osterberg, op cit, p.22

منهجية دراسة الاستعارة
من الأساس اللغوي إلى التأسيس الإدراكي(*)

مدخل:

لابن جني عبارة شهيرة يقرر فيها «أن هذه اللغة أكثرها جار على المجاز، وقلما يخرج الشيء منها على الحقيقة . . . ، فلما كانت كذلك ، وكان القوم الذين خوطبوا بها أعرف الناس بسعة مذاهبها ، وانتشار أنحائها ، جرى خطابهم بها مجرى ما يألفونه ويعتادونه منها ، وفهموا أغراض المخاطِب لهم بها على حسب عرفهم ، وعادتهم في استعمالهم»(١) . وفي هذه العبارة يستلفت النظر أمران :

١- تأكيد أن نسبة المجاز في اللغة هي النسبة الأكثرية الغالبة على ما أُطلِق عليه مصطلح (الحقيقة) الذي استقطبت دلالته معنى (أصل الوضع اللغوي) .

٢- أن التخاطب ؛ أي التواصل اللغوي ، يقوم على اعتياد المجاز في الكلام ؛ أي أن المجاز لا يمثل عقبة أمام الفهم والاستعمال .

هاتان فرضيتان لم يتح أن ينمو حولهما -في السياق البلاغي العربي القديم- جدل نظري أو جهود تحليلية معمقة . ومن ثم ظلتا منزويتين ، بل زاد انزواؤهما أمام زحف هذا السياق صوب التأكيد على افتراض أسطورة (الحقيقة/

(*) نشرت في كتاب الندوة الدولية (قضايا المنهج في الدراسات اللغوية والأدبية : النظرية والتطبيق)- في الفترة من ٢١- ١٤٣١/٣/٢٤هـ الموافق ٧- ٢٠١٠/٣/١٠م - قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة الملك سعود .

(١) ابن جني : الخصائص . تحقيق محمد علي النجار (دار الهدى -بيروت-بدون تاريخ) ٢٤٧/٣

الأصل) ، من جهة ، وتأكيد مطالب (الوضوح) و(المطابقة) و(الصدق) وكلها تقوم على محاولة وقف تكاثر عمل العقل في إنشاء حقائق جديدة عن طريق إطلاق ممكناته المبنيّ عليها استعداداً تكوينياً نوعياً ، وعلى رأسها ممكنه الأصلي : المجاز ![1]

نستطيع القول -بصورة استهلالية مجملة- إن هاتين الفرضيتين لم تتحولا إلى أفق إبستمولوجي لمشروع علمي إلا مع المقاربة الإدراكية للاستعارة[2] . وهذا الإجمال هو ما يحاول هذا البحث أن يجلي أبعاده وأسسه وغاياته .

الاستعارة من البلاغة القديمة إلى البلاغة الجديدة:

كثير من الباحثين يرى أن إيفانز ريتشاردز يعدّ أبا «البلاغة الجديدة» new rhetoric التي جعلت مركزها الإبستولوجي كيفيةَ اكتشاف المعرفة knowledgw وفهمها . ولا شك أن هذا الرأي يستند إلى مقومات تؤسس له . غير أن ما يهمنا في مفتتح هذا البحث أن نقف عند جانبين من هذه المقومات : أولهما : دحض ريتشاردز لنظرية أرسطو في الاستعارة ، وثانيهما ربطه بين الاستعارة وعمل العقل . ولا شك أن وقوف البحث في هذا المفتتح عند هذين المقومين يسوغه صلتهما بما نحن بصدده من حديث عن منهجية المقاربة الإدراكية للاستعارة .

---

(١) مما يدل على ذلك بوضوح قول البلاغيين إن الاستعارة موضوعة للمشبه وليس للأعم من المشبه والمشبه به! فهذا (الأعمّ) هو العلاقة الإدراكية التي تقيمها الاستعارة بين الطرفين ، وفي هذه العلاقة يكمن الإبداع العقلي للاستعارة . أما قصر وضع الاستعارة على «توضيح» المشبه أو «المبالغة» في تمكينه في الصفة التي هي حق (أصيل) للمشبه به ، فهذا ما يجعل الاستعارة مجرد حيلة لغوية ، وليست أداة إدراكية معرفية .

(٢) نستخدم في هذا البحث مصطلح (الاستعارة) في مقابل metaphor متأسين في ذلك بالترجمة نفسها للمصطلح عند أحمد الصمعي في ترجمته لكتاب : إمبرتو إيكو : السيميائية وفلسفة اللغة . (المنظمة العربية للترجمة- بيروت-٢٠٠٥م) الباب الثالث (الاستعارة وتوليد الدلالة) ص٢٣٣ ومابعدها .

تعد نظرية أرسطو في الاستعارة هي الأولى في الفكر الفلسفي في تاريخ تأمله الطويل حول هذه الظاهرة . وتتجسد هذه النظرية كما أرساها أرسطو في كتابه (في الشعر) في العبارة التالية «الاستعارة هي تطبيق اسم غريب عن طريق نقله إما من الجنس إلى أحد أنواعه ، أو من أحد الأنواع إلى الجنس ، أو من أحد الأنواع إلى نوع آخر ، أو بالقياس ؛ أي التناسب»[١] . ومن الواضح أن هذه النظرية تقع في منظومة نظرية (الأجناس والأنواع) التي قام عليها الحد المنطقي الذي حاول أرسطو عن طريقه إقامة تصور لتصنيف تراتبي أونطولوجي . ولقد كان لهذا الأساس الإبستمولوجي عند أرسطو تأثيره الواضح في أن تشكلت المهمة الرئيسية للبلاغة القديمة في وضع «قائمة بوسائل التحسين اللفظي . . . مجموعة تصنيفات . . . قائمة بالصور المرتبة بشكل أو بآخر»[٢] .

ولكن هذه العبارة ليست هي العبارة الوحيدة لأرسطو في نظريته حول الاستعارة . ففي كتابه (الخطابة) يعطي أرسطو مساحة أكبر للاستعارة . وهناك[٣] نجد جملة من تقريراته الشهيرة التي ظلت تشكل أعمدة نظرية الاستعارة في الفكر البلاغي ؛ وذلك مثل تقريره بأن الاستعارة (نقل اسم) أو

---

(١) هذا الاقتباس ترجمة للعبارة التي وردت في ترجمة بوتشر S. H. Butcher لكتاب أرسطو ، وهي الترجمة الواردة في الموقع التالي : The Internet Classics Archive by Daniel C. Stevenson, Web Atomics. World Wide Web presentation is copyright c 1994-2009, Daniel C. Stevenson, Web Atomics. وهذا هو نص الفقرة بالإنجليزية :

"Metaphor is the application of an alien name by transference either from genus to species, or from species to genus, or from species to species, or by analogy, that is, proportion."

(٢) خوسيه ماريا إيفانكوس- ترجمة د . حامد أبو أحمد : نظرية اللغة الأدبية (مكتبة غريب- القاهرة- ١٩٩٢م) ص٢٠ .

(٣) راجع :

Aristotle: Rhetoric. Translated by W. Rhys Roberts. Available online at http://classics.mit.edu//Aristotle/rhetoric.html

(استبدال اسم)، وأنها (حلية)، وأنها (رؤية التشابهات في الأشياء)، وأنها (نتاج الموهبة الخاصة ولا يتم اكتسابها بالتعليم)، وأنها (يمكن أن تعطينا معرفة جديدة).

والسؤال هنا: ما الذي رآه ريتشاردز في نظرية أرسطو تلك قابلاً للدحض والتفنيد لكي تقوم (فلسفة جديدة)[١] لبلاغة جديدة؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال علينا أن نلحظ أن الإطار الإبستمولوجي الذي وضعه ريشاردز للبلاغة عموما يقوم على أساس أنها دراسة الفهم اللفظي، وكذلك دراسة سوء الفهم وعلاجه. وفي هذا الإطار فإن ريتشاردز ينقل الظاهرة البلاغية من دائرة (الحجاج والإقناع) الأرسطية إلى ربطها بمسائل الفهم والفكر؛ وذلك لكون مسألة الفهم هي لبّ الغاية في الاتصال الإنساني. ولما كان ريتشاردز يرى أن اللغة هي وسيلة فهم الفكر، وأن الكلمات واستعمالاتها هي الطريق إلى المعاني والأغراض، فإن على النظرية البلاغية أن تكتشف الوسائل التي يمكن بها علاج المعوقات التي تكتنف استعمال اللغة، والتي تحول دون تحقيق الاتصال الناجع. وهنا يقرر ريتشاردز أمراً بالغ الأهمية وهو أن (الغموض) أمر محايث لطبيعة الكلمات، ومن ثم فإنها لخرافة أن نعتقد أن ثمة معنى (صحيحا) أو (دقيقاً) لأية كلمة في اللغة؛ وذلك لسبب بسيط وهو أن (المعنى) ليس أمراً قاراً في الكلمات، وإنما في عقول مستعمليها. يقول ريتشاردز «إن العقل يحاول دائماً أن يجد الروابط، ويقوده في هذا البحث بقية القول ومناسبته»[٢]، ويضيف في موضع آخر «إن الكلمات هي نقاط الالتقاء التي يجتمع فيها مناطق من التجربة لا يمكن أن ترتبط في الحس أو الحدس. إنها المناسبة والوسيلة لهذا النمو الذي هو محاولة العقل التي لا تنتهي لكي ينظم نفسه. وهذا هو السبب في أن لدينا اللغة. إنها ليست مجرد نظام إشاري. إنها

---

(١) لنلحظ أن عنوان كتاب ريتشاردز هو (فلسفة البلاغة)!

(2) Richards, I. A., ([1936 [1950): The Philosophy of Rhetoric. (Oxford University Press) p.126

الوسيلة لكل نمونا البشري المميز»(١) . ثم يضيف ريتشاردز « إن الكلمات ليست وسيطاً لنسخ الحياة . إن عملها الحقيقي هو استعادة الحياة نفسها إلى النظام»(٢) . وبما أن من مهمة البلاغة علاج أشكال عدم الفهم الناتج عن هذا الغموض فإن ريتشاردز يقترح -ضمن ما يقترح- التعويل على عدة وسائل منها مثلا : (السياق) و(التعريف) و(الاستعارة) . وبخصوص هذه الوسيلة الأخيرة فإن ريتشاردز يرى أن الاستعارة تفيد في توضيح ما يريد المتكلم قوله ، وأننا «في الاستعارة لا نعبر عن شيء يمكن التعبير عنه بدونها»(٣) . ومعنى ذلك أن الاستعارة عند ريتشاردز تمثل ضرورة دلالية . وفي الوقت نفسه فهي ضرورة عقلية باعتبار أن العقل -فيما يرى ريتشاردز- هو «عضو رابط ، ولا يعمل إلا بهذا الأسلوب ، وهو يستطيع أن يربط أي شيئين بطرق مختلفة لا يحصيها عد»(٤) . وعلى هذا فإن ريشاردز يقول وكأنه يستشرف زمن النظرية الإدراكية في الاستعارة «إن التاريخ والشعر وكثيراً من نشاط الإنسان هو عمليات استعارية لم تتضح بعدُ أركانها»(٥) .

هذا الربط بين الاستعارة والعقل يمثل نقلة نوعية في نظرية الاستعارة . وعلى ضوء هذا الربط نستطيع القول إن الفكر البلاغي عند ريتشاردز كان له تأثيره الواضح في موجة الستينيات التي بدأ فيها تحول هذا الفكر صوب المقاربة الإدراكية . وعلى سبيل المثال نذكر أن ربط ريتشاردز بين الاستعارة والمعرفة كان له صداه الواضح في ذلك التعميم الذي لا يقصر أمر المعرفة على الاستعارة ، وإنما يتجاوزه إلى الربط بين البلاغة والمعرفة ، مما نجده في قول واحد مثل روبرت

---

(1) Ibid. p. 131

(2) Ibid. p. 134

(٣) هذا الاقتباس نقلاً عن : د . مصطفى ناصف : خصام مع النقاد (النادي الأدبي الثقافي بجدة-ع٧٠-١٩٩١م) ص٧٤ حيث يحيل إلى : Richards: Speculative Instruments. P. 41- 46

(4) Richards. Op cit. p.94, 125

(٥) انظر : مصطفى ناصف : خصام مع النقاد . ص٧٥ وانظر أيضاً ص٣٤٩

سكوت «إن البلاغة تقوم بخلق المعرفة وليس مجرد نقلها ، أو إعطائها قوة التأثير»[1] . ومما لاشك فيه أن إسناد هذه الوظيفة المعرفية للبلاغة لم يكن ليتم لولا ذلك الربط القوي الذي قام به ريتشاردز بين أهم الآليات البلاغية ؛ أعني الاستعارة ، والمعرفة العقلية ، وهو المشروع الإبستمولوجي الذي انطلقت منه المنهجية الإدراكية -ولكن بالتركيز على الطبيعة البيولوجية والنيورولوجية العصبونية للعقل- لتأسيس تحول عميق في نظرية الاستعارة ، وهو التحول الذي سيحاول هذا البحث أن يجلي أبعاده فيما يلي من صفحات .

الإطار اللساني الإدراكي:

لا يمكن فصل المقاربة الإدراكية للاستعارة عن الإطار الإبستمولوجي الذي شكله انبثاق العلوم الإدراكية cognitive sciences في منتصف خمسينيات القرن العشرين عندما «بدأ باحثون ينتمون إلى عدة حقول علمية في تطوير نظريات عن العقل مبنية على إجراءات تمثيلية وحاسوبية مركبة»[2] استطاعوا من خلالها الإقلاع بعيداً عن مقاربات دوسوسير وبلومفيلد اللسانية ، ومقاربات فرويد السيكولوجية . وفي هذا السياق يشار إلى الرواد الستة : جورج ميللر (علم النفس الإدراكي) ، وجون مكارثي ومارفن مينسكي وألين نيوويل وهربرت سيمون (الذكاء الاصطناعي) ونوام تشومسكي (اللسانيات) باعتبار أنهم مؤسسو (العلم الإدراكي)[3] . غير أن إطلاق مصطلح (العلم الإدراكي) لم يتم إلا عام ١٩٧٣م على يد كريستوفر هيجنز الذي جمع بين الاشتغال بالكيمياء النظرية ودراسة المخ البشري والذكاء الاصطناعي .

---

(1) Laur, Janice. M.,: 2004: Invention In Rhetoric And Composition> p. 8. (Parlor Press & The WAC Clearinghouse.USA.

(٢) انظر مدخل cognitive science في Stanford Encyclopedia of Philosophy

(3) Ibid

وبطبيعة الحال فإن سياق تطور العلم الإدراكي -نظرية وتطبيقا- شهد بعد ذلك إسهامات حقول معرفية أخرى مثل اللسانيات النفسية ، والأنثروبولوجيا الإدراكية ، والعصبونيات neurology والفلسفة .

وفي إطار هذا التطور يمكن القول إن سبعينيات القرن العشرين هي التي شهدت انبثاق اللسانيات الإدراكية . ففي عام ١٩٧٥م وحده صدرت ثلاث دراسات تصب جميعا في إبستمولوجيا ربط اللغة بالذهن البشري : دراسة تشارلز فيلمور (بديل لنظريات القوائم في المعنى» ، ودراسة جورج ليكوف وتومبسون (مقدمة للنحو الإدراكي) ، ودراسة روزش (التمثيلات الإدراكية للمقولات الدلالية) . وهنا علينا ألا ننسى أن أحد هؤلاء الرواد في اللسانيات الإدراكية ؛ وأعني به (جورج ليكوف) هو أحد الأعلام الكبار الذين سيقودون التحول المعرفي صوب المقاربة الإدراكية للاستعارة .

ومادمنا قد أشرنا إلى ليكوف فإننا نقف هنا عند تشخيصه لخصائص المشروع المعرفي الذي تنهض به اللسانيات الإدراكية . يرى ليكوف في مقالة له تحت عنوان (فرضية اللامتغيرية : هل العقل المجرد مبني على مخططات الصورة؟)[١] أن «اللسانيات الإدراكية تتسم بالتزامين أساسيين يسريان تحت كل من التوجهات والمقاربات التي يطبقها اللسانيون الإدراكيون ، والفروض والمنهجيات المستعملة في الفرعين الرئيسيين لهذه اللسانيات وهما : الدلاليات الإدراكية ، والمقاربات الإدراكية للنحو» . وهذان الالتزامان هما : التزام التعميم ، والالتزام الإدراكي . ويقصد ليكوف بالالتزام الأول أن غاية اللسانيات الإدراكية هي أن تعالج اللغة ليس على قاعدة التجزيئ الأفقي لأنظمتها كما تفعل اللسانيات الشكلية ، وإنما على أساس المقاربة الكلية الرأسية التي تشمل

---

(١) انظر تفصيل ذلك في القسم الأول (Overview) من :

Evans, Vyvyan; Bergen, Benjamin K. and Zinken (eds.) (2007): The Cognitive Linguistics Reader. Pp. 3-5. Equinox Publishers.

الصوتيات والصرفيات والتركيبيات وفي قمة الهرم الدلاليات . فاللسانيات الإدراكية تركز على الثوابت الإدراكية ؛ أي على ما هو عام بين جوانب اللغة ، وذلك قياساً على طريقة عمل البيولوجيا حيث يعاد استعمال البنى الموجودة من أجل القيام بأغراض جديدة .

أما ما يقصده ليكوف بالالتزام الإدراكي فهو أن اللسانيات الإدراكية ملتزمة بأن تقدم تشخيصاً للمبادئ العامة للغة التي تتطابق مع ما هو معروف عن العقل والذهن في علوم أخرى . فمبادئ البنية اللغوية ينبغي لها أن تعكس ماهو معروف عن الإدراك الإنساني ، ومن ثم فإن النظرية اللسانية لا ينبغي لها أن تحتوي على بنى أو عمليات تخرق الخصائص المعروفة عن نظام الإدراك البشري .

والسؤال الذي ينهض هنا هو : ماهي تلك المبادئ العامة التي تقود اللسانيات الإدراكية في مشروعها لإيجاد نظرية ذات كفاءة في الربط بين البنية اللغوية والبنية الإدراكية؟

يحدد الباحثون[١] هنا أربعة مبادئ هي :

١- أن البنية التصورية تجسيدية (أطروحة [الإدراك المتجسد])

٢- أن البنية الدلالية هي بنية تصورية

٣- أن تمثيل المعنى ذو طابع موسوعي

٤- أن إنشاء المعنى هو عملية تكوين تصوري concepualization

وبطبيعة الحال فإنه يهمنا أن نتوقف عند المبدأ الأول بصفة خاصة ؛ نظراً لارتباطه الوثيق بنظرية الاستعارة في المقاربة الإدراكية . ولكننا سنرجئ ذلك إلى مابعد الحديث عن الدراسة الرائدة في هذه المقاربة ؛ وأعني بها كتاب ليكوف وجونسون (الاستعارات التي نعيش بها) .

---

(١) انظر السابق نفسه p.6 ومابعدها .

ثورة ليكوف وجونسون:

عندما أصدر جورج ليكوف ومارك جونسون كتابهما المشترك (الاستعارات التي نعيش بها)[1] عام ١٩٨٠م كان ذلك بمنزلة إعلان عن تأسيس (نموذج)[2] paradigm معرفي جديد في دراسة الاستعارة[3] . وكشأن أي نموذج علمي

(١) أفضل ترجمة العنوان على هذا النحو بدلاً من (الاستعارات التي نحيا بها) ؛ وذلك أن (العيش) في العربية -كما يقول أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق في اللغة- منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت-ط٤-١٩٨٠) ص٩٦ هو «اسم لما هو سبب الحياة من الأكل والشرب وما بسبيل ذلك» . وهذه الدلالة أوضح في الكشف عن نظرية لاكوف وجونسون من جهة أن الاستعارات نعيش بها في حياتنا اليومية .

(٢) نفكر هنا بمفهوم (النموذج العلمي) كما تبدى في فلسفة توماس كون كما عرضها في كتابه الشهير (بنية الثورات العلمية)الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٢ ، وطبعته الموسعة الثانية عام ١٩٧٠م والذي نقله إلى العربية عن طبعته الثالثة (١٩٩٦) د . حيدر حاج إسماعيل ، وصدر عن : المنظمة العربية للترجمة - توزيع مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت- ٢٠٠٧

(٣) بطبيعة الحال لا يعني ذلك أن هذا النموذج المعرفي الجديد لم تكن ثمة إرهاصات سابقة عليه . ويكفي في هذا السياق أن نشير إلى بحث مايكل ريدي Reddy, M. (1979). "The Conduit Metaphor" in Anthony Ortony (Ed.), Metaphor and thought Cambridge, England: Cambridge University Press . الذي يعده ليكوف نفسه إرهاصاً قوياً للنظرية الإدراكية المعاصرة في الاستعارة . وتجدر الإشارة إلى أن ريدي قد اشتغل في هذا البحث على ما أسماه (استعارة الأنبوب/ الماسورة) في اللغة الإنجليزية حيث جمع مايزيد على ١٤٠ تركيباً يتجسد فيها استعارة تقوم على رؤية الكلمات والجمل بوصفها أوعية (أنابيب أو مواسير) للأفكار ، ورؤية حدث الاتصال بوصفه نقلاً لمحتوى هذه الأوعية من لدن المتكلمين والكتاب إلى السامعين والقراء الذين يقومون بإزالة هذه الأفكار من هذه الأوعية ووضعها في عقولهم . ومن أمثلة تلك التراكيب في الإنجليزية :

putting (packing, loading, cramming) an idea into words; language carries (transfers, gets across, sends, contains, displays, brings, has) meanings; people extract (uncover, see, find, expose) ideas from language; meanings are in (buried in, hidden in, lost in) language; people get meaning out of words; put thoughts on paper.

ومن الشائق أن نلاحظ هنا أن هذه البنية الاستعارية نفسها كانت راسخة في الثقافة العربية ؛ الأمر الذي يجليه مثلاً قول عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) : « إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها»

جديد فقد استهدف مشروع (الاستعارات التي تعيش بها) إحداث تغيير جذري في المنظومة الإبستمولوجية التقليدية التي اعتمدت عليها نظريات الاستعارة في تاريخها المعرفي الطويل[1]. ولكي نقترب أكثر من قسمات هذه الوجه الثوري لهذا المشروع فإننا نسوق رؤية صاحبيه كما كرساها في مفتتح الكتاب:

«الاستعارة بالنسبة لمعظم الناس هي وسيلة للخيال الشعري والزخرف البلاغي؛ أي مسألة تتعلق باللغة الاستثنائية وليس باللغة العادية. وفضلا عن ذلك فقد كانت النظرة النمطية إلى الاستعارة هي أنها خصيصة للغة وحدها؛ أي أنها مسألة كلمات وليست مسألة فكر أو فعل. ولهذا السبب فإن معظم الناس يعتقدون أنهم يمكن أن يتصرفوا بشكل جيد تماماً بدون الاستعارة. وعلى العكس من هذا فقد وجدنا أن الاستعارة طاغية في الحياة اليومية، ليس في اللغة وحدها وإنما في الفكر وفي الفعل. إن نظامنا المفهومي العادي الذي نفكر ونتصرف في حدوده هو في الأساس استعاري في طبيعته»[2].

ويضيف صاحبا المشروع «إن المفاهيم التي تحكم فكرنا ليست مجرد أمور خاصة بالفطنة. إنها أيضاً تتحكم في توظيفنا اليومي نزولاً إلى أكثر التفاصيل الدنيوية. إن مفاهيمنا تبنين ما ندركه، وكيف نتصرف في العالم، وكيف نرتبط بالآخرين. وعلى هذا فنظامنا التصوري استعاري بالقدر الأكبر، ومن ثم فإن الطريقة التي نفكر بها، وما نجربه، وما نفعله كل يوم، هو في الأكثر أمر استعارة»[3].

من الواضح إذن أن هذا المشروع المعرفي يستهدف نقل ظاهرة التعبير

---

(١) حول هذا التاريخ الممتد لنظرية الاستعارة انظر:

Ricoeur, P. (1987) The Rule of Metaphor Routledge.

(2) Lakoff, G. and Johonson, M., (1980): Metaphors We Live By. P.3. Chicago: University of Chicago Press.

(3) Ibid. p. 3

الاستعاري من منطقة درس (الأداء) performance إلى منطقة درس (الكفاءة) competence ؛ أي من النظر إليه على أنه ظاهرة لغوية تتجسد في كونه محض اختيار أسلوبي -في الأدب والبلاغة غالباً- إلى النظر إليه على أنه ظاهرة إدراكية مرتبطة بطرق عمل الذهن البشري في إنشاء أنساقه التصورية conceptual systems وتشفير بناه ونماذجه المعرفية . وسرعان ما كان تأثير ذلك في الفكر اللساني واضحاً يمكن أن نلمسه في قول جون لايونز -مثلاً- «إن القدرة على توسيع معنى الوحدات المعجمية عن طريق عملية تحويل استعارية ، تعدُّ جزءاً لا يتجزأ من الكفاءة اللغوية لدى المتكلمين»[١] .

لم يكن ليكوف وجونسون معنيين أساساً في مشروعهما هذا بتلك المشكلة التي أخذت حيزاً من الجدل والاختلاف ؛ وهي التفريق الذي دعا إليه ريتشاردز بين الاستعارة «بوصفها مبدأ الوجود الشامل للغة» و«الاستعارة الشعرية النوعية» ، أو الذي دعا إليه كونراد بين «الاستعارة اللغوية» و«الاستعارة الجمالية» حيث إن الأولى نحو (رجل الطاولة) و(عنق الزجاجة) . . .إلخ «تبرز السمة الظاهرة في الشيء ، في حين أن الاستعارة الجمالية تدرك بإعطاء انطباع جديد للشيء»[٢] . أقول إنهما لم يكونا معنيين بهذه المشكلة ، وإنما كانت عنايتهما موجهة إلى استقصاء الأسس الإدراكية التي تمكن الإنسان من إنتاج الاستعارة ، والتي بها يستطيع التفكير وممارسة الحياة . الكشف عن هذه الأسس الإدراكية هو الذي يفسر وجود هذين النوعين من الاستعارة معاً .

ولكي نفهم وجه المغايرة بين مايهم المقاربة الإدراكية ، ومايهم غيرها من المقاربات نأخذ هذا النص الشعري المترجم :

[حبيبتي وردة حمراء ، حمراء . .
حبيبتي مثل لحن عذب !
تعزف نغماته عزفاً حلوا !!!]

(1) Lyons, J., (1980): Language, Meaning and Context. P. 193. Fontana Paperbacks.

(٢) انظر : أوستن وارين & رينيه ويليك - سبق ذكره . ص٢٥٣ .

لقد وقف أوستن وارين ورينيه ويليك أمام هذا النص وجاء تعليقهما عليه على النحو التالي «الأساس المشترك بين المرأة الجميلة، والوردة الحمراء الناضرة، واللحن المعزوف عزفاً جيداً، هو جمالها واستهواؤها لنا. فهي كلها أفضل الأشياء من حيث النوع. فليست الوجنتان الورديتان تجعلان المرأة كالوردة، ولا صوتها الحلو يجعلها كاللحن.. إن شبهها بالوردة لا يأتي من اللون أو الأديم أو البنية، بل من القيمة»[1].

وربما يستطيع ناقد آخر أن يقول إن هذا النص يقدم الحبيبة في صورة كلية وتفصيلية تستقطب الحواس الخمس: فهي في كيانها الكلي: (وردة حمراء) تستقطب اللمس والرؤية، و(لحن عذب) يستقطب السمع. وهي من جهة التنوع والتفصيل (نغمات)، ولكنها نغمات لها مذاق (حلو)! وهكذا الحبيبة !! استقطاب لحواس اللمس والرؤية والسمع والذوق !!! فإذا رجعنا لأهم عنصر في (الوردة) وهو (عبيرها وشذاها) فإننا نكون أمام اكتمال تام لاستقطاب جميع الحواس الخمس!

لكن ما يهم ليكوف وجونسون أمر مغاير لهاتين الوقفتين. إنهما ينظران إلى الصورتين:

جسد الحبيبة = الوردة

صوت الحبيبة = اللحن

باعتبارهما مستمدتين من النمطين الإدراكيين:

الجسد = نبات

الصوت الإنسانيّ = صوت الكائنات والآلات الأخرى

ومعنى ذلك أن الشاعر في الصورة الأولى بنى تصور (الجسد) عن طريق تصور (النبات) وهما تصوران كثيراً ما يتبادلان المواقع حيث نرى مثلاً الشاعر ابن نباتة المصري يقول في رثاء فقيد له:

---

(١) أوستن وارين & رينيه ويليك- سبق ذكره. ص٢٦٠.

هلاّ قضى غصنُك الزاهي شبيبته
فما ترعرع حتَّى قيل قدْ ذَبلا

أو نرى الشاعر علي محمود طه يقول :

وأزاهيرُ حانياتٌ على النهر
يُقَبلنَ في الضحى شُطآنه

وحيث نتحدث عن (العود الفارع) ونستعيره لوصف شخص برشاقة الطول ، أو نتحدث عن (فروع العائلة) . . .إلخ .

وفي الصورة الثانية نجد الشاعر بنى تصور (الصوت) عن طريق تصور (الصوت الموسيقيّ) ، وهذا البناء شائع إدراكياً حيث نجد كثيراً من الأمثلة التي تشبه الصوت الإنساني بالأصوات الموسيقية :

* صِيغَ من طَبْع صوتها كلُّ لحن معها من لحون تلك الأغاني (ابن الرومي)

* تجاسرَ عودُ اللَّهوِ يُشبه صوتَها
فمن أجل هذا أصبح العود يضرب

(ابن نباتة المصري)

* خَودٌ شَدَت بِلِسانِها وَبَنانِها
حَتّى تَشابَهَ ضَربُها بنَشيدِها

* فَكَأَنَّ نَغمَةَ عودِها في صَوتِها
وَكَأَنَّ رِقَّةَ صَوتِها في عودِها

(صفي الدين الحلي)

وعلى أية حال فإنه منذ أن بدأ ليكوف وجونسون وضع حجر الأساس لهذا المشروع المعرفي في كتابهما المشترك هذا بدأ ما يمكن أن نسميه (ثورة المنهجية الإدراكية في نظرية الاستعارة) . توالت الدراسات والبحوث والمقالات لاختبار مدى الإضاءات والإضافات التي تحملها تلك الثورة . ومن ذلك بطبيعة الحال بحوث رائدي المشروع . وربما يحسن هنا أن نقف عند بعض المستجدات النظرية التي تضيء لنا وجهاً من وجوه تطور المقاربة الإدراكية . وفي هذا السياق

لقد وقف أوستن وارين ورينيه ويليك أمام هذا النص وجاء تعليقهما عليه على النحو التالي «الأساس المشترك بين المرأة الجميلة ، والوردة الحمراء الناضرة ، واللحن المعزوف عزفاً جيداً ، هو جمالها واستهواؤها لنا . فهي كلها أفضل الأشياء من حيث النوع . فليست الوجنتان الورديتان تجعلان المرأة كالوردة ، ولا صوتها الحلو يجعلها كاللحن . . .إن شبهها بالوردة لا يأتي من اللون أو الأديم أو البنية ، بل من القيمة»[1] .

وربما يستطيع ناقد آخر أن يقول إن هذا النص يقدم الحبيبة في صورة كلية وتفصيلية تستقطب الحواس الخمس : فهي في كيانها الكلي : (وردة حمراء) تستقطب اللمس والرؤية ، و(لحن عذب) يستقطب السمع . وهي من جهة التنوع والتفصيل (نغمات) ، ولكنها نغمات لها مذاق (حلو) ! وهكذا الحبيبة !! استقطاب لحواس اللمس والرؤية والسمع والذوق !!! فإذا رجعنا لأهم عنصر في (الوردة) وهو (عبيرها وشذاها) فإننا نكون أمام اكتمال تام لاستقطاب جميع الحواس الخمس!

لكن ما يهم ليكوف وجونسون أمر مغاير لهاتين الوقفتين . إنهما ينظران إلى الصورتين :

جسد الحبيبة = الوردة

صوت الحبيبة = اللحن

باعتبارهما مستمدتين من النمطين الإدراكيين :

الجسد = نبات

الصوت الإنسانيّ = صوت الكائنات والآلات الأخرى

ومعنى ذلك أن الشاعر في الصورة الأولى بنى تصور (الجسد) عن طريق تصور (النبات) وهما تصوران كثيراً ما يتبادلان المواقع حيث نرى مثلاً الشاعر ابن نباتة المصري يقول في رثاء فقيد له :

---

(١) أوستن وارين & رينيه ويليك- سبق ذكره . ص٢٦٠ .

هلاَّ قضى غصنُك الزاهي شبيبته

فما ترعرع حتَّى قيل قدْ ذَبلا

أو نرى الشاعر علي محمود طه يقول :

وأزاهيرُ حانياتٌ على النهر

يُقَبلنَ في الضحى شُطآنه

وحيث نتحدث عن (العود الفارع) ونستعيره لوصف شخص برشاقة الطول ، أو نتحدث عن (فروع العائلة) . . .إلخ .

وفي الصورة الثانية نجد الشاعر بنى تصور (الصوت) عن طريق تصور (الصوت الموسيقيّ) ، وهذا البناء شائع إدراكياً حيث نجد كثيراً من الأمثلة التي تشبه الصوت الإنساني بالأصوات الموسيقية :

* صِيغَ من طَبْع صوتها كلُّ لحن معها من لحون تلك الأغاني (ابن الرومي)

* تجاسرَ عودُ اللَّهوِ يُشبه صوتَها

فمن أجل هذا أصبح العود يضرب

(ابن نباتة المصري)

* خَودٌ شَدَت بِلِسانِها وَبَنانِها

حَتَّى تَشابَهَ ضَربُها بنَشيدِها

* فَكَأَنَّ نَغمَةَ عودها في صَوتِها

وَكَأَنَّ رِقَّةَ صَوتِها في عودِها

(صفي الدين الحلي)

وعلى أية حال فإنه منذ أن بدأ ليكوف وجونسون وضع حجر الأساس لهذا المشروع المعرفي في كتابهما المشترك هذا بدأ ما يمكن أن نسميه (ثورة المنهجية الإدراكية في نظرية الاستعارة) . توالت الدراسات والبحوث والمقالات لاختبار مدى الإضاءات والإضافات التي تحملها تلك الثورة . ومن ذلك بطبيعة الحال بحوث رائدي المشروع . وربما يحسن هنا أن نقف عند بعض المستجدات النظرية التي تضيء لنا وجهاً من وجوه تطور المقاربة الإدراكية . وفي هذا السياق

سنكتفي بالوقوف عند إسهام جونسون ونظريته في جسدية المعنى والتفكير ، ثم عند بحث أحدث لجورج ليكوف يعود إلى عام ١٩٩٢م .

جونسون وجسدية المعنى والتخييل:

ذكرت من قبل أن الباحثين يحددون أربعة مبادئ تقود اللسانيات الإدراكية في مشروعها لإيجاد نظرية ذات كفاءة في الربط بين البنية اللغوية والبنية الإدراكية . وكان أول هذه المبادئ :

* أن البنية التصورية تجسيدية (أطروحة [الإدراك المتجسد])

وهذا المبدأ يقوم على منظور يرى أن طبيعة تصوراتنا الإنسانية هي نتاج طبيعتنا الجسدية بما فيها تكويننا التشريحي / العصبوني . ولعل نظرة إلى كتاب جونسون الذي صدر عام ١٩٨٧م The Body in the Mind: The Bodily Basis of Meaning, Imagination, and Reason ترينا إشارات واضحة للمقصود من هذا المبدأ . فهذا الكتاب[1] يفحص كما هو واضح من عنوانه الفرعي «الأسس الجسدية للمعنى والخيال والتفكير» ؛ أي أنه يفحص طرق المعنى والفهم والعمل العقلي التي تنبع من أنماط تجاربنا الجسدية ، والتي هي محكومة بهذه الأنماط . ويبدو أن جونسون في هذا الكتاب يستثمر ويطور إحدى مقولات ريتشاردز الذي كان يرى «أن ما يعطي الصورة فاعليتها ليس حيويتها كصورة بقدر ميزتها كحادثة ذهنية ترتبط نوعياً بالإحساس»[2] ، وأن «فاعلية الصورة» تأتي «من كونها بقية ، وتمثيلاً للإحساس»[3] .

---

(١) اعتمدت في هذه الفقرات بشكل أساسي على ذلك العرض الموسع الذي قدمه Bobby Matherne 2001 لكتاب مارك جونسون . انظر هذا العرض على الموقع التالي :

http://www.doyletics.com/arj/tbitmrvw.htm

(٢) انظر : أوستن وارين لله رينيه ويليك -ترجمة محي الدين صبحي : نظرية الأدب (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب- ١٩٧٢م) ص٢٤١ .

(٣) السابق . الموضع نفسه .

وعلى سبيل المثال : لماذا نتصور ذلك التصور النمطي (الأعلى أفضل من الأسفل) وهو التصور الذي ولّد مئات الصور الاستعارية مثل : (يعلو قدْره) ، (يعلو الحق) ، و(الحكمة سلم العلو) ، و(الهمة العالية) . . . .إلخ؟ هذا التصور - فيما تذهب إليه نظرية التجسيد- نابع من تجربتنا الجسدية حين كنا صغاراً ننظر إلى من هم أطول منا . ولأن هؤلاء الأطول هم بالتأكيد أقدر منا على فعل ما لا نستطيع فعله فقد ترسخت في تصورنا علاقة بين (العلوّ) و(القدرة) . ولأن (القدرة) ميزة فقد دخل (الطول) في منظومة (القيمة) . وشخصياً مازلتُ أذكر هذا البيت الذي كان يردده أخي الأكبر رحمه الله وقد كان يتباهى بأنه أطول مني :

الطول عـزٌّ ولو قـد كـان من خـشبِ
والقـصـر ذلٌّ ولو قـد كـان من ذهبِ

وقديماً عابت إحداهنّ شاعراً بـ(القصر) فقال :

إليكِ ابنةَ الأَغْيـارِ ، خـافي بَسـالةَ الـ
رِّجـالِ ، وأَصْـلالُ الرِّجـالِ أَقـاصِـرُهْ
ولا تَذْهَبَـــنْ عَـيْناكِ في كلِّ شَـرْمَح
طُوالٍ ، فـإِنَّ الأَقْـصَـرِيْنَ أَمـازِرُهْ

يقول لها : لا تعيبيني بالقِصَرِ فإن أَصْلالَ الرجال ودُهاتَهم أَقاصِرُهم»[1]

وبالتالي أصبح (العلوّ) أيضا حكم قيمة فأسنِد إلى المجردات القيمية كالحق والحكمة والشرف . . .إلخ . وشاعت الكنايات : البيت الذي دعائمه أعز وأطول ، والبيت العالي ، والباب العالي . . .إلخ . وكلما صرنا (أطول) ؛ أي كلما نمت أجسادنا رأسياً ، وصرنا (نقدر) أن نفعل ما لم نكن نستطيع ، تعززت في مخيلتنا الإدراكية قيمة (العلوّ) ، وتعززت أيضا قدرتنا التخيلية على إسناد هذه القيمة إلى ما نرى ، أو نشعر ، أنه (أقويّ أوأكثر تأثيراً) ! ومن هذا الأساس

(١) ابن منظور : لسان العرب (قصر) .

الإدراكي نمت استعارات (الطيران) للتعبير عن بعض الحالات والمشاعر الإيجابية. فعندما يروي الجاحظ مثلا «قال الأصمعيّ: سمعتُ أعرابيّاً يقول: مَن ولّد الخيرَ نُتِجَ له فِراخاً تطيرُ بالسرور، ومَن ولّد الشرَّ أنبت له نباتاً مُرّاً مذاقُه، قُضبانُه الغَيظ، وثمرهُ النَّدَم» فإننا نجد ربطاً واضحاً بين: (الخير والسرور) و(الطيران)؛ في حين أن هناك في المقابل ربطاً بين (الشر والمرارة والغيظ والندم) و(عالم الأرض). وعلى ضوء ذلك كله يمكننا أن نفهم: لماذا نستخدم -مثلاً- الفعل (قام) في تعبيرات مثل: قام بتأليف كتابه سنة كذا، أو: قام بإدارة الشركة من خلال هاتفه المنزلي، أو كما يشيع في العامية المصرية: قمت عملت كذا.. إلخ وكل هذه الأفعال لا تقتضي بالضرورة أن تؤدى في حالة (القيام) الفعلي الذي هو «نقيض الجلوس»؟ كذلك يمكننا على ضوء هذه الصورة القارّة في الإدراك التي تربط بين (الأعلى) والقيمة في الصفة أو الإنجاز أن نلمّ هذه الأمثلة المتعددة التي يوردها الزمخشري في (استعارات) الفعل (قام): «بكم قام عليك هذا المتاع، ... وإذا أهلك البرد بعض النبات أو الشجر قيل: منه هامدٌ ومنه قائم. وقام قائم الظّهيرة، وقام ميزان النهار. قال:

وذاب للشمس لعابٌ فنزل

وقام ميزان النهار فاعتدل

وما قام له ولا يقوم له إذا لم يطقه، وقام بي ظهري ويداي وعيناي وعروقي وكذلك كلّ شيء من بدنك إذا أوجعك... وقام الأمير على الرعية: وليها...»[1]. ففي كل هذه الأمثلة يرتبط (القيام) بقيمة (القدرة والتأثير).

هذه القدرة التخيلية هي التي يمتدحها جونسون، وينتقد من خلال هذا الامتداح النظريات التي هيمنت على الفكر الغربي وقامت على الفصل بين العقل والجسد، وبين التفكير والعواطف. يقول جونسون «بدون الخيال لا شيء في العالم له معنى. بدون الخيال لا يمكننا أبداً أن ندرك معنى لتجربتنا. بدون

(١) الزمخشري: أساس البلاغة (قوم).

الخيال لا يمكننا أبداً تعقل معرفتنا بالواقع . . . إنها لحقيقة صادمة أن لا تكون أي نظرية من نظريات المعنى والتعقل السائدة اليوم قد قدمت أي معالجة جادة للخيال» . وعلى ضوء نقده لتلك النظريات يصل جونسون إلى القول «إن أي تفسير دقيق للمعنى وللتعقل يجب أن يعطي مكانة مركزية لبنى الفهم التجسيدية والتخيلية التي نفهم بها العالم؟ . غير أن ما يلزم التنبه له هنا أن لمفهوم الخيال عند جونسون تحديداً خاصاً . فالخيال عنده ليس «مجرد ملكة جامحة ، لا تحكمها قاعدة في التوهم والخلق الإبداعي» . إنه ليس الخيال بالمعنى الرومانسي . إنه خصيصة قارّة في طريقة التفكير البشري بها يتم الربط والقياس بين التجارب . ومن الواضح أننا إزاء تطوير إبستمولوجي لتلك الصيغة التي كثيراً ما رددها رواد «النقد الجديد» وهي صيغة «التفكير المجازي» ، أو «التفكير بواسطة المجازات»[1] . ولكن الحقيقة الأعمق من ذلك هي أننا أمام نظرة جديدة لما نسميه بعمل الذهن . ولعل إطلالة على ماتسميه العلوم الإدراكية (الآليات الأساسية) لعمل الذهن توضح ذلك . فهذه الآليات تشمل ما يلي[2] :

١- استقبال المعطيات الحسية

٢- تحويل هذه المعطيات إلى (تصورات) وتخزينها

٣- تجميع تصورات عديدة ومترابطة في تصور جديد أعلى مستوىً

٤- إيجاد تصورات مجردة من الأمثلة المحسوسة

٥- تعلم قواعد الاستجابة الملموسة من التجربة وتخزينها

٦- إيجاد وتخزين قواعد الاستجابة المعممة من أنماط مختلفة

٧- تمثيل الموقف الحاضر باستخدام التصورات التي تحيل إلى الإحساسات

٨- اختيار قاعدة الاستجابة الملائمة بتأثير الغرض الرئيسي

٩- أداء الاستجابة طبقاً لقاعدة الاستجابة المختارة

---

(١) السابق نفسه . ص٢٤٩ .

(٢) انظر Walter Fritz على : http://www.intelligent-systems.com.ar

ومن الواضح أن وصول البحث الإدراكي إلى تحديد هذه الأليات يعطي دعماً قوياً لنظرية جونسون في جسدية التفكير.

في سياق نظرية التجسيد تلك يضع جونسون مصطلح (مخططات الصور)[1] image schemata ويعرفه على النحو التالي: «إننا لكي نحصل على تجارب مترابطة ذات معنى نفهمها ونتعقلها لا بد أن يكون هناك قالب ونظام لأفعالنا، وإدراكاتنا، وتصوراتنا. فالمخطط هو قالب متكرر، وشكل متكرر، وانتظام متكرر، في هذه، أو من هذه، الفاعليات الجارية. هذه القوالب تنبثق كبنى ذات معنى لنا في مستوى حركاتنا الجسدية عبر المكان، وفي مستوى تعاملنا مع الأشياء، وفي مستوى تفاعلاتنا الإدراكية». ويرى جونسون أن هذه المخططات ذات طبيعية تخيلية، وهو يمثل لها بعدد من الأمثلة منها مثلاً: مخطط (النظرية = بنيان) الذي تجسده استعارات مثل: (بنى/ شيّد نظريته على أساس ...)، (قوض حجته وهدم أدلته) ... إلخ.

ليكوف ومزيد من التقويض والبناء:

العمل الثاني الذي يهمنا أن نتوقف عنده هو ذلك البحث المعنون «النظرية المعاصرة للاستعارة» الذي أصدره جورج ليكوف عام ١٩٩٢م؛ أي في بداية العقد التالي لظهور كتابه الرائد المشترك مع جونسون.

في هذه الدراسة يواصل ليكوف تقويض الأساس الإبستمولوجي الذي قامت عليه النظرية الكلاسيكية في الاستعارة. ويتمثل هذا التقويض فيما يلي:

أولاً: إن هذه النظرية الكلاسيكية لا تستطيع أن تجيب عن سؤال جوهري هو: ما التعميمات التي تحكم التعبيرات اللغوية التي وُصِفت بأنها

(١) في تاريخ العلوم الإدراكية يعود مصطلح schema إلى جان بياجيه الذي كان يرى أنه خلال نمو الطفل تنشأ مخططات جديدة، وأحياناً تندمج مخططات فيما بينها لتشكل بنى إدراكية.

(استعارات شعرية)؟ . ويكتسب سؤال (التعميمات) هذا أهميته من حقيقة موضوعية هي وجود -بل شيوع- ظاهرة التعبير الاستعاري في اللغة العادية اليومية . ومن ثم فإن ليكوف يقول إن إرجاعنا ظاهرة الاستعارة إلى أساس إدراكي في عمل العقل البشري -وليس في الكلمات أو في النظام النحوي للغة- هو الذي يمكنه أن يعطي التعميم المطلوب على أساس أن نظامنا المتصوري هو الذي (يولّد) الاستعارة في الشعر وفي اللغة العادية معاً . بل إن هذا الأساس يكشف لنا أن الاستعارات الشعرية ليست إلا امتداداً لحقيقة بالغة الأهمية وهي أن «الاستعارة (بمعنى تشكيل الانتقال الحقلي في النظام التصوري cross-domain mapping in conceptual system) هي بشكل مطلق أمر مركزي بالنسبة لدلاليات اللغة العادية الطبيعية» .

ثانياً : إن هذه النظرية نفسها تعتمد على المرتكزات التالية :

١- كل اللغة اليومية المتداولة حرفية ، وليست استعارية

٢- كل موضوع يمكن فهمه حرفيا بدون استعارة

٣- اللغة الحرفية فقط هي التي يمكن أن يحكم عليها بأنها صادقة أو زائفة

٤- كل التعريفات المعطاة في معجم اللغة حرفية وليست استعارية

٥- المفاهيم المستخدمة في قواعد اللغة كلها حرفية ، وليست استعارية

وهذه المرتكزات جميعاً هي مزاعم زائفة ؛ وذلك لسبب أساسي هو أنها جميعاً قائمة على تلك الثنائية التمييزية بين (الحرفيّ) و(المجازي) ، أو لنقل -وفق الاصطلاح البلاغي العربي : بين الحقيقة والمجاز . ففي هذه الثنائية يصبح (الوصول إلى) تفسير الاستعارة في جملة معينة هو أن المرء (يبدأ) بالمعنى الحرفي ، ثم يقوم بتطبيق عملية خوارزمية

(الوغارمية)[1] معينة عليه . وعلى الرغم من أن هناك -كما يقول ليكوف- بعض الحالات يحدث فيها شيء مشابه لذلك ، فإن الاستعارة بصفة عامة لا تعمل بهذه الطريقة .

ثالثاً : إن الاستدلال الذي تقوم عليه النظرية المعاصرة في الاستعارة ؛ أي الاستدلال على وجود نظام للاستعارات المفهومية له خمسة أنماط يستمد منها قوته ورسوخه

- الاستدلال بالتعميمات التي تحكم التعدد الدلالي ؛ أي استخدام الكلمات التي لكل منها عدة معان مترابطة .
- الاستدلال بالتعميمات التي تحكم أنماط الاستدلال ؛ أي الحالات التي يستعمل فيها نمط من الاستدلال بمجال تصوري على مجال تصوري آخر .
- الاستدلال بالتعميمات التي تحكم اللغة الاستعارية الجديدة .
- الاستدلال بالتعميمات التي تحكم أنماط التغير الدلالي .
- الاستدلال بتجارب في اللسانيات النفسية .

ولا شك أن كل نمط من هذه الأنماط قد شهد دراسات وبحوثاً مستفيضة ، الأمر الذي لا يتسع سياقنا الحالي للتوقف عنده بالاستقصاء والتحليل .

تصنيف أنماط الاستعارات الإدراكية:

قدم ليكوف وجونسون في كتاب (الاستعارات التي نعيش بها) عدة أنماط من الاستعارات الإدراكية ، كما أنهما ساقا مئات من الأمثلة الدالة على هذه الأنماط . ومن بين هذه الوفرة التي مثّل بها المؤلفان نختار للتوضيح ثلاثة أنماط فقط ، مع إيراد أمثلة ونماذج لها من الاستعمالات العربية :

---

(١) يبدو أن ليكوف يعرّض هنا بتلك المحاولات التي استهدفت (شكلنة) الاستعارة ، وذلك مثل محاولة م . يبرجمان التي يتحدث عنها إمبرتو إيكو في : السيميائية وفلسفة اللغة . سلق ذكره . ص٢٧٧-٢٧٨ .

١- الأفكار = بشر : وذلك كما في التعبيرات التالية :

* «إذا ازدحمت الوساوس على القلوب ، واعتلجت بنات الصدور ، فارتبكت الآراء . . .» . [المرزوقي في : شرح ديوان الحماسة]
* وَبِتَ أَباً وَمَا خِلْنَاكَ تَرْضَى بِغَيرِ وَلاَئِدِ الأَفْكَارِ وُلْدَا [خليل مطران]
* (تموت/ تحيا الأفكار) [تشيع هذه الاستعارات في عناوين كثيرة في محرك البحث google]
* «بدأت حقيقة زوجها تطاردها» [رواية (شيكاغو) لعلاء الأسواني] .

٢- الأفكار = نباتات : وذلك كما في التعبيرات التالية :

* أثمرت الفكرة
* الأفكار المغروسة في العقل
* حدائق الأفكار
* الخيال الورديّ

٣- البرهنة = حرب : وذلك كما في التعبيرات التالية :

* انتصرت فكرته في النهاية
* المعارك الفكرية
* شن هجوماً ضارياً على استدلالات منتقديه

علينا أن نلاحظ هنا أن مصطلح (استعارة) metaphor ينتقل من معناه البلاغي الضيق إلى معناه الإدراكي ، بل أصبح المصطلح المكرَّس للاستخدام بدلاً منه إما مصطلح «المخطط الاستعاري» metaphoric model أو مصطلح «الاستعارة التصورية» conceptual metaphor وتعريف كلٍ منهما يشير إلى طريقة بناء معرفة أحد المجالات من خلال تصويره بمفاهيم وعلاقات مستمدة من مجال موجود ومعروف من قبل : مثلاً : بناء مفهوم]الحب [عن طريق تصويره بمفهوم]النار) :[اشتعال/انطفاء الحب) ، وبناء مفهوم]التفكير [عن طريق تصويره بمفهوم]الحركة) :[سمو/هبوط / جريان الفكر) . . .[لخ .

ولقد أُطلِق على المجال الأول تسمية (المجال/الهدف the target) ، وعلى المجال

الثاني تسمية (المجال/ المصدر the source) . على أنه من المهم أن نشير هنا إلى أن بعض البنى الاستعارية لا تقوم على تنظيم تصور واحد عن طريق تصور آخر . فمثلاً الاستعارات الاتجاهية orientational metaphors - كما يرى ليكوف وجونسون- تقوم بتنظيم أنساق كاملة من التصورات . والعلة في ذلك أن هذه البنية الاستعارية ترتبط بحقيقة أن استعاراتها تتصل بالتوجه المكاني في معظم الحالات ، بما في ذلك مخططات صور مثل : مركزي- هامشي ، وداخل- خارج ، وأمام- خلف ، وفوق- أسفل . . .إلخ[٢] . وفي سياق هذه البنية الاستعارية يرى ليكوف وجونسون أنها تمثل ظاهرة طبيعية في اللغات الإنسانية بسبب التوجه الفيزيائي والثقافي للبشر ؛ ومن ثم فهذه التوجهات الاستعارية ليست اعتباطية . وهنا يقف المؤلفان أمام عدة أنماط استعارية تعتمد جميعها على إدراك المكان ؛ وذلك مثل :

- [السعيد فوق] و[الحزين تحت] :

ويتجلى ذلك في استعارات مثل :

- طار الرجل فرحاً
- معنوياته عالية
- شعور محلق . . .إلخ

وفي الشعر نجد :

- وسكنت قلباً طار فيك مسرةً
أرأيت وكراً قطّ أصبح طائرا

(ابن نباتة المصري)

وفي المقابل مثل :

غاص في الحزن ،

هبط في بئر الأحزان

---

(١) انظر : Lakoff & Johnson. op cit. p.14

وفي الشعر نجد :

- وتربة يتلقّى الحـــزنُ زائرها
كأنّها تنبت التبريح والوَجلاَ

(ابن نباتة المصري)

- وفي رواية (شيكاغو) لعلاء الأسواني نجد «هاهي الأحلام تهوي من حالق فترتطم بصخور الواقع وتتناثر كشظايا الزجاج» .

- [الوعي فوق] و[اللاوعي تحت] :

ويتجلى ذلك في الاستعارات التالية :

* ذروة التركيز
* قمة الوعي
* الانتباه العالي
* وفي المقابل مثل :
* سقط فاقداً الوعي
* أعماق اللاوعي

- [الأكثر فوق] [والأقل تحت] :

ويتجلى ذلك في الاستعارات التالية :

* ارتفع رصيده في البنك
* وصلت الأسعار إلى أعلى مستوى

- وفي المقابل مثل :

* هبوط السعر
* انخفض عدد الزائرين

- [الحسن فوق] و[السيء أسفل] :

ويتجلى ذلك في الاستعارات التالية :

* الهمة العالية
* الدرجة الرفيعة

* القيم العليا

وفي الشعر نجد :

- يا غـــزالاً رنا وغـــصناً تثنى
وهلالاً ســمــا وبدراً أنـارا

- (ابن نباتة المصري)

- سَما للمَعالي بِالعَوالي وَقَد رَقى
مَكاناً عَلِيا كاسمه وَتَرَفعا

(الساعاتي)

- وفي المقابل مثل :

* انحطت الأخلاق

* وحَلَّ العار

وقد يظن أن هذه مجرد مسألة اصطلاحية ، ولكنها في الحقيقة مسألة تتعلق بدراسة طبيعة التفكير الإنساني ، وطبيعة عمل الذهن البشري في تشييد معرفته بالعالم وبعلاقاته بهذا العالم . وفي سياق هذه الأمثلة التي أوردناها علينا أن نلاحظ أمراً مهماً ؛ وهو أن هذه الأنماط ذات طبيعة دينامية ، وليست معادلات رياضية ثابتة . فنحن نستطيع أن نجد أن (المجال المصدر) يمكنه بناء صور استعارية لأكثر من (مجال هدف) . وعلى سبيل المثال فإن (مجال الحرب) الذي مرّ بنا بوصفه المجال المصدر لبناء مفهوم (البرهنة) نجده أيضاً المجال المصدر لبناء مفهوم (التجارة) في النمط [التجارة حرب] الذي يولّد استعارات مثل :

* غزت تجارة المخدرات عدداً من البلدان

* بين الشركات المتنافسة حرب ضروس

* انتصرت السلعة الجديدة على كل السلع المنافسة

وهذا المجال المصدر نفسه نجده يبني مفهوم (الحياة) كما في قول المعري :

وَالعَيشُ حَربٌ لَم يَضَع أَوزارَها
إِلا الحِمامُ وَكُلُّنا أَوزارُ

أو يبني مفهوم (السيل) كما في قول أبي تمام :

لا تُنكِري عَطَلَ الكَريمِ مِنَ الغِنى
فَالسَيلُ حَربٌ لِلمَكانِ العالي

إن الانطلاق من فكرة (المخطط الاستعاري) أوصل أحد الباحثين - مارفن مينسكي - إلى القول بأنه «ليس ثمة شيئان أو حالتان ذهنيتان متماثلتان دائما ؛ ولذا فإن كل عملية سيكولوجية يجب أن تستعمل وسيلة أو أخرى لتستحث في الذهن وهْمَ التماثل . ومن ثم فإن كل فكرة هي -إلى درجة ما- استعارة»[1] .

في هذا الإطار الإبستمولوجي يظهر التأسيس على مبدأ أن الفكر له السيادة على اللغة وعلى السلوك . أو بعبارة ليكوف وجونسون في كتابهما الأحدث «إن نظامنا التصوري اللاواعي يعمل كما لو كان (اليد الخفية) التي تشكل كيفية تكوين مفاهيمنا عن كل جوانب تجربتنا»[2] ومن ثم فإننا نكون أمام مشروع معرفي يندرج ضمن ردة الفعل التي شهدتها إبستمولوجيا العلم ضد مقاربات الفلسفة الوضعية لدلاليات اللغة الطبيعية ؛ حيث إن هذه الفلسفة افترضت وجود واقع موضوعي متاح بشكل واضح ، ومن ثم انطلقت من تصور مؤداه أن التمثيل الأمين للأشياء القائمة في هذا الواقع هو حجر الأساس للمعنى . وبتصدي كثير من الاتجاهات المعرفية لهذه المقولة تبين أن الواقع يبدو بالغ الطرافة والغنى والتعقيد لدرجة أننا لا نستطيع تمثيله بصورة تامة وتفصيلية بوسائل بسيطة[3] . ولذلك فإن أنساقنا الذهنية تضفي حدوداً على موضوعات

---

(1) Minsky, M. (1987). Society of Mind.(New York, Simon & Schuster) p.299

(2) Lakoff, G., & Johnson, M., (1999): Philosophy in the Flesh: The Embodied Mind and its Challenge to Western Thought. p. 13. New York: Basic Books.

(3) لقد أكدت الفيزياء الحديثة ، وبخاصة فيزياء الكوانتم quantum phisics ذلك بشكل قاطع ومتواتر ؛ فالإليكترونات يمكنها أن توجد في أكثر من موقع في وقت واحد ، وهي فيزيائيا حاضرة وغائبة !!

العالم في حين أن هذه الموضوعات نفسها ليس لها هذه الحدود .

وعلى هذا فإن تشكيلنا التصوري للواقع إنما هو إنشاء ذهني a construct قائم على أربعة أنواع من المزاعم ، أو الاستراتيجيات التخطيطية عن العالم هي كما يصوغها سيدني لامب[1] :

١- وجود الحدود

٢- وجود ثبات في الأشياء

٣- وجود تمييز أساسي بين الأشياء والعمليات والعلاقات

٤- وجود تصنيفات للأشياء وللعمليات وللعلاقات

ولأن هذه الاستراتيجيات الذهنية مفروضة على الواقع فإنها تفضي إلى أن عمليات المعنى الأساسية إنما هي عمليات استعارية أكثر من كونها عمليات تمثيلية . ومن ثم بدت الاستعارة أحد المفاتيح المهمة في تفنيد النظريات الوضعية ، من جهة ، وفي بناء الإبستمولوجيا الإدراكية من جهة أخرى

الاستعارة والنسبية الإدراكية:

لقد كان الأخذ بمبدأ (إزاحة وهم التماثل) بمنزلة الحل الإبستمولوجي الذي أخرج المقاربة الإدراكية للاستعارة من مأزق الصدام مع أثر الاختلافات الثقافية في تنوع طرق التعبير الاستعاري وتغايرها من ثقافة إلى أخرى . وهنا لا بد أن نشير إلى نظرية اللساني الإدراكي سيدني لامب S. Lamb التي عرضها في بحثه Neuro-Cognitive Structure in the Interplay of Language and Thought والتي استثمر فيها فكرة (وهم التماثل) التي أشار إليها مينسكي في المقتبس الذي سقناه من قبل . وفي هذا البحث يتحدث لامب باستفاضة عما أسماه (الأوهام الدلالية semantic mirages) وعما أسماه مغالطة (وحدة معجمية

---

(1) Lamb, S., "Neuro-Cognitive Structure in the Interplay of Language and Thought" in: Putz, Martin & Verpoor, Marjolijn (eds.) (2000): Explorations in Linguistic Relativity. pp. 173-196. (University of Koblenz- Landau/ University of Groningn).

واحدة لكل شيء واحد (one-lexeme-one-thing fallacy) ، ومن ثم يقدم لامب دعماً قويا لفرضية النسبية اللغوية ، ومن ثم النسبية الثقافية ، التي أرساها في الفكر اللساني الحديث بنيامين وورف[1] . ولاشك أن هذا الدعم ألقى بتأثيرات مهمة على النظرية الإدراكية في الاستعارة ، وبخاصة فيما يتعلق بأثر النسبية الثقافية في تشكيل المخططات الاستعارية .

ينطلق لامب من القول بأن «أنظمتنا الذهنية ، سواء فيما يتعلق بالمكان أو الزمن ، أو بأبعاد تصورية أكثر تجريداً ، تضفي حدوداً على العالم ، في حين أن هذا العالم نفسه ليس له هذه الحدود» . ويتساءل : لماذا تفعل أنظمتنا الذهنية ذلك؟ ويجيب «لأنها لو لم تفعل ذلك فلن يمكن لأحدنا أن يتحدث مع الآخر عن العالم ، أو أن نفكر عن أشياء هذا العالم . فبما أن كل شيء يرتبط -بطرق مختلفة- بأشياء أخرى ، ومن ثم في النهاية فالشيء الواحد يرتبط بكل شيء ، فإننا لن نستطيع أن نتحدث أو أن نفكر عن كل العالم دفعة واحدة . ولذلك فإننا مضطرون إلى تقطيع هذا التيار المشكاليّ ، وتجزيئه عن طريق وضع حدود فاصلة . وحيث إن هذه الحدود هي من وضع عقولنا ، ولا وجود لها في الواقع ، فإننا يمكن أن ننظر إليها على أنها وهمية» . وعلى هذه المقدمة يبني لامب النتيجة التالية «كل وضع بنية في نماذجنا الذهنية يتم على حساب تجاهل بعض خصائص الظاهرة المنمذجة» . ومن ثم ينتقل إلى السؤال الجوهري الذي يهمنا في سياقنا الحالي : «هل هناك أي سبب لكي نتوقع أن كل البشر-بصرف النظر عن اختلاف ثقافاتهم ولغاتهم- يشتركون في هذا النظام الوهمي نفسه؟» . وفي إجابة هذا السؤال فإن لامب يستدعي فرضية وورف القائلة بأن كل جماعة بشرية ذات خلفية لغوية وثقافية تملك نموذجاً ذهنيا مختلفاً عن الجماعات الأخرى . وما يدعم هذه الفرضية -في استدلال لامب- هو حقيقة أن أي نموذج

---

(١) للمزيد من التفصيل حول فرضية وورف انظر : د . محي الدين محسب : اللغة و الفكر و العالم : دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق . (مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت- ١٩٩٨) .

ذهني هو بالضرورة نموذج تبسيطيّ -ومن ثم مشوّه- لهذا الذي يحاول تمثيله . ومن ثم فمن السهل أن نقدّر أن أنساقاً تنتمي إلى ثقافات مختلفة لا بد أن تكون أنساقاً مختلفة ؛ لأنها -ببساطة- أنساق غير مكتملة بطرق مختلفة .

ولكن لامب لا يكتفي بتقرير اختلاف الأنساق الثقافية ، وإنما يصل إلى القول بأنه حتى أولئك الذين ينتمون إلى ثقافة واحدة يختلفون ، بل إن الشخص الواحد نفسه يختلف تفكيره من وقت إلى آخر . وتعليل ذلك ببساطة أن كل شخص يرد له أثناء حياته (دخول) inputs حسية مختلفة عما يرد لأي شخص آخر بسبب اختلاف التجارب . فما تحفزه تجربة معينة من (عُقَد) nodes الشبكة العصيونية ، وبالتالي من بؤر التصورات الأعلى والأدنى ، في مخ شخص لا يتطابق مع ما تحفزه لدى شخص آخر . ومن ثم فإن لدى كل منا معرفة بالعالم مختلفة باختلاف التصورات التي نمثّل بها البيئة المحيطة في العالم القائم خارجنا .

على أن ما يهمنا هنا هو أن نتساءل : هل يمكن -بناء على نظرية النسبية الثقافية التي نجدها تتطور على يد لامب إلى (نسبية إدراكية)- أن نزعم بأن الثقافات المختلفة تملك مخططات استعارية إدراكية مختلفة؟

والحقيقة أن أوضح حقل يمكن أن يعطينا إجابة عن هذا السؤال هو حقل الترجمة بين اللغات المختلفة . وفي هذا السياق تصادفنا دراسة مهمة للباحث علي الحسناوي ، وجاءت تحت عنوان «مقاربة إدراكية لترجمة الاستعارات»[1] . وفي هذه الدراسة يستثمر الباحث «فرضية الترجمة الإدراكية» cognitive translation hypothesis التي اقترحها ماندلبليت Mandelblit في دراسته التي وضعها عام ١٩٥٥م بعنوان «وجهة النظر الإدراكية في الاستعارة وتضميناتها بالنسبة لنظرية الترجمة» . ويتجلى هذا الاستثمار المعرفي في توجيه فرضية

---

(1) Ali R. Al-Hasnawi: A Cognitive Approach to Translating Metaphors. On: http:// accurapid.com/journal/41metaphor.htm

مانلبليت لكي تكون أساساً للمقارنة بين البنى التصورية الإدراكية الكامنة تحت الاستعارة في اللغتين الإنجليزية والعربية . وتقوم فرضية مانلبليت على اقتراح مخططين لوضعية التخطيط الإدراكي : وضعية التخطيط المتماثل ، ووضعية التخطيط المختلف . ومؤدى هاتين الوضعيتين أن وجود تماثل في التخطيط الإدراكي بين اللغة المصدر واللغة الهدف يجعل الترجمة أسهل وأكد ، والعكس صحيح في وضعية التخطيط الإدراكي المختلف . وهو يرى أن الاختلاف في زمن رد فعل]المترجم ، أو المتلقي في اللغة الهدف[يعود إلى تحول تصوري يلزم القيام به بين نسقي التخطيط التصوري في اللغة المصدر واللغة الهدف : فكلما كان التعبير الاستعاري يستغل مجالا إدراكياً مختلفاً عن المجال الذي يستغله التعبير الاستعاري المقابل في اللغة الهدف فإن ذلك يؤدى إلى أن ترجمة هذا التعبير تأخذ وقتاً أكثر ، ويكون أصعب في ترجمته . ويعلل مانلبليت ذلك التأخير وعدم التيقن في ترجمة المجالات الاستعارية بأن المترجم [أو المتلقي] يقوم في هذه الحالة بعملية بحث عن تخطيط تصوري آخر (أي عن مجال إدراكي آخر) .

وهنا لا بد من التنبه إلى أنه على الرغم من أن الحسناوي لم يلتفت إلى الانتقادات التي لاقتها فرضية ماندلبليت تلك ، وبخاصة تلك الانتقادات المبنية على عدد متنوع من التجارب في اللسانيات النفسية واللسانيات الإدراكية[١] ، إلا أنه ؛ أي الحسناوي ، مضى إلى تطويع الفرضية لغير أغراضها

---

(١) انظر في ذلك الدراسة المهمة التالية :

Giora, Rachel (1997): Understanding Figurative and Literal Language: The Graded Salience Hypothesis"in: Cognitive Linguistics, 7/1, 183- 206

ومن مطلعها تشير راشيل جيورا إلى أن «البحث المعاصر في اللغة التخيلية يرى أن فهم الاستعارة يتطابق في جوهره وفهم اللغة الحرفية» وفي ذلك تحيل إلى الأسماء التالية :

(Gibbs 1982, 1984; Gibbs & Gerrig, 1989; Glucksberg, 1989; Glucksberg & Keysar, 1990; Hoffman & Kemper, 1987; Keysar, 1989, 1994; Keysar & Glucksberg, 1992; Ortony, Schallert, Reynolds & Antos, 1978; Sperber & Wilson, 1986).

ليقسم مقارناته للتعبيرات الاستعارية بين اللغتين إلى ثلاث فئات :

(أ) استعارات تنتمي إلى وضعية التماثل في التخطيط الإدراكي ، وهي تعكس أفكاراً مشتركة تعبر عنها استعارات متطابقة في اللغتين

(ب) استعارات تتجسد في اللغة الهدف بوحدات معجمية مختلفة

(ت) استعارات تنتمي إلى تخطيطات إدراكية مختلفة ، وليس لها مقابلات في اللغة الهدف

وهنا يمكن القول بأن وضعية الفئة الثانية في تقسيم الحسناوي وضعية قلقة ؛ حيث إننا لا نعرف ما إذا كان يضعها ضمن مخطط التماثل الإدراكي ، ومن ثم فاختلافها مجرد اختلاف لفظي ، أم أنها تنتمي إلى المخطط الإدراكي المختلف باعتبار أن الاختلاف التعبيري يعكس اختلافاً تصورياً .

وعلى أية حال فمن الواضح أن معالجة الحسناوي للفئات الثلاث قامت على النظر إلى مدى وجود مقابل تعبيري لغوي في اللغة الهدف من عدمه . ومن ثم فقد افتقدت مقارناته بذل الجهد في البحث عن التماثل أو الاختلاف في البنية التصورية ؛ أو لنقل : النمط الإدراكي المولِّد ، للتعبيرات الاستعارية في اللغتين . ولكي نديل على ذلك فإننا نقف عند بعض الأمثلة التي ساقها تحت كل فئة من الفئات الثلاث .

ففي الفئة الأولى يسوق الحسناوي المثال التالي :

SL/ History repeats itself.

TL/ ?ttaariikhu yu'iidu nafsah

Lit. The history repeats itself

ولو أن الحسناوي حاول تأصيل فكرة هذا المثل (التاريخ يعيد نفسه) لوجد أنها -كما يذكر منير البعلبكي في المورد- تنسب إلى المؤرخ اليوناني ثوسيديديس Thucydides المتوفى حوالي ٤٠٠ قبل الميلاد . ومعنى ذلك أن المثل موجود في اللغة اليونانية القديمة ؛ أي أن لدينا ثلاث لغات تجسد (التاريخ) ، الذي هو سجل للأحداث التي تحدث في الزمن ، وكأنه كائن حي يلاحظ هذه

الأحداث ويرصد جديدها ومتكررها . ونظراً لهذا الارتباط الوثيق بين (التاريخ) و(الزمن) فإننا نستطيع القول إن تعبير (التاريخ يعيد نفسه) هو أحد التعبيرات المتولدة من بنية إدراكية عامة هي :

[الزمن = كائن حي]

وهي بنية تولد مساحة واسعة من التعبيرات الاستعارية مثل :

شهد الزمان :

شَهِدَ الزَمانُ لَنا بِأَنَّكَ فَردُهُ
مِن كُلِّ بادٍ في الأَنامِ وَحاضِرِ

[شكيب أرسلان]

ويتيمةٍ شهد الزمان بيتمها
في الحسن لم تلد الحسان مثالها

[عائشة التيمورية]

الزمان السعيد :

يوم ميلاده أغرُّ سعيدٌ
إنه طلعة الزمان السعيد

[زكي مبارك]

نام الزمان

وعيشٌ بها نامَ عنه الزمانُ
وهبَّ وعادَ يُرَى في الحُلُمْ

[مهيار الديلمي]

جبهة التاريخ :

في جَبهة التاريخ منها أسْطُرٌ
كَتَبَ الإِباءُ حروفَها بسلاحِها

[علي الجارم]

قامت الأيام :

إلى أن قـــــامتِ الأيّامُ عنـهـمْ
وفي أظفـــــارِها منهم نَجــــيعُ

[ابن نباتة السعدي]

. . . إلخ

ومن الواضح أن المنبع الإدراكي لهـذه البنيـة هو قيـاس الإنسـان لـ(سـجل التاريخ) على (الذاكرة) التي يخزن فيها الإنسان الأحداث التي تجري له أو التي يحتفظ بمعلومات عنها من غيره . ولأن الذاكرة طاقة حيوية ، وفعالية ذهنية ، لها القدرة على حفظ تجارب الماضي فقد قام التخطيط الإدراكي باستعارة هذه (الإحيائية) ونسبتها إلى (التاريخ) الذي هو أيضاً فعالية متعلقةً بحفظ تجارب الماضي .

وبناء على هذا التحليل نستطيع القول إن كلتا اللغتين -الإنجليزية والعربية- تعتمدان على منظور إدراكي متماثل هو الذي ولّد تعبير (التاريخ يعيد نفسه) . فهل هذه النتيجة تتناقض ونظرية النسبية الإدراكية التي أرساها سيدني لامب؟ سنرجئ الإجابة إلى ما بعد تحليل مثال من الفئة الثانية ومثال من الفئة الثالثة في تقسيم الحسناوي .

في الفئة الثانية يذكر الحسناوي المثال التالي :

SL/ A fox is not taken twice in the same snare.

TL/ laa yuldaghu ?alm?uminu min ?aljuHri marraryin

Lit. No believer (in Allah) stung from a hole twice

وهنا نلاحظ أن الترجمة الحرفية للتعبير الإنجليزي هي «لا يقع الثعلب مرتين في الشرَك نفسه» . أما الصورة العربية التي يرى الحسناوي أنها لا تعدو أن تكون مجرد اختلاف لفظي عن التعبير الإنجليزي فهي «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» . ولأن التعبيرين لهما الطابع المَثَليّ فقد كان لزاماً أن يتم توضيح طبيعتهما الاستعارية أولاً ، وذلك من داخل المقاربة الإدراكية للاستعارة . وفي

هذا السياق علينا أن نعود إلى دراسة أخرى قام بها ليكوف بالاشتراك مع تيرنر Turner عام ١٩٨٩م تحت عنوان «More than Cool Reason» . ففي هذه الدراسة طرح المؤلفان مصطلح «استعارات الصورة» image metaphors حيث يريان أن «الفرق الوحيد بين استعارة الصورة وكل الأنواع الاستعارية الأخرى هو أن استعارات الصور لا تقوم على تخطيط تصور عن طريق تصور آخر، وإنما على تخطيط بنية مجال عن طريق بنية مجال آخر»(١) . وهذا التعريف ينطبق على الحالة التي نحن بصددها . وهنا نتذكر ربط واحد مثل البوسي في كتابه «زهر الأكم في الأمثال والحكم» بين المثل والمجاز حيث يقول في الفصل الأول من السمط الأول (معنى المثل والحكمة) : «المثل هو قول يرد أولاً لسبب خاص، ثم يتعداه إلى أشباهه فيستعمل فيها شائعاً ذائعاً على وجه تشبيهها بالمورِد الأول؛ غير إنّ الاستعمال على وجهين :

أحدهما أن يكون على وجه التشبيه الصريح، سواء صرح بالأداة كقولهم : (كمجير أم عامر)، وقولهم : (كالحادي وليس له بعير)، أو لم يصرح كقولهم : (تركته ترك الصبي ظله) وهو كثير .

الثاني إنّ لا يكون وجه التشبيه الصريح كقولهم : (الصيف ضيعت اللبن)، . . . ونحو ذلك، وهو أكثر من الأول .

أما الوجه الأول فهو تشبيه من التشبيهات، إلا إنّه سار وذاع في بابه فعد مثلاً سائراً لما عرفت من أن التشبيه كله تمثيل . ومن ثم تجد قدماء اللغويين وأهل العربية يطلقون المثل على المجاز، ويقيدون ما كان سائراً منه بالمثل السائر أو بأنه من أمثال العرب ليفهم ذلك . وأما الوجه الثاني فهو في مورده لا تشبيه فيه، ولكن يستعمل في مضاربه على وجه تشبيهها بالمورد من غير تصريح بالتشبيه،

(1) Lakoff, G., & Turner, M., (1989): More Than Cool Reason: A Field Guide to Poetic Metaphor. Chicago: University of Chicago Press.) p.90)

بل على أن يستعار اللفظ المستعمل في المورد الأول للشيء الشبيه بذلك»[1] .

وعندما نعود للمثل الإنجليزي نجد أن مجال (المورِد) -باصطلاح البوسي- هو (تجربة الحيوان ونباهته في التعلم من تجاربه السابقة) . أما مجال (المضرب) - باصطلاح البوسي أيضاً- فهو (الحالات والمواقف التي تستدعي حث نباهة الإنسان للتعلم من تجاربه السابقة) .

أما النص العربي وهو من جوامع كلم الرسول (ص) فمجال مورده هو (الإنسان المؤمن الحصيف أو المحميّ بإيمانه من الغفلة) ، ومجال مضربه هو (الحالات والمواقف التي تستدعي التأكيد على أن الإيمان هو ما ينجي من الغفلة) .

ومن الواضح أن ثمة بوناً بين إدراك ممثِّل (الحالة النموذجية) للنباهة والخبرة في النص الإنجليزي ، وإدراك ممثلها في النص العربي . فالصورة الاستعارية في النص العربي ذات بعد (إيديولوجي) واضح حيث انقسام البشر إلى (مؤمن) و(غير مؤمن) . ولعل هذا ما لحظه أبو حيان التوحيدي عند شرحه لكلمة الرسول (ص) فقال «فكأنّ المعنى في الخبر أن المؤمن حازم ، وأنه إذا أتي من شيء مرةً حذره وأعدّ له ، وكان منه على يقظةٍ واحتراس ، وما هكذا الفاجر ، فإنه يجهل حظّه ، وينسى نصيبه ، ويذهب في هواه طلق الجموح ، غير راعٍ ما عليه ، ولا مرعٍ على ما هو إليه . ولفظ الخبر على مذهب الخبر ، ولكنه قد اشتمل على النّهي ، وصورة النهي كأنه قال : لا يؤتينّ أحدكم من سوء نظره وقلّة احتراسه»[2] .

وإذا صح تحليلنا هذا فإننا نكون أمام صورتين استعاريتين وراء كلٍ منهما إدراك ثقافي مختلف ، وليس كما وضعهما الحسناوي .

---

(١) نور الدين البوسي (١١٠٢هـ) : زهر الأكم في الأمثال والحكم . تحقيق : محمد حجي ود . محمد الأخضر (الدار البيضاء- ١٩٨١م) .

(٢) أبو حيان التوحيدي : البصائر والذخائر . المحقق : د/ وداد القاضي - دار صادر - بيروت -الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م- ص٦٤٤ .

ونأتي إلى المثال الثالث من الفئة الثالثة في تقسيم الحسناوي وهو :

SL/ ?uHilla lakum laylataS-Siyaamir-rafathu ?ilaa nisaa?ikum Hunna libaasul-lakum wa ?antum libaasul-lahunn [Surat Al Bagarah, verse 187]

TL: On the night of the fasts, you are allowed to approach your wives. They are your garments and you are their garment. [Surat Al Bagarah, verse 187]

والنص العربي هنا هو نص الآية (١٨٧) من سورة البقرة «أُحِل لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهنَّ» . ويرى الحسناوي أن «هذه الصورة لا يمكن إخراجها في اللغة الهدف» ؛ أي في اللغة الإنجليزية هنا . ولقد كنت أود أن يبين الحسناوي هنا النمط الإدراكي الذي تنبع منه هذه الصورة ، والذي يتمثل -فيما أرى- على الصورة التالية :

[الجسد = رداء]

وهو نمط يولّد كثيراً من الاستعارات مثل :

قالت ليلى الأخيلية

* رمــوها بأثوابٍ خــفــاف فــلا ترى
لهــا شَــبــهــاً إلا النعــامَ المنفــرا

قال ثعلب الأثواب ههنا الأبدان

* تسربلت [النفس] بسربال الجثمان

والسربال : القميص

* والسنور . . . له إهابٌ فضفاضٌ ، وقميصٌ من جِلده واسعٌ» [الجاحظ : الحيوان]

* «أُلبِس إهابَ الهيبة» [ابن الجوزي : المدهش]

* فلو كـان في روحي هواك اقـتلعتـه
ومُــــــــزِّقَ بـالـكـفـين عـنـه إهابُ

[ابن حزم]

والسـؤال هنا : هل ثمـة وجـود لهـذا النمط الإدراكي في ثقـافـة اللغـة الإنجليزية؟

والحقيقة أننا نستغرب ألا يلحظ الحسناوي وجود هذا النمط الإدراكي في هذه الثـقـافـة على الرغم من أن (body as a garment) «اسـتـعـارة تقليـديـة» traditional metaphor كما يصفها هيليس ميللر[1] . وبصدد هذا النمط يشير أحد الباحثين إلى أنه يعود إلى التراث اليوناني حيث شبه الفيثاغوريون الجسد بخيمة tentالروح ، وشبهه الأفلاطونيون بالرداء vestment وكذلك فعلت الثقافة اليهودية التي تصورت الجسد «رداء خارجياً للروح» . وفيها نجد هذا التعبير في مخاطبة الله سبحانه وتعالى (نسجتني في بطن أمي)[2] . ولا شك أن التراثين اليوناني واليهودي لهما وجودهما القوي في الثقافة الغربية .

والآن نعود إلى سؤال (النسبية الإدراكية) على ضوء هذا التحليل للأمثلة التي وقفنا عندها من دراسة الحسناوي . لقد رأينا أن هناك تماثلاً بين اللغتين الإنجليزية والعربية في أنماط التخطيط الإدراكي على مستوى تصوير مفهوم عن طريق مفهوم آخر ، أما على مستوى «استعارة الصورة image metaphor» فقد وجدنا اختلافاً في التخطيط الإدراكي بين اللغتين . وأعتقد أن هذه النتيجة ذات دلالة بالغة فيما يتعلق بأطروحة النسبية الإدراكية . فكلما كان النمط الإدراكي أكثر إيغالاً في التجريد والبساطة ، وكان اشتغاله التخطيطي على مستوى (التصورات) العامة ، كان التماثل بين الثقافات واللغات أكثر احتمالاً ووروداً . أما إذا كان التخطيط الإدراكي متعلقاً بتخطيط صورة استعارية كلية من خلال صورة كلية أخرى فإنه عادة ما تكون الصورة/المصدر عبارة عن «تجربة

---

(1) Miller, H., "The Stone And The Shell: The Prpblem of Poetic Form in Wordworth`s Dream of the Arab" in: Young, Robert (ed.) (1981): Unifyin The Text: A Post- Structuralist Reader. (Routledge & Kegan Paul) p. 251

(٢) جيمس ب . كارس – ترجمة بدر الديب : الموت والوجود : دراسة في التراث الديني والفلسفي العالمي (المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة- ١٩٩٨م) ص٢٣٥ .

إدراكية ثقافية» ، ومن ثم يصعب أن نجد (تطابقاً) بين الثقافات المختلفة في هذا النوع الاستعاري . ولعل ذلك يتجسد بوضوح أكثر عندما تكون هذه الصور الاستعارية -بالمعنى الإدراكي للمصطلح - (أمثالاً سائرة) . فـ(المثل) بطبيعته لصيق الصلة بتجربة الحياة ورؤية العالم لدى الثقافة التي تنتجه . كذلك ينبغي التنبه إلى أن استعارة الصورة المَثَلِيّة تتطلب نوعاً من «الاستدلال» الذي لا بد أن يبذله المتلقي لها لكي يصل إلى بناء كلية التجربة الجديدة من خلال كلية التجربة التي يتضمنها المثل . وهذا النوع من الاستدلال أكثر تركيباً من ذلك الذي تتطلبه استعارة التصورات . ولنتخيل ثقافة لا تعرف الثعالب ، ومن ثم لا تعرف فكرة (الشَّرَك) الذي يُنصَب لاصطيادها . ، ومن ثم أيضاً لا تعرف أن الثعالب لديها خبرة ونباهة في ألا تقع في الشرك نفسه . هذه الثقافة لن تؤدي فيها الصورة الاستعارية (لا يقع الثعلب مرتين في الشرَك نفسه) دوراً معرفياً في بناء تجربة إدراكية يقيسها المتلقي في هذه الثقافة على تجربة الثعلب . وبعبارة أخرى فإن (الاستدلال) الذي يفتقد الإطار -أو يفتقد ما أسماه ليكوف وجونسون (الاستلزامات) intailments - التي تتطلبها هذه الصورة الاستعارية لن تستطيع النهوض أصلاً .

إيديولوجيا الاستعارة الإدراكية:

لقد أثمرت المقاربة الإدراكية للاستعارة عدداً من الاتجاهات المعرفية ، والتحولات النظرية ، وبخاصة في مجالات نظريات التعلم والتعليم ، وتحليل الخطاب ، وعلم النفس الاجتماعي وغير ذلك . على أن مايهمنا في ختام هذا البحث هو أن نقف عند مجال استُثمِرت فيه نظرية (الاستعارة الإدراكية) بشكل فعال ومؤثر ؛ وأعني بذلك مجال (تحليل الخطاب) ، وبخاصة في وجهته النقدية التي يلتقي فيها مع (اللسانيات النقدية) و(الدراسات الثقافية) و(النقد الثقافي) .

وهنا لا بد أن نشير منذ البداية إلى أن كتاب (استعارات نعيش بها) قد

تضمن إشارات واضحة إلى تلك العلاقة الواشجة بين تكريس استعارات تصورية معينة في أطر تاريخية أو ثقافية معينة وهيمنة قوى اجتماعية أو سياسية في هذه الأطر. ومن ذلك قول المؤلفين «إن معظم استعاراتنا تتطور في ثقافتنا عبر فترة ممتدة، ولكن كثيراً منها هو من وضع أشخاص يكونون في مواقع القوة»(1). وكذلك قولهما «الاستعارات الجديدة -مثلها مثل الاستعارات المتعارفة- يمكن أن يكون لها قوة تحديد الواقع. إنها تفعل ذلك من خلال شبكة متماسكة من الاستلزامات التي تضيء بعض جوانب الواقع وتخفي جوانب أخرى. قبول الاستعارة التي تجبرنا على التركيز فقط على تلك الجوانب المضاءة من تجربتنا يقودنا لرؤية استلزامات الاستعارة كما لو كانت حقيقية»(2).

كذلك لا بد أن نشير إلى أن جورج ليكوف- رائد نظرية الاستعارة الإدراكية- كان له إسهامه المهم في ذلك الاستثمار المعرفي والوظيفي للنظرية في مجال تحليل الخطاب. ولقد كان كتابه (السياسات الأخلاقية: ما الذي يعرفه المحافظون ولا يعرفه الليبراليون؟) عام ٢٠٠٠م من الأعمال المعتمدة التي تتواتر الإحالة إليها في تحليل الأبعاد الإيديولوجية للاستعارات الإدراكية. وفي هذا الكتاب قام ليكوف بالكشف عن تلك (التأطيرات) framings التي قام عليها الخطاب الأخلاقي والسياسي لجناح المحافظين في الحزب الجمهوري في الولايات المتحدة منذ أوائل سبعينيات القرن الميلادي الماضي، والتي استخدمت جملة من الاستعارات التصورية الموظفة إيديولوجياً. وفي هذا السياق وقف ليكوف عند البنية الاستعارية التالية: [الدولة = عائلة] ليجد أنه قد تولد عنها إطاران: إطار (الأب الصارم أو الملتزم) strict father بوصفه النموذج الاستعاري التصوري الثاوي في صميم الخطاب المحافظ. وذلك في مقابل نموذج (الأب المربّي أو الراعي) nurturant father الذي يشكل صلب الخطاب

(1) Lakoff & Johnson, 1980. op cit. pp. 159- 160

(2) Ibid. pp. 157- 158

الميرالي . والمحصلة التي انتهى إليها ليكوف هي أن الاستعارات التصورية تنظم المقاييس الدلالية للخطاب المقبول والخطاب غير المقبول ؛ بمعنى أنها تستعمل أحياناً إيديولوجياً لتبرير علاقات القوة القائمة عن طريق إقصاء العلاقات البديلة التي تجسدها استعارات أخرى .

غير أن كتاب ليكوف هذا لم يكن العمل الرائد في الربط بين الاستعارة التصورية والإيديولوجيا . ففي عام ١٩٩٩م أكّدت دراسة لـ(أوتو سانتا أنا) Otto Santa Ana كيف أن التعبيرات الاستعارية التي ظهرت في مقالات الصحافة الأمريكية المطبوعة عن المهاجرين اللاتينيين أسهمت إلى حد كبير في خلق خطاب عرقي تمييزي ضدهم جسدته جملة من الأنماط التصورية مثل :

المهاجرون = حيوانات

الهجرة = فيضان خطير

العرقية = سرطان

وبطبيعة الحال فإننا نتذكر في هذا السياق ذلك العمل المهم الذي قدمه إدوار سعيد عام ١٩٧٩م ، وهو كتاب (الاستشراق) وفيه حفر عميق للصور الإدراكية الثقافية التي اصطنعها الاستشراق لتقديم نفسه ولتمثيل الآخر الشرقي . ولقد قدم أحد الباحثين[١] الجدول التالي لتجسيد جملة ما أسماه بـ«النماذج الإدراكية الثقافية» التي كرسها الاستشراق لصورة الأنا/ الغرب ، والآخر/ الشرق :

نحن (الغرب)	هم (الشرق)
الحضارة	البربرية
القوة	الضعف

(1) Sandikcioglu, Isra : "Orientalism: The Ideology Behind The Metaphorical Gulf War"

على الموقع التالي :

www.tulane.edu/~howard/LangIdeo/Sandikcioglu/Sandikcioglu.html

النضج	عدم النضج
العقلانية	العاطفية
الاستقرار	الاضطراب
التحالف	القرابة
منضدة القمار	البازار (السوق الشرقي)

(الأطر الإدراكية الاستشراقية للغرب (نحن) والشرق (هم))

ولعل كل ما سبق يؤكد ما يقوله بروس كوشيز ، ودايان جيلليسبي : «إن تحديد الاستعارات التصورية لا يُظهر فقط كيف يجعل مستعملو اللغة لحياتهم معنى ، ولكنه أيضاً يظهر كيف أن المعايير الاجتماعية تتحكم في تفكيرهم وتجعل صياغات معينة لتجربتهم مشروعة من الوجهة الشخصية»[١] .

وعلى أية حال فإننا لكي نعطي مزيداً من التوضيح لإيديولوجيا الاستعارة التصورية ، وللتأكد من أنها تصلح أن تكون أداة تفسيرية في الكشف عن الأبعاد الإيديولوجية للنصوص ، فإننا نقف قليلاً عند هذين النصين القصيرين من كتاب (البيان والتبيين)[٢] للجاحظ ، وهما عبارة عن رسالة من الحجاج بن يوسف الثقفي إلى قطريّ بن الفجاءة ، ورد قطري على هذه الرسالة :

«كتب الحجّاجُ بن يوسف إلى قَطَريّ بن الفُجاءَة : سلامٌ عليك ، أمّا بعدُ فإنّك مَرَقت من الدّين مُروقَ السّهم من الرّميّة ، وقد علمتَ حيث تجرثمْتَ ، وذلك أنك عاصٍ للّه ولِوُلاةِ أمره ، غير أنّكَ أعرابيٌّ جِلْفٌ أُمّيٌّ ، تستطعم الكِسرةَ وتستشفي بالتّمرةِ ، والأمور عليك حَسْرَة ؛ خرجتَ لتَنَالَ شُبْعَةً فلحقَ بك طَغامٌ صَلُوا بمثلِ ما صَليتَ به من العيش ، فهم يهزّون الرِّمَاح ، ويستنشقون الرّياح ،

(1) Kochis, Bruce & Gillespie, Diane "Conceptual Metaphors as Interpretive Tools in Qualitative Research: A Re- Examination of College Students' Diversity Discussions" in: The Qualitative ReportVollume 11 number 3September 2006 566- 585

على : http://www.nova.edu/sss/QR/QR11-3/kochis.pdf.

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين . تحقيق فوزي عطوي (دار صعب- بيروت-١٩٦٨م) ٢/٣٦٦- ٣٦٧ .

على خوف وجَهْد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظمُ مما جَهِلوا معرفَته ، ثمَّ أهلكهم اللَّهُ بتَرْحَتَين ، والسّلام .

فأجابه قَطري : من قطريٍّ بن الفُجاءة إلى الحجَّاج بن يوسف ، سلام على الهُدَاة من الوُلاة ، الذين يَرعَون حرِيمَ اللّه ويَرهبون نِقَمه ، فالحمدُ للّه على ما أظهرَ من دينه ، وأظْلَعَ به أهل السِّفَال ، وهدَى به من الضَّلال ، نصَرَ به ، عند استخفافك بحقِّه ، كتبتَ إليّ تذكرُ أنّي أعرابيٌّ جِلفٌ أمِّي ، استطعم الكِسْرة واستشفى بالتَّمرة ، ولعمري يا ابنَ أمّ الحجَّاج إنَّك لَمُيت في جِبِلَّتك ، مُطلخِمٌ في طريقتك ، واهٍ في وثيقتك ، لا تعرف اللّه ولا تَجْزَع من خطيئتك ، يئستَ واستيأستَ من ربِّك ، فالشَّيطانُ قرينُك ، لا تجاذبه وَثاقَك ، ولا تنازعُه خناقَك ، فالحمدُ للّه الذي لو شاء أبرز لي صفحتَك ، وأوضَح لي صَلَعتك ، فوالذي نَفْسُ قطريّ بيده ، لعَرَفْتَ أنَّ مقارعَةَ الأبطال ، ليس كتصدير المقال ، مع أنّي أرجو أن يدحَضَ اللّه حُجَّتَك ، وأن يمنحني مهُجَتَك» .

ثمة موقفان هنا يتصارعان من أجل تكريس جدارة الانتماء إلى الإيديولوجيا السائدة . ثمة موقفان يحاول كلٌّ منهما تكريس صورة للآخر تستوجب إقصاءه ونفي خطابه ، ومن ثم إخراجه من جدارة الانتماء لهذه الإيديولوجيا السائدة :

الحجاج يرسم صورة لقطري من عدة عناصر : الخارج على الدين ، الخارج على ولاة الأمر ، البدوي الجاهل ، الفرد بلا أنصار حقيقيين . أما قطريّ فهو يرسم صورة الحجاج من العناصر التالية : الولي غير الصالح للولاية ، المتخبط ، الضعيف الحجة ، قرين الشيطان .

وإذا بحثنا عن النسق الإدراكي الثقافي الكامن لدى الطرفين فسنجد أنه ينبع من البنية التصورية التالية :

[الفردية = الضعف]

وذلك في مقابل البنية :

[الجماعة = القوة]

ولذلك فإننا نجد الحجاج يصور (الدين) على أنه (رميَّة) هذا (السهم) الذي خرج من كنانته ؛ أي من مستقره ومكانه ، لا يدرِك موضع اصطياده . هذا الإطار الإدراكي -تجربة الصيد- تخبُره الثقافة العربية جيداً . إنها تخبر وتدرك هذا السهم النافذ في الصيد والخارج منه ملوثاً بدمه . ومن ثم فإن استراتيجية خطاب الحجاج هنا هي أن يكرس الاستدلال القياسي لدى قطريّ بأنه (ملوّث) بهذا الخروج على الدين ، وعلى ولاة أمر الدين . ولأن (الدين) أمر يخص الجماعة فإن غاية هذا التكريس هي عزل (قطريّ) في فرديته ، وإقصاؤه عن الجماعة . ويتعزز هذا الإقصاء باستدعاء صورة (الجرثومة) وبناء صورة قطري بها (وقد علمت حيث تجرثمت) . فبما أن «الجرثومة : هي الطين والتراب يُجمَع حول النخلة ليقويها؟ فإن مؤدى ذلك أنْ تُنفَى صفة (البشرية) عن قطريّ . خطاب الحجاج يزيح (قطري) إلى العالم الأسفل ؛ إلى ما هو أرضيّ . وكما رأينا من قبل فإن التصور الإدراكي يعطي الأفضلية والقيمة لما هو أعلى . ثم يعمد الخطاب إلى مزيد من تكريس الطبيعة (اللابشرية) لقطريّ : فهو أعرابيّ جلف ؛ و«الجلف بدن الشاة المَسْلُوخة بلا رأْس ولا بطن ولا قَوائِمَ ، وقيل : الجِلْفُ البدن الذي لا رأْس عليه من أَي نَوْع كان ، والجمع من كل ذلك أَجْلافٌ . وشاةٌ مَجْلُوفةٌ : مَسْلوخةٌ ، والمصدر الجَلافةُ . والجِلْفُ : الأَعرابي الجافي ، وفي المحكم : الجِلْفُ الجافي في خَلْقِه وخُلُقِه ، شُبِّه بجِلْفِ الشاةِ أَي أَنَّ جَوْفَه هَواء لا عَقْلَ فيه» . والمحصلة أننا أمام استعارة تصورية مؤداها]قطري = حيوان[؛ أي لا ينتمي إلى الجماعة البشرية ، ولا يعيش عيشها . إن (العجمة) تلاحقه طبيعة – صورة الحيوان الأعجم- ومعرفة حضارية (أميّ) . ومن ثم فإن كل مشروعه/ خروجه ينحصر في (تحصيل الطعام) ؛ أي في الحاجة التي تجمع بينه وبين الحيوان . وبطبيعة الحال فإن الخارجين معه لا يخرجون عن هذه الطبيعة الحيوانية ؛ بل إنهم لا يرقون إلى مرتبة عليا في التصنيف الحيواني ، إذ إنهم (طغام) ؛ أي «أراذل الطير والسباع»!

أما خطاب (قطريّ) فإنه يعمد منذ البدء إلى استراتيجية إخراج (الحجاج)

من جماعة (الولاة) الجديرين بالولاية . فشرط الوالي الحق هو أن يكون من «الهداة» ، وممن «يرعون حريم الله ويرهبون نقمه» . (سلام) قطري يتجه إلى هؤلاء . ولأن قطري لم يوجه سلامه إلى الحجاج -كما فعل الحجاج مناقضاً نفسه بأن وجّه سلامه مباشرة إلى قطري في بدء خطابه- فإننا نكون أمام (عزل) مبكر للحجاج من انضمامه لمفهوم (ولاة الأمر) . وفي الوقت نفسه نكون أمام تأكيد ضمنيّ يقوم به قطري لترسيخ (اندماج) مبكر في جماعة هؤلاء الولاة ؛ وذلك بإنشاء رابطة (السلام) التي هي (غطاء) -[السلام على . . .] - عادة ما ينشره قائله على الآخر لإعلان (التضامن) بالمصطلح الخطابيّ . فإذا أثبت قطري ضمنياً لنفسه هذا الاندماج مع جماعة الولاة التي حدّد شروطها ، والتي أخرج منها ضمنياً أيضاً الحجاج ، فإنه بذلك يكرس نفيه أن يكون منتمياً لبنية [الفردية= الضعف] . أما تهمة (الخروج) على دين الجماعة فإن قطري يواجهها بإعلان الانتماء الصريح من خلال تأكيد إدراكه لـ(ظهور) هذا الدين . وفي هذا التأكيد تبدو نسبة الدين إلى (النور) و(الهدى) في مقابل (الضلالة) : الظلمة والحيرة . إنه تأكيد مستمد من صورة إدراكية راسخة ومركوزة في العقل البشري . وبإعلان قطري إدراكه هذا فإنه يقسم العالم إلى قطبين : قطب النور ، وقطب الظلام ؛ أي قطب الهداة ، وقطب الضالين . ومن ثم سرعان ما يعمد إلى إعلان (خروج) الحجاج من القطب الأول ؛ وذلك بسبب (استخفافه بحق الدين) . إدراكياً حمل الثقيل يدل على قدرة أكبر من حمل الخفيف . فإذا كان الحجاج (استخف) بحق الدين فهو أقل قدرة ممن يستطيع حمل ثقل هذا الحق . مفهوم (حق الدين) هنا تم تخطيطه الإدراكي من خلال مفهوم (الحِمل) الذي خُطِّط به من قبل مفهوم آخر خطير وهو مفهوم (الأمانة) . ومرة أخرى نكون إزاء عمليتين : إخراج للآخر (الحجاج) من جماعة حق الدين ، وإدخال للذات (قطري) في هذه الجماعة نفسها . وإذا لم يكن يهمنا في سياقنا هذا أن نتوقف كثيراً عند دلالة توجيه الخطاب إلى الحجاج بصيغة (يا ابن أم الحجاج) في سياق ثقافي ذكوريّ يحتفل بالنسب إلى أب معلوم ، فإن ما يهمنا أكثر هو أن

هذه الصيغة لا تبتعد عن استراتيجية خطاب قطري في إخراج الحجاج من هذا السياق الثقافي ومنظومته ومعاييره، ومن ثم إعلان (موته في جبته)؛ وكأنه لم يبق له من علامات الانتماء إلى هذه الجماعة إلا ذلك اللباس الخارجي. أما (ذات) الحجاج في داخلها فهي (عمياء) في الظلمة الشديدة (مطلخمّ في طريقته)، ضعيفة متهالكة فيما تستند إليه من شرعية توثق صاحبها. ومن ثم إذا كان الحجاج رماه بأنه (عاص) لله، فها هو يرميه بأنه «لا يعرف الله». لقد تم إخراج الحجاج من (الجماعة المؤمنة)، ومن ثم نفيه إلى قطب (الخطيئة) و(اليأس) و•الاستيئاس) من (الربّ). ويبدأ قطري في تكوين صورة ثقافية للحجاج عن طريق قرنه بـ(الشيطان) ليس على مستوى التشبيه المتكافئ، وإنما على مستوى تأكيد (التبعية) الخاضعة والمكبّلة بسلطان الشيطان وهيمنته. ومن ثم تصبح عبارة (فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي صفحتك، وأوضح لي طلعتك) تجسيداً لانتماء الحجاج إلى العالم الخفيّ المستتر. إنه في عالم الشياطين فلو ظهر احترق. وعلى هذا فإن (قتله) يصبح أمراً مستحلاً. وحتى لا يكون كل ذلك تهديداً بالقول فإن قطري يعمد إلى استعارة تصورية نمطية وهي أن]الفعل أقوى من القول [بما يعني أيضاً أن قطري يقسم العالم إلى قطبين؛ فيضع الحجاج وخطابه في قطب القول، ويضع نفسه في قطب الفعل. ولأن الجماعة تؤمن بمن يملك (الفعل)، وهي بحاجة إلى ذوي القدرة عليه، فإن تلك الاستعارة التصورية تعمل على تدعيم إيديولوجيا الاندماج في هذه الجماعة التي حاول خطاب الحجاج إقصاء قطري منها.

ختام:

حاول هذا البحث أن يقدم خلاصة نظرية لمنهجية المقاربة الإدراكية للاستعارة. ومن خلال إشارات وجيزة للمقاربات المنهجية التي سبقت انبثاق هذه المقاربة -في سياق انبثاق العلوم الإدراكية بصفة عامة- فإن البحث أراد أن يستلفت النظر إلى أوجه الاختلاف الإبستمولوجي الذي قدمته المقاربة

الإدراكية في درس الاستعارة . وباستعراض بعض الإسهامات التي قدمها رواد المقاربة الإدراكيـة للاستـعـارة ، وتحليل جـملة من أنماط التـخطيط الإدراكي ، والأمثلة والنصوص التي توضحها ، يستطيع البحث تقرير ما يلي :

١- أن الاستـعـارة طريقـة ، أو نظام ، في بناء الذهن الإنسـاني للمـعـرفـة اكتساباً وإنتاجاً .

٢- أن ثمة أساساً جسدياً للمعنى وللخيال وللاستدلال ، ومن ثم فإن أبنية الاستعارات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتجربة الجسد في العالم .

٣- أن هناك ما يمكن أن يسـمى بـ«النسـبيـة الإدراكـيـة» وراء اخـتـلاف الثقافات في استعارات «استعارات الصورة» ، ولكن ثمة (عموميات إدراكية) cognitive universals في البنى الاستعارية التصورية .

٤- أن (الاستـعارة التصورية) تمثل وسيلة ناجعة في الكشف عن الأبعاد الإيديولوجية للخطاب .

الإدراكيات
والتأسيس المعاصر
لعلمية النقد الأدبي(*)

«من المضامين الرئيسية في النقد الحديث تطوره ليكون علماً»

ستانلي هايمن(١)

أسئلة الورقة:

ثمة سؤال تقليدي كثيراً ما تم طرحه في الخطاب النقدي وهو: هل النقد الأدبي علم أم فن؟ ولقد أثير هذا السؤال في الخطاب النقدي العربي منذ ما اصطلح بتسميته (عصر النهضة). وبصرف النظر عن أجوبة كثيرة وحجج متقابلة لدى كل جواب فإن ما تطرحه هذه الورقة لن يكون تأريخاً لتطور هذا الجدل، وإنما سيكون محاولة لتقديم صورة لدخول هذه القضية في طور جديد نهض به ترسُّخ العلوم الإدراكية في إبستمولوجيا العلم المعاصر. هذا الترسخ الذي بلغ منعطفاً بالغ الأهمية منذ تسعينيات القرن العشرين الميلادي الماضي عندما «مضى علم المعرفة [= الإدراكيات] في إرساء نفسه كمجال عريض ومتعدد الفروعِ، [و]جرى أيضاً تطوير تقنيات جديدة غير تشريحية لتحليل وظائف المخ مكَّنتْ الباحثين من ملاحظة العمليات العصبية المعقدة التي تصاحب التصاوير الذهنية وغيرها من الخبرات الإنسانية»(٢).

(*) ورقة بحث شارك بها الباحث في (ملتقى النص الثاني عشر (٢٤-٢٥/٢/٢٠١٣م)) بنادي جدة الأدبي الثقافي.

(١) ستانلي هايمن: النقد الأدبي الحديث ومدارسه. ترجمة د. إحسان عباس لله د. محمد يوسف نجم د. دار الثقافة - بيروت - لبنان (ج١/ ١٩٥٨)، (ج٢/ ١٩٦٠) ص٢٠.

(٢) فريتيوف كابرا: الوصلات الخفية: تكامل الأبعاد البيولوجية والمعرفية والاجتماعية للحياة. ترجمة محمد سالم الحديدي. ص٨٥. المركز القومي للترجمة- القاهرة- ٢٠١٢م.

والسؤال الأساس الذي يقع في قلب محاولتنا هذه هو :

* هل هناك إمكان لقيام نقد أدبي جديد نسميه : النقد الأدبي الإدراكي cognitive literary criticism؟

وبطبيعة الحال فإن هذا السؤال يتضمن جملة من الأسئلة الأخرى المتفرعة عنه من مثل :

* هل ما تقدمه العلوم الإدراكية [=الإدراكيات] من استبصارات حول الإدراك الحسي ، والذاكرة ، والانتباه ، والبنى الذهنية ، والمخططات التصورية ، واللغة ، والتخيل . . .إلخ يمكن أن يقدم إضاءات تفسيرية جديدة لقضايا رئيسة وممتدة في تاريخ النقد الأدبي نظرية وتطبيقاً؟
* ماذا يعني (المعنى) في الأدب من منظور إدراكي؟
* ما التنظيمات الإدراكية الكامنة وراء التنظيمات النصية الأدبية؟
* ما التنظيمات الإدراكية التي تحدث في ذهن القارئ للنصوص الأدبية؟
* هل ثمة فروق نوعية بين الإدراك الأدبي والإدراك غير الأدبي؟

هذه الأسئلة وغيرها ستكون موضع استهداف التحليل والاستدلال في الصفحات التالية . .

١- في المصطلح:

يشهد حقل الدراسات التي ظهرت في غضون العقود الثلاثة الأخيرة ، والتي حاولت الربط بين الإدراكيات والدرس الأدبي ، جملة من المصطلحات المتقاربة في المفهوم ؛ وذلك مثل : الشعريات الإدراكية Cognitive Poetics ، والأسلوبيات الإدراكية cognitive stylistics ، والنقد الأدبي الإدراكي cognitive literary criticism ، والدراسات الأدبية الإدراكية Cognitive Literary Studies . وربما يدفع ذلك إلى السؤال : أيُّ هذه المصطلحات يمكن تبنيه عنواناً لاتجاه التداخل بين الإدراكيات والدرس الأدبي؟ . وفي تصوري أن الاختيار المناسب هو (النقد الأدبي الإدراكي) . ولا شك أن هذا الاختيار دون غيره من هذه

المصطلحات المتقاربة له ما يسوغه عندي بما يمكن إيجازه في الآتي :

* أن هذا الاختيار يجاري بعض الدراسات التي أرّخت لهذا التوجه العلمي ، أو لما يسميه بعض الدارسين[1] بـ (الزواج الإبستمولوجي) epistemic marriage بين الإدراكيات والدراسات الأدبية : كما نجد مثلاً عند (ألان ريتشاردسون) و(سبولسكي)[2] حيث أطلقا مصطلح cognitive literary criticism وذلك في عرضهما التتبعي للكتب والمقالات التي ظهرت في الثمانينيات على يد روفن تسور ، ونورمان هولاند ، وروبرت بوجراند ، وآخرين ؛ أي الكتب والمقالات التي أسست لهذا الربط .

* أن مصطلح (النقد الأدبي الإدراكي) يفضُل مصطلح (الشعريات الإدراكية) التي تعرّفها مارجريت فريمان بأنها «نظرية في الأدب تتأسس على كلٍ من لغة النصوص الأدبية والاستراتيجيات اللغوية الإدراكية التي يستعملها القراء لفهم هذه النصوص»[3] . فهذا التركيز على (القراء) يسم المشروع بطابع الأحادية التفسيرية ؛ حيث إنه لا يتضمن تفسير العمليات والاستراتيجيات الإدراكية المتعلقة بذهن المبدع الأدبي . وإذا كان ستوكويل قد أشار إلى أن مفهوم (القراءة الأدبية) لا يستبعد أياً من أطراف الثلاثية (المؤلف- النص- القارئ) ؛ إذ كل ذلك

---

(1) Brone, Geert & Vandaele, Jeroen (eds.) 2009: Cognitive poetics : goals, gains, and gaps. P.1 ,Walter de Gruyter

(2) Richardson, Alan & Spolsky, Ellen (eds).(2004):

The Work of Fiction: Cognition, Culture, and Complexity P.1. Burlington VT: Ashgate.

(3) Freeman, M. 1997. 'Poetry and the Scope of Metaphor: Toward a Cognitive Theory of Literature' p. 4. in State of the Art and Applications to English Studies, ESSE 4, Debrecen, Hungary.

نقلاً عن : Belekhova: Cognitive Models Of Verbal Poetic Images.

متوفر على : fccl.ksu.ru/winter.99/cog_model/moscow.htm

يشكل سياق العمل الأدبي ، فإن ذلك لا يستبعد الإيحاء المتضمن في تعريف الشعريات الإدراكية بالتركيز على القارئ ، وهو الإيحاء نفسه الذي يظهر من السطر الأول في مقدمة ستوكويل لكتابه(١) حيث يقول «الشعريات الإدراكية هي كل ما هو عن قراءة الأدب» Cognitive poetics is all about reading literature . ومن هذا المنطلق نجد أن الفيلسوف الأماني بيتر تيب Peter Tepe قد سكَّ في السنوات الأخيرة مصطلحاً جديداً ؛ وهو مصطلح التأويليات الإدراكية cognitive hermeneutics ليستعمله بديلاً لمصطلح (الشعريات الإدراكية) ، قاصداً بهذا الاستعمال تفادي ما أسماه «تركيزَ (الشعرية الإدراكية) على الآثار النفسية الناجمة عن حدث (قراءة) النص الأدبي لدى القارئ/ المستقبِل ، أو على الأقل تفادي تعلقها بمسائل التفاعل بين (إنباضات النص text impulses) وردود فعل القارئ الذهنية»(٢) . ومن ثم فهو يرى أن الشعرية الإدراكية أقل اهتماماً بإعطاء البعد التأويلي التركيزَ الذي يستحقه داخل مشروع الربط بين الإدراكيات والدراسات الأدبية . وربما يكتسب ما يقوله تيب صدقه حين نجد أن ستوكويل مثلاً يقول «إن الشعريات الإدراكية . . . لا تستطيع بذاتها أن تنتج تفسيرات»(٣) .

* وبما أن مصطلح (التأويليات الإدراكية) ذو صبغة فلسفية واضحة فإنني

---

(1) Stockwell, Peter (2002): Cognitive Poetics: An Itroduction. Routledge. London and New-York

(2) Fricke, Harald & Muller, Ralph: "Cognitive Poetics Meets Hermeneutics: Some considerations about the German reception of Cognitive Poetics" on:
Mythos-Magazin (2010), http://www.mythos magazin.de/ erklaerendehermeneutik/hf-rm_cognitivepoetics.pdf

(3) Stockwell, Peter (2002) op cit. p.7
وانظر أيضاً في p.8 تفريقه غير المقنع بين (القراءة) والتفسير) .

أرى أن استعمال مصطلح (النقد الأدبي الإدراكي) أكثر نجاعة في تجسيد الدلالة على الربط بين الإدراكيات والتأويل الأدبي .

* أن مصطلح (النقد الأدبي الإدراكي) يفضل استخدام مصطلح (الأسلوبيات الإدراكية) . فبخصوص هذا المصطلح الأخير ثمة جدل ممتد حول الانتماء : هل (الأسلوبيات الإدراكية) فرع من (اللسانيات الإدراكية) أم هي فرع من (علم نفس القراءة الإدراكي the cognitive psychology of reading؟)[1] وبهذا القطب الثاني من تلك الثنائية الجدلية يبدو واضحاً اشتراك (الأسلوبيات الإدراكية) مع (الشعريات الإدراكية) في التركيز على جانب (القارئ) .

ويبقى من مفردات هذا الاختيار ذلك النعت المنسوب إلى (الإدراك) ؛ وهو مصطلح (الإدراكي) cognitive . فإذا أردنا إشارة وجيزة إلى مفهومه فإننا نرى أن ثمة إفادة كافية فيما يقدمه روفن تسور عندما يشير إلى أنه «خلال الخمسين عاماً الأخيرة ، أو نحو ذلك ، غيّرت كلمة (cognition) معناها . ففي الأصل ميّزت بين جانبين في الحياة الذهنية : الجانب العقلاني ، والجانب العاطفي والإثاري . والآن تُستخدم الكلمة لتشير إلى كل فاعليات الذهن في تشغيل المعلومات information-processing بدءاً من تحليل الدوافع المباشرة إلى تنظيم التجربة الذاتية . وفي الاصطلاح المعاصر يشمل الإدراك عمليات وظواهر مثل الإدراك الحسي ، والذاكرة ، والانتباه ، وحل المشكلات ، واللغة ، والتفكير ، والتخيل . وهذا المعنى الأخير هو المستعمل في عبارة (الشعريات الإدراكية)[2] .

---

(١) انظر :

Craig Hamilton. "Stylistics or Cognitive Stylistics?". Bulletin de la Société de Stylistique Anglaise, 28 (2006), p.55-65, URL: http://stylistique-anglaise.org/document.php?id=\54 (Consulté le 09 avril 2010)

(2) Reuven Tsur: Aspects of Cognitive Poetics" on:

https://www2.bc.edu/~richarad/lcb/fea/tsur/cogpoetics.html

لـ عن ترجمتنا لـ(cognitive) بـ(الإدراكي) فهي مسألة أفاضت فيها المقالة لمنشورة في هذا الكتاب .

سؤال الأدب في المقاربة الإدراكية:

ثمة رافدان كبيران يستمد منهما النقد الأدبي الإدراكي هويته العلمية : الأول هو المقاربات الأسلوبية والسيميائية والتداولية التي قدمت استبصارات عميقة في الاستخدام الأدبي للغة -بنىً وجماليات ووظائف في المعنى والمغزى . وكما يقول بتير ستوكويل في كتابه عن (الشعريات الإدراكية) فنحن «لسنا مضطرين لرمي كل الاستبصارات التي جاءت من النقد االأدبي ومن التحليل اللساني»[1] . والرافد الثاني هو معطيات المقاربات الإدراكية التي تحاول الكشف عن العمليات الإدراكية الكامنة وراء التفصيلات التي تقدمها مصادر هذا الرافد الأول ، والتي تحاول -في غايتها- الكشفَ عن أنظمة المبادئ الإنسانية العامة التي تشكل العمليات الإدراكية واللغوية ووظائفها في سياقات الذات والثقافة . ولعل هذه الهوية هي ما يجعل هذا النقد الأدبي الإدراكي منتمياً إلى زمرة العلوم المتداخلة الاختصاص . هذا التداخل الاختصاصي أشارت إليه إلينا سيمينو Elena Semino وجوناثان كالبيبر Jonathan Culpeper عندما تحدثا عن مجال (الأسلوبيات الإدراكية) فقالا إنها تأليف يجمع ذلك النوع من التحليل اللغوي التفصيلي الدقيق والنشط للنصوص الأدبية ؛ أي ذلك التحليل النمطي الذي نجده في التراث الأسلوبي ، مع خبرة الفحص النظري للبنى والعمليات الكامنة وراء إنتاج اللغة واستقبالها»[2] . ولا شك أن هذه الخبرة مستمدة من كشوف الإدراكيات بصفة عامة ، ومن مجال اللسانيات الإدراكية بصفة خاصة .

---

(1) Stockwell, Peter (2002). P. 6.op cit.

(2) Semino, Elena and Jonathan Culpeper. 2002 (eds.) Cognitive Stylistics. Language and Cognition in Text Analysis.p. ix : Amsterdam: John Benjamins.

هذان الرافدان يستهدفان فحص ما يسميه تيرنر Turner (العقل الأدبي)(١) literary mind : كيف يعمل؟ وكيف يتجلى عمله في النص؟ وكيف يتم تلقيه وفهمه؟ . ولا شك أن هذه الأسئلة تضع قضية (الأدب) في إطار التواصل الذي يشمل فيما يشمل البعدَ الإدراكي . وهذا الترابط يشرحه فان دايك بقوله : «بدأنا ندرك أكثر فأكثر أن الأدب ليس مجرد فئة خاصة من الخطابات تُعَرَّف على أساس الخصائص النصية المائزة . إنه يستلزم رؤيته في إطار الجوانب المختلفة من التواصل . وعلى هذا فقد كان علينا أن نأخذ النصوص الأدبية -في التداولية- كنوع من الحدث الكلامي الطقوسي ، وأن نحاول تبيان الشروط الاجتماعية لهذه الأحداث الكلامية ، ووظائفها وتأثيراتها في السياق التواصلي للكُتّاب والناشرين والقراء والمراجعين ومعلمي المدارس . . إلخ . . . وإن الجانب الأساس في هذه العمليات التواصلية هو تلك العمليات الإدراكية المتنوعة لدى كل هؤلاء المشاركين الذين أشرنا إليهم»(٢) . هذا التأسيس للطابع التواصلي للأدب مبنيّ على حقيقة إدراكية باتت شديدة الوضوح في السنوات الأخيرة ؛ وهي أن أشكال عيشنا في العالم وتفاعلاتنا الإدراكية الجسدية معه هي ما يكوّن معرفتنا بهذا العالم . هذه المعرفة -ومنها بطبيعة الحال معرفة الأديب- «ليست تصويراً لعالم يوجد مستقلاً ، بل إنها إظهار أو إتيان بعالم من خلال عملية العيش»(٣) . وبعبارة شارحة لهذا المقتبس نقول إن (العيش في العالم) هو ما يكوّن ويشكل ويطور عملياتنا الإدراكية : قدرة وسلوكاً . وبإيجاز نقول إن الشعار المرفوع هو : (الإدراكات التي نحيا بها)!

ومن ثم فإن هذا التأسيس بدأ يتطلب -أول ما يتطلب- أن يعاد النظر على

(1) Turner, Mark. 1996. The literary mind. Oxford: Oxford University Press

(2) Teun A. Van Dijk: Cognitive Processing Of Literary Discourse. Pp. 143- 144. On: http://www.win2pdf.com/

وماتحته خط من وضعنا .

(٣) فريتيوف كابرا ، سبق ذكره ، ص٨٩ .

ضوء المقاربات الإدراكية في جملة من القضايا الشهيرة في النظرية الأدبية .

ومن ذلك مثلاً توجيهُ النظر إلى تصنيف الخطابات الأدبية ليس من منطلق البحث عن جوهر ماورائي سُمّي من قبل بـ(الأدبية) التي طُرحت في سياقها فكرة (اللغة الأدبية الخاصة)[1] ، وإنما من منطلق النتيجة المتحصلة في علم الخلايا العصبية ومؤداها أن المخ البشري مصمم على قدرة بيولوجية راسخة هي (آلية إعادة التصنيف المفهومي mechanism of conceptual recategorisation) ، أو - في اصطلاح آخر- إعادة ترتيب القائمة relisting . وهذه الآلية هي التي تجعلنا نعيد تقييم الواقع ، ومن ثم نعيد تصنيفه مفهومياً . وهنا يشار إلى أن ثمة ثلاث طرق رئيسة تُطلق عملية الإعادة هذه : التحول الاقتراني metonymic ، أو التحول الاستعاري metaphoric ، أو الدمج المفهومي blending[2] .

وفي هذا الإطار طُرحت النظرية الإدراكية التي أُطلق عليها نظرية (النماذج المؤمثلة prototypical[3] والتي قدمت بديلاً إبستمولوجياً لنظرية المقولات المنطقية الأرسطية ، ولنظرية الفئة أو الزمرة[4] set theory . وهي تذهب إلى أن السمات المميزة لمقولة ما تنطبق على أعضاء هذه المقولة بدرجات

---

(١) انظر في نقد هذا المفهوم : د . محي الدين محسب : الأسلوبيات الأدبية : من لغة النص إلى مغزى الخطاب : رؤية منهجية وتطبيقية في النص الشعري العربي . الناشر : كرسي المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها- جامعة الملك سعود- ٢٠١١م

(2) Martsa, S?ndor: "Construction of Meaning during Conversion"p. 4. on: husse-esse.hu/wp-content/2007/09/construction-of-meaning

(٣) قترحت هذه الترجمة لمصطلح prototypical في هذه الورقة ، ولكني عدلتُ عنها إلى الترجمة التي أراها أدق ؛ وهي (الأنماط الطرازية) وهي مستقاة من أعمال الإخوة الباحثين في المغرب العربي .

(٤) انظر :

POHLIG, J N. (2006): A Cognitive Analysis of Similes in the Book of Hosea. p. 13. (Dissertation presented for the degree of DOCTOR OF LITERATURE in BIBLICAL LANGUAGES at the University of Stellenbosch

متوفرة على : Stellenbosch University http://scholar.sun.ac.za

مختلفة ؛ حيث يعَدُّ بعضها أكثر تمثيلاً لهذه المقولة ، أو يُعتَقَد أنه أجود تمثيلاً لها ، من تمثيل بعضها الآخر (مثلاً : (العصافير) أكثر تمثيلاً لمقولة (الطيور) من (الصقور) . وفي سياق نظرية النماذج تلك جاء طرح جيرار ستين لمقاربته النموذجية المؤمثلة التي تؤكد على الطابع التراتبي للمفاهيم المتداخلة في تصنيف الأجناس الأدبية ، وذلك باستخدام السمات نفسها لكل مستوى من مستويات وضع المفاهيم (= المفهمة conceptualisation) . ولقد ميز ستين(١) سبعة محاور هي : المحتوى ، والشكل ، والنمط ، والوظيفة ، والوسيط ، والمجال ، واللغة . والقاعدة هنا هي أننا إذا قارنا -على أساس هذه المحاور- بين مجموعة المفاهيم التي تطلق على أنواع الخطابات الأدبية في ثقافة معينة فسنجد تراتباً ينبني وفق درجة الاقتراب أو الابتعاد عن النموذج المؤمثل الذي يعده أصحاب هذه الثقافة (أدباً) . فكلما ازداد امتلاك خطاب معين للخصائص الرئيسة القائمة في هذه المحاور فإن هذا الخطاب يصعد في التراتبية الأجناسية الأدبية لدى أصحاب هذه الثقافة ، والعكس صحيح . وعلى سبيل المثال فإن الإدراك الثقافي العربي ظل يعد القصيدة العمودية هي النموذج المؤمثل لـ (الشعر) بأل التعريف ، ومن ثم ظلت قصيدة الشعر الحر لا تدخل في جنس الشعر وقتاً من الزمن ومن رفض التقبل ، وحدث مثل ذلك ، وربما ما يزال يحدث ، بالنسبة إلى قصيدة النثر . ولقد كنا نفسر ذلك الأمر بمبدأ (الذائقة الثقافية أو الأدبية) . وهو مبدأ على الرغم من أنه لا يستند إلى معيار واضح فإنه يشير إلى استعارة إدراكية تستمد من مجال التذوق الحسي لتجسد مجال التقبل الجمالي . وفي ذلك التركيب الاستعاري إشارة إلى أننا نتقبل القصيدة بجسدنا! وهو الأمر الذي ينطوي على أن مسألة تصنيف الأجناس والخطابات الأدبية تتأثر بتغيرات حالات تفاعل إدراكنا الجسدي -بما فيها جسدانية الذهن- مع العالم .

---

(1) Steen. Gerard (1999): Genres Of Discourse And The Definition Of Literature". Pp. 112ff. In: Discourse Processes, 28 (2), 109-120.

فالأجناس الأدبية إذن ظواهر إدراكية متغيرة . ومن هنا فلسنا إزاء أجناس أدبية يمكن تعريف كل منها مستقلاً عن غيره . وعلى ضوء هذه الحقيقة فقد شهدت النظرية الأدبية ما أسماه سعيد السريحي - منذ ثمانينات القرن الميلادي الماضي ، وبإحساس عميق بالروح العلمية المعاصرة- بـ(انهيار نظرية الأجناس الأدبية) قاصداً بذلك انهيار التصنيف التقليدي للأجناس الأدبية .

وإذا كان أبرز ما طرحته نظرية (الأدبية) الشكلانية هو ما سُمّي بمفهوم (الأمامية) الذي قام على مقولة أن الأدب هو عنف منظم ضد اللغة ، فقد تم تقديم تفسير إدراكي لهذا المفهوم . وهذا التفسير الإدراكي يتبنى مقولة أن الخطابات الأدبية هي عنف منظم ضد العمليات الإدراكية «organized violence against cognitive processes» . ويدخل في هذا السياق القول بأن «الخطاب الأدبي يستثمر -لأغراض جمالية- العمليات الإدراكية التي تطورت من قبل لأغراض غير جمالية»[1] . ومؤدى ذلك هو أن الأدب يعتمد على المبادئ الإدراكية العامة نفسها ولكنه يوجهها لأغراض جمالية . ولا شك أننا هنا إزاء «قلب وجهة النظر التقليدية التي ترى أن الأدب هو نوعية فرعية غريبة من اللغة»[2] . وفي الحقيقة فإن هذا التفسير قائم على ما توصلت إليه اللسانيات الإدراكية في أهم مبادئها وهو أن النظام اللغوي لا يشكل نظاماً إدراكياً مستقلاً . يقول (جافينز) و(ستين) : «الشعريات الإدراكية تذهب إلى أن القراءات يمكن شرحها عن طريق الإحالة إلى مبادئ إنسانية عامة من العمليات الإدراكية واللغوية التي تربط دراسة الأدب باللسانيات وعلم النفس والإدراكيات بصفة عامة . وإنه لحقٌ أن أكثر النتائج إثارة في انبثاق الشعريات الإدراكية هي الوعي المتزايد في العلوم الاجتماعية بالطبيعة الخاصة والنوعية للأدب بوصفه شكلاً من الإدراك والتواصل . وفي الوقت نفسه فإن ما تمت ملاحظته هو أن هذه

---

(1) Tsur, R. (1992): Aspects of Cognitive Poetics. On: https://www2.bc.edu/~richarad/lcb/fea/tsur/cogpoetics.html

(2) Ibid

المكانة الخاصة للأدب تعتمد على بعض البنيات والعمليات العامة الأكثر أساسيةً في التجربة والإدراك الإنسانيين ، وهي البنى والعمليات التي تمكننا من التفاعل مع هذه الوسائل الفنية الخاصة .[١] وفي هذا السياق يأتي تحديد تيرنر للمبادئ الإدراكية الأساسية في العقل الإنساني التي يتم توظيفها ، والتي يتجلى حضورها ، في كل من لغة الحياة اليومية واللغة في الاستعمال الأدبي . وما يجمع هذه المبادئ الإدراكية هو ما يطلق عليه تيرنر (العقل الأدبي) . هذا العقل ليس هو العقل لدى فئة الأدباء ، وإنما هو العقل لدينا بوصفنا بشراً . فكل عقل هو عقل أدبي بالضرورة .

وأول المبادئ الإدراكية المؤسسة لكينونة العقل الأدبي الذي يعني العقل الإنساني هو : مبدأ القص-أو مبدأ (الخيال السردي)- الذي يعدّه تيرنر «الأداة الأساسية للتفكير» حيث يقول«أن قدرات اللغة الإنسانية تنبع من التخطيطات الخرائطية الإدراكية للحكي والقص»[٢] . ويتجلى مبدأ القص في أشكال لا نهاية لإبداعيتها في الممارسات الإنسانية . ومن العمليات الذهنية التي يتجلى فيها هذا المبدأ : التخطيط ، والتقييم ، والشرح ، والتذكر ، وتخيل المستقبل . وهذا المبدأ يعتمد بشكل كثيف على مبدأ آخر هو مبدأ (ضرب الأمثال parable)[٣] : أي قدرتنا -التي نبذلها بلا جهد عادةً وبشكل لا واعٍ في أكثر الأحيان- على إسقاط قصة على قصة أخرى ؛ أو لنقل : إضاءة قصة بقصة أخرى ، كما يحدث

---

(1) Gavins, Joanna and Gerard Steen (eds.) (2003). Cognitive Poetics in Practice. P.2. London: Routledge

(2) Freeman, Margaret, M.: "Cognitive Linguistics Approaches To Literary Studies: State Of Art In Cognitive Poetics" in: Geeraerts and Hubert Cuyckens (eds.): The Oxford Handbook of Cognitive Linguistics, 1175- 1202. Oxford and New York: Oxford University Press, 2007. (E copy available at: http://ssm.com/abstract=1427409)

(٣) ترجمتها بـ(ضرب الأمثال) لأن هذه الصيغة هي أقرب ما يمكن أن يدل على الأنواع العديدة التي تنضوي تحت لافتة parable مثل القصة الوعظية ، المثل ، اللغز ، الأليجوري ، القصة الرمزية . . .

مثلاً عندما نضرب المَثَل المرتبط بقصة قديمة لإضاءة قصة أو موقف آنيّ . ولقد تتبع تيرنر اعتماد العقل على القص وضرب الأمثال من أبسط شكل إلى أكثر الأشكال تعقيداً . فجمل خبرية مثل :

- السماء تمطر
- الولد يلعب بالكرة
- سافر زيد إلى المدينة

كل واحدة منها هي شذرة قصة . كذلك يتجلى ضرب الأمثال من أبسط شكل كما في فعل (الاقتباس) إلى أكثر الأشكال الأدبية تعقيداً ؛ كما في ظواهر التناص . والنتيجة المترتبة على ذلك كله عند تيرنر هي أن كل خطاب هو خطاب أدبي ، وأن المعنى مَثَليٌّ وأدبي .

هذه النقطة الأخيرة -نقطة المعنى- مبنية على رأي تيرنر الذي يعتمد فيه على نتائج علم الخلايا العصبية . وفي هذا السياق تأتي بحوث جيرالد إيديلمان Gerald Edelman عن المخ البشري التي كان من أهم نتائجها أن الخلايا العصبية في المخ تترابط فيما بينها لتشكل طُرُزاً patterns مركبة وخاصة بكل ذات بشرية أثناء نموها وتجربتها المعيشة . وهنا يبدو ملمح في غاية الأهمية ؛ وهو أن بعض هذه الطرز يحدث له إعادة تقوية بالتجربة والممارسة الحياتية ، في حين أن بعضها الآخر يتم استئصاله بعملية انتقائية تشبه عملية الانتقاء الطبيعي في تطور الأنواع في النظرية الداروينية ، ولكنها هنا عملية تحدث داخل مخ الفرد الواحد وطوال حياة هذا الفرد . ومن ثم فليس هناك شخصان يحدث عندهما ذلك الترابط ، أو إعادة التقوية ، أو الاستئصال ، بالطريقة نفسها . بل ليس هناك إدراكان متطابقان لتجربة معينة لدى الفرد الواحد[1] .

---

(١) انظر مثلاً المقالة التالية لإيديلمان :

Gerald M. Edelman (2003): Naturalizing consciousness: A theoretical framework. On: www.dpi.inpe.br/Miguel/Musicas/Edelman_Consciencia_PNAS_2003.pdf

ولقد تطورت هذه الأفكار على يد سيدني لامب[١] ليطرح نظريته التي أطلق عليها (الأوهام الدلالية semantic mirages) ؛ وهي تتمثل في نزوعنا البشري إلى بناء المعنى من خلال عمليتين متلازمتين : التمدية reification و(مغالطة وحدة معجمية واحدة لشيء واحد one-lexeme-one-thing fallacy) . ويرتب لامب على القول بهذه الأوهام الدلالية تأكيده أن لدى البشر أنساقاً للفكر مختلفة حتى داخل النسق الثقافي اللغوي الواحد ، بل إن هناك اختلافات في المفهمة داخل النسق الإدراكي لدى الفرد الواحد .

وعلى ضوء هذا التطور في الإدراكيات - وبخاصة الإدراكيات الأحيائية cognitive biology أو الأحيائية التأويلية biological hermeneutics ، بعد مرحلة اكتشاف الجينوم البشري- حدث تحول في تفسير المعنى أو في فهم المعنى . فبدلاً من عدّه شكلاً منفصلاً عن الطبيعة كمسألة من مسائل العقل الخالص ، أصبح - بما أنه يتولد في شكل مادي متجسدن- أمراً مرئياً[٢] visible ، ومن ثم لم يعد (التفسير) أمراً ينبني على اللغة والنصوص فقط ، وإنما هو عملية تبدأ بالكيان العضوي organism أو بالأحرى من (ذاتية الكيان العضوي subjectivity of organisms) .

والمحصلة هي أننا لا ننزل نهر الإدراك مرتين!

وعلى ضوء هذه النتائج تبْني الدلاليات الإدراكية رؤيتها للمعنى . فالمعنى ليس حقيقة ثابتة كما زعمت الفلسفة القديمة ، وليس نسقاً من العلاقات الدلالية داخل النظام اللغوي المغلق وفق زعم اللسانيات مع دوسوسير والبنيوية عموماً ، وإنما هو مسألة من عمل الذهن البشري : الكلمة ، أو التعبير اللغوي ، هو إشعارٌ يأذن بعمل الاستنتاجات التي تستحث الفهم والاستدلال ؛ أي أنه عمل

---

(١) انظر : Lamb, Sydney M. op cit

(2) Weber, Andreas The Book of Desire: Toward a Biological Poetics. Springer Science+Business Media B.V. 2010. (متوفر على الشبكة)

من التقييم المفهومي conceptual construal والمواضعة conventionalization المؤطرة بمعرفتنا الموسوعية بالعالم . تقول مارجريت فريمان «المعنى -من منظور إدراكي- ليس مسألة دلالية ، وليس مسألة تداولية ، وإنما هو مسألة موسوعية ؛ أي أنه ينبثق من الترابط التراكمي للتجربة والمفهمة والسياق والثقافة»[1] . ومن ثم فإننا في كل موقف تواصلي نحن إزاء عملية إنشاء للمعنى ؛ حيث إن علاقتنا الإدراكية بالتجربة والموقف علاقة متجددة ، أو لنقل إنها (علاقة على الهواء on-line مباشرة)!

فإذا ذهبنا إلى انعكاس ذلك في الدراسات الإدراكية الأدبية فإننا نجد -من بين أهم ما نجد- ذلك الربط بين المعنى وقصدية الكاتب ، أو لنقل : إعادة الاعتبار لفكرة (قصد المؤلف) . فبعد أن شنت مدرسة النقد الجديد هجوماً حاداً على ما أسمته (أغلوطة القصدية) على أساس أنها تكرس لمخاطر إسناد ما يرد في النص إلى الكاتب نفسه ، وبعد أن شاعت مقولة رولان بارت عن (موت المؤلف) ، وبعد أن أزاح نقاد مابعد البنيوية ليس فقط قصد المؤلف ، وإنما ثبات النص نفسه ، بعد كل ذلك نجد أن كشوف علم النفس وعلوم الأعصاب تعيد الاعتبار لدور كل من الكاتب والقارئ والنص . ومع انبثاق اللسانيات الإدراكية وطرحها لفكرة البنى ، والنماذج ، والمخططات الاستعارية التصورية ، بوصفها مبدأ أساسياً في الإدراك البشري ، ومن ثم كونها أداة لا يمكن تجنبها في إنشاء المعنى وفهمه ، فقد أصبح من الطبيعي التحرك لفحص هذه البنى لإمكانية أن يكشف

---

(1) Freeman, Margaret (2007): Poetic Iconicity. p. 423. In: COGNITION IN LANGUAGE: special volume, pp. 472-501, Annual Review of Cognitive Linguistics, Krak?w: Tertium

متوفر على : papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=1399120

ذلك عن التوجهات المفهومية للكاتب وعن دوافعه[1] .

كذلك نجد تيرنر يعتمد على النتائج الإدراكية نفسها بخصوص المعنى . فالمعانى عنده «ليست أشياء ذهنية ، مقيّدة في مواضع تصورية [في المخ] ، وإنما هي عمليات مركّبة من الإسقاط والربط والوصل والدمج والتكامل بين أفضية متعددةspaces» . والذي يقدح شرارة هذه العمليات في الخلايا العصبية ، ويقيم بينها الترابطات ، هو الحكْي ، وبخاصة الحكايات المدمجة في حكايات أخرى . ومرة أخرى نقول : إننا إزاء شعار إدراكي جديد يضاف إلى شعار إدراكي سابق : أمام شعار (الحكايات التي نحيا بها) مضافاً إلى شعار (الاستعارات التي نحيا بها) . فالشعاران يقولان إن تفكيرنا هو عملية إسقاط مستمرة لسياق على سياق اعتماداً على استثمار القياسيات وملاحظة التوازيات . وكلا الشعارين ينضويان تحت الشعار الأعم (الإدراكات التي نحيا بها)!

لقد طرحت الإدراكيات عدداً وافراً من النظريات التي باتت تشكل مسالك رئيسة في النقد الأدبي الإدراكي ؛ ومن ذلك النظريات الآتية :

* نظرية الجسدنة embodiment theory
* نظرية المخططات الذهنية mental schemata theory
* نظرية عالم النص text world theory
* نظرية الاستعارة الإدراكية conceptual metaphor theory
* نظرية الأمامية foregrounding theory

---

(1) Freeman, Margaret M.: "Cognitive Linguistic Approachs To Litrary Studies: State Of The Art In Cognitive Poetics" in: Dirk Geeraerts and Hubert Cuyckens, eds. The Oxford Handbook of Cognitive Linguistics, 1175-1202. Oxford and New York: Oxford University Press, 2007. Electronic copy available at: http://ssrn.com/abstract=1427409

انظر :

Resta, Donatella : "Cognitive Science and Literature"in: COGNITIVE PHILOLOGY. No 2 (2009). SAPIENZA: University Di Roma.

* نظرية النماذج الأصلية prototypicality theory
* الإدراك والعاطفة emotion and cognition
* نظرية الدمج blending theory
* نظرية التكامل المفهومي conceptual integration theory

وبطبيعة الحال لن يتسع سياق هذه الورقة لعرض كل هذا الركام المعرفي ، وبخاصة أن بعض هذه النظريات ما يزال في مراحل الفحص والتمحيص والتطوير[١] . وفيما يبدو لي فإنه ما تزال ثمة مساحة أمام الإدراكيات لاختبار مدى صلاحية الرأي القائل بأننا «إذا أردنا أن نبدأ في فهم السبب في رد فعل عقولنا البشرية بطرق معينة تجاه اللغة الشعرية فنحن بحاجة إلى التأمل ملياً ، وبأقصى الإمكان ، في المصادر المتاحة في مجالات عديدة»[٢] . ولذا سأكتفي في الحيز المتبقي لإعطاء استدلال وجيز على مدى الإمكانات الواعدة التي يمكن أن تضيء بها المقاربة الإدراكية النص الأدبي .

---

(١) للتدليل على ذلك يُنظر مثلاً مقالة مارجريت فريمان عن نظرية (الدمج) : Freeman, Margaret: Blending and Beyond: Form and Feeling in Poetic Iconicity. : متوفرة على http://ssrn.com/abstract=1399751 وانظر للباحثة نفسها Freeman, Margaret: "Cognitive Linguistic Approaches To Literary Studies: State Of The Art In Cognitive Poetics". (pp.15-16), in: Dirk Geeraerts and Hubert Cuyckens (eds.): The Oxford Handbook Of Cognitive Linguistics, 1175- 1202. Oxford and New York: Oxford University Press. 2007

متوفر على : http://ssrn.com/absract=1427409 وانظر كذلك مقالة ماير ستيرنبرج في انتقادات مهمة للمقاربات الإدراكية ، وبخاصة مقارباتها للسرد : .Sternberg, Meir:" Epilogue.
How (not) to advance toward the narrative mind" : في Brone, Geert & Vandaele, Jeroen (eds.). op cit, pp.455- 53 وفي هذا الكتاب نفسه انظر مقدمة المحررين pp.22- 25.

(٢) انظر : Brone, Geert & Vandaele, Jeroen (eds.). op cit, p.24

٢- المقطع الاستهلالي من نص (ما يشبه النسيان) للشاعر علي الدميني، مقاربة إدراكية:

على ضوء المقاربات الإدراكية يمكن القول إن عنوان النص ؛ أي نص ، يعمل كباعث alerting للانتباه . ومن ثم فبمجرد التقاء المستقبِل بالعنوان تبدأ عملية رد الفعل (الاهتمام أو عدم الاهتمام) بما يثيره هذا العنوان لديه . ولا شك أن هذه مسألة إدراكية تتأثر بعوامل سياقية كثيرة منها ما يتعلق بالتركيب اللغوي للعنوان ، ومنها ما يتعلق بمحتواه الدلالي ، وما يتعلق بجنس الخطاب الذي ينتمي إليه النص المعنون بهذا العنوان ، وما يتعلق بمعرفة المستقبِل بالكاتب وبموقفه الفكري أو الاجتماعي أو الجمالي أو الأيديولوجي . . .إلخ . فإذا اتخذ المستقبِل قراراً بالاهتمام فإن ذلك معناه أن أسئلة لديه بدأت تنبثق حول هذا العنوان : حول المقاصد التي يمكن أن يكون الكاتب قد ضمَّنها فيه ، وحول احتمالات الأجوبة والتفسيرات التي سيطرحها النص القائم تحته .

والحقيقة أن العنوان (ما يشبه النسيان) -وهو عنوان النص الذي نحن صددَ تحليل مفطعه الاستهلالي – هو عنوان كثيف التحريض على الانتباه! وذلك أنه يحفز على الفور السؤال : ما الذي يشبه النسيان؟! ومن الشائق أن هذا السؤال يثير في إدراكنا الفضاء الذهني المتعلق بـ(الذاكرة)! ومن ذلك أنه يثير المفهوم المقابل للنسيان ؛ أي (التذكر)! فالتذكر والنسيان عمليتان تتمان في الذاكرة . ومن ثم فكون العنوان يشير إلى عمليةٍ (تشبه النسيان) فنحن إذن لسنا أمام (نسيان تام) ، ولسنا أمام تذكر تام! وهنا نصل -استدلالا أو توقعاً- إلى أن الذات الكاتبة ستتحدث عن حالة إدراكية مركبة من الحضور والغياب . . من التذكر والنسيان . هذا هو الدرس الذي علمنا إياه بروست[١] حين قال «إن

---

(١) مارسيل بروست (١٨٧١- ١٩٢٢م) الروائي الفرنسي الشهير يعد صاحب نظرية في الذاكرة يتناولها الإدراكيون في دراساتهم بتقدير كبير . انظر على سبيل المثال : Epstein, Russel "Consciousness, Art and The Brain: Lessons From Marcel Proust". In: Consciousness and Cognition 13 (2004) 213-240 متوفرة على : www.elsevier.com/locate/concog

انفصل جزء من ذاكرتنا هو خارجنا؛ في ريح عطرة، في رائحة فطيرة مشتعلة، أو في رائحة اشتعال أول - خارجنا؟ بل داخلنا، لكن محجوباً عن أنظارنا، في نسيان مديد إلى هذا الحد أو ذاك»[1]. ومن الشائق أن نلاحظ هنا أن تعبير (ما يشبه النسيان) يتناص مع (نسيان مديد إلى هذا الحد أو ذاك)!

وبطبيعة الحال فإننا نعرف من المبادئ العامة للذاكرة أن ما نتذكره من تجارب حياتنا الماضية هو ما يمثل أهمية خاصة (معرفية أو عاطفية أو اجتماعية.. إلخ). وهذا الإدراك العارف بالذاكرة وبعملها يجده كلٌ منا في اشتغال ذاكرته، كما وجده أدباء كبار. فها هو بروست -الذي ذكرناه منذ قليل- يقول: «إن قصائدنا هي بالضبط تذكار لحظاتنا الملهمة»[1]. ومن ثم فإن ما يطرأ عليه النسيان هو التفاصيل والحالات والمواقف التي لم تشكل مغزى أو بروزاً خاصاً في هذه الحياة الماضية. ولكن بما أن العنوان يشير إلى أن النص سيتحدث عن أمر (شبيه بالنسيان)؛ فإننا نتوقع أن يكون الحديث عن أشد الذكريات أهمية ومركزية بالنسبة إلى الذات، وذلك قبل أن يجرف النسيان التام ما تبقى. فنحن إذن -ومنذ العنوان- أمام لحظة إدراكية خطرة وحرجة: أمام (ذكرى/ ذكريات) آيلة إلى النسيان؛ أو هي أقرب ما تكون إلى السقوط من الذاكرة. وبتفسير إدراكي نقول: إننا أمام حالة معاناة من فشل الاستدعاء[2] retrieval failure. ومن ثم يصبح حضور النص؛ أي حضور الكتابة عن هذا المتبقي نوعاً من المقاومة والدرء لخطر النسيان. وبما أن النص هو نوع من ممارسة تنظيم التجربة فنحن إذن إزاء فعل مقاومة للتبعثر والتشتت. وفي المحصلة فإنه

---

(1) نقلاً عن: جان فرانسوا ماركيه - بترجمة أ. كميل داغر: مرايا الهوية: الأدب المسكون بالفلسفة، ص٢٥٩. المنظمة العربية للترجمة. ٢٠٠٥م

(2) نقلاً عن السابق نفسه، ص٢٦١.

(3) انظر:

McLeod, S.A. (2008). Forgetting. Retrieved from

http://www.simplypsychology.org/forgetting.html

مع هذا العنوان يمكن أن تكون الفرضية التي يضعها القارئ هي : الكتابة عن (ما يشبه النسيان) هي كتابة عن (أهم ما تبقى للتذكر)!

ثم يبدأ النص بهذا المقطع :

والبارحة

فاض اليمام على رواشين البيوت ، وخضرة الأغصان ، والباصات

والعربات ، وهي تئن خلف خيولها البيضاء

رائحة القرنفل والبهار ، وبرقع الشقراء في سوق الندى

والثان

هذا المقطع يشكل ما يمكن أن نسميه بأحد المصطلحات الإدراكية : خريطة إدراكية cognitive map ، أو خريطة ذهنية mental map ، أو خريطة عقلية mind maps ، أو نموذج إدراكي cognitive model ، أو نموذج ذهني mental model . ومن الواضح أن مكونات هذه الخريطة تعتمد على متوالية من الصور المستمدة من ثلاثة مصادر من مصادر الإدراك الحسي : البصري والسمعي والشمي . وأول ما يُلحَظ هنا هو أن هذه الخريطة متعلقة بإطار زمني هو (البارحة) ؛ أي أنها خارطة مستدعاة من الماضي بالذاكرة ؛ أو لنقل إنها مستدعاة بعملية التذكر . وهذا ما يفسر لنا ذلك (الاختزال) الناجم عن القيود الإدراكية التي تحيط بعملية التذكر : استدعاء ما يتعلق بالإدراك البصري والسمعي والشمي دون استدعاء ما يتعلق بالإدراك التذوقي أو اللمسي ، واستدعاء مشاهد بصرية أو حالات صوتية أو شمية معينة دون غيرها ، ومن ثم ما ينجم عن هذا الاختزال هو نوع من (التبئير) الإدراكي -أو (الأمامية الإدراكية)- للعناصر الواردة في المشهد المستدعى . وأبرز ما يبدو هنا هو أننا إزاء تبئير لـ(بانوراما إدراكية cognitive panorama) تشمل عدة صور مكانية : اليمام [على رواشين البيوت] + الخضرة [في الأغصان] + الباصات والعربات التي تجرها الخيول [على الطريق أو الشارع] + سوق الندى [في موقع من المدينة] . ولا شك أن هذا التبئير هو استجابة نصية لبروز هذه العناصر في ذاكرة المرسل ، ومن ثم لتصدُّرها في عملية التذكر ،

وكذلك هو؛ أي التبئير، باعث إدراكي لما يتشكل في ذهن المستقبل/ القارئ.
على أن من المهم أن نربط بين ذلك الاستهلال بهذه البانوراما للفضاء المكاني وأحد البواعث المحفزة على عملية التذكر. فإذا كنا نعرف أن (المكان) يتشكل بالإدراك الثقافي، وبالممارسة الثقافية، فإن عملية التذكر للمكان تحمل معها تمثيلات ما انطبع في الذهن من مكونات التفاعل مع هذه التجربة الثقافية. ومن ثم فنحن مع هذا الاستهلال إزاء خطاب للذات عن مصادر عميقة أسهمت في تشكيل هويتها، ليس فقط هويتها الشعورية وإنما أيضاً هويتها الثقافية. وفي هذا السياق نذكر أن الإدراكيات تقرر أن التفكير المكاني يمكن استخدامه لأداء مهمات مجازية مفهومية. يقول كين تيلور Ken Taylor «إن الارتباطات بين الفضاء الطبيعي والهوية، ومن ثم الذاكرة، والتفكير، والفهم، هي ارتباطات أساسية في فهم هذا الفضاء وفي فهم الحس الإنساني بالمكان»[1]. وما يمكن قوله هنا هو أننا إزاء تفكير اقتراني مكاني حيث يراد من تذكر هذه المفاهيم المكانية من -نحو ما- يقترن بها ويلابسها.
(والبارحة) هي أيضاً تعبير اقتراني علاقته الجزئية (البارحة جزء من الماضي). ولأن الاستدعاء أو التذكر فعل إدراكي إنساني فإن هذا الحضور النصي لـ(البارحة) هو حضور ضمني لتلك الذات المتكلمة بالنص والقائمة بفعل التذكر، وهو أيضاً حضور دلالي يشير إلى زمن محدد، أو بالأحرى إلى جزء محدد من الزمن، وهذا الحضور المزدوج يجعلنا نفترض وجود علاقة بين الطرفين [الذات المتكلمة +الماضي]. ولكن (التذكر) أيضاً هو بطبيعته فعل إدراكي يقع في الزمن الحاضر للذات، وإن كان محتواه متعلقاً بزمنها الماضي.
فنحن إذن أمام استهلال نصي بالغ الكثافة والتركيب. ولعل ذلك ما يعطي بروزاً جاذباً للانتباه لمجيء هذه (البارحة) معطوفة بالواو وكأنها نقطة في سرد متصل. كأن ثمة حكياً عن هذه (البارحة) قد سبق قبل تجليها نصياً في لحظة

(1) Taylor, Ken: "Landscape and Memory" p.1. on: www.goodreads.com/book/show/21071

الكتابة . وليس ثمة قبل الحضور النصي إلا الحضور الذاكريّ ؛ أي في (ذاكرة الذات ، أو لنقل : في حكيها الداخلي . فاستهلال النص إذن هو بدء الخروج من سرد الذاكرة (الخفاء ، الغياب) إلى سرد التذكر (التجلي ، الحضور) ، وهذا عطف على ذاك! تماماً كما أن (البارحة) في (التذكر والحاضر) هي عطف على (البارحة) في (الذاكرة والماضي)!

إن هذا الاستهلال النصي يضعنا أمام تجلي إحدى الحقائق الإدراكية المتعلقة بـ(الذاكرة) . يقول بول إيكين P. Eakin «الذاكرة لا يمكن أن تكون معزولة في نقطة ثابتة في الماضي ، بل لا بد أن تُعتبر بأمرين معاً : أنها قطعة من الإدراك الفعلي الحادث في الماضي ، وأنها أيضاً نتيجةٌ لعملية سردية تتطور في الزمن الحاضر ، وهي عملية تتصل بشكل وثيق بسعي المرء نحو خلق معنى لحياته»[1] . ويعلق هويسن Andreas Huyssen على هذه الخاصية الذاكرية بقوله «إن هذا الصدع الغامض tenuous fissure بين الماضي والحاضر هو ما يكوّن الذاكرة ، ويجعلها حيّة بقوة ، ومختلفة عن الأرشيف ، أو أي أنظمة أخرى للتخزين والاسترجاع»)[2] . وعلى ضوء هذه الحقيقة تكتسب (الواو العاطفة) في مستهل نص الدميني قيمة إشاريتها الإدراكية ، أو لنقل : أيقونيتها الإدراكية : وصل الزمن ووصل السرد كلاهما إشارة إلى نوع من اتصال الوعي! ومن ثم يمكن أن نقول إن للـ(واو) هنا وظيفة إدراكية هي وظيفة الدلالة على الديومة والاستمرارية والتتابع . وهذه الدلالة تترسّخ بكثافة حضور (الواو) في هذا المقطع (٩ مرات) .

ولكن ما محتوى هذا الوعي؟ لنتأمل السطور التي جاءت مباشرة بعد السطر الأول الذي امتلأ بفضاء (البارحة) :

---

(1) Lindbladh, Johanna (ed.): The Poetics Of Memory In Post- Totalitarian Narration.p. 6 . Media-Tryck Lund, 2008 (CEF: Conference Papers Series No. 3, Lund, 2008)

(2) Huyssen, Andreas. 1995. Twilight Memories. Marking Time in a Culture of Amnesia. P. 12. New York: Routledge.

فاض اليمام على (رواشين) البيوت، وخضرة الأغصان، و«الباصات»
والعربات، وهي تئن خلف خيولها البيضاء
رائحة القرنفل والبهار، وبرقع الشقراء في سوق الندى
واثنان

إننا إزاء ما يمكن أن نسميه بـ(الإطار السياقي contextual frame) لزمن البارحة، أو لنقل: إننا أمام مجموعة من الأطر المختزنة في الذاكرة الذاتية episodic memory على هيئة صور تشكل مجتمعة سياق المشهد المستدعى. وفي هذا السياق تحتل (اثنان) في هذا المشهد حيّزاً إدراكياً خاصاً حيث إنها تنماز ببروز واضح عن جميع الصور المستدعاة السابقة؛ الأمر الذي تدركه عين القارئ من خلال انفراد (اثنان) بالسطر الشعري، بالإضافة إلى أنها من الوجهة النحوية مُركّب اسمي يتسم بدرجة عالية من الاستقلالية (فهو غير موصوف وغير مضاف وغير معرّف)، ومن الوجهة الدلالية لا يتبادر إلى الإدراك إلا أنها تشير إلى مدلول إنساني. ومع ذلك فهي ليست منبتة الصلة عن مكونات المشهد، ليس بأثر أداة العطف (الواو) فحسب، وإنما بسريان دلالة الازدواج والتلازم الثنائي القائمة في كل صورة من الصور السابقة (اليمام والرواشين - الرواشين والبيوت- الخضرة والأغصان - الباصات والعربات - العربات والخيول- الخيول والبياض- الرائحة والقرنفل - الرائحة والبهار- القرنفل والبهار- البرقع والشقراء). فالمشهد كله قائم على ارتباط أزواج ثنائية متتابعة: إما اسم ذات مع اسم ذات، وإما اسم الذات مع خاصيته الأساسية المنتقاة بمنظور إدراكي إيجابي[1] (كأنها روحه الداخلي: الخضرة مع الأغصان، البياض

---

(١) قد يبدو أن ثنائية (العربات والأنين) في (والعربات وهي تئن خلف خيولها البيضاء) هي استثناء من ذلك الإدراك الإيجابي. ولكن التأمل العميق يجد أنها صورة مشبعة بمغزى إيجابي هو الانحياز للكائن الحي (الخيول) على حساب الصناعي (العربات). الجماد الصناعي فقط هو الذي يعاني من حركة الحياة في هذا المشهد، أما الكائن الحي/ الخيول التي تجر العربات؛ أي المفترض أنها هي التي تئن من التعب والجهد- فهي تنضم إلى الإدراك الإيجابي برمزية البياض الفطري الذي لا شية =

مع الخيول ، الرائحة مع القرنفل والبهار) .

فالمركب الاسمي (اثنان) إذن مركب منفصل ومتصل معاً . غير أننا أشرنا منذ قليل إلى تلك (الواو) التي تصله بما سبق . فإن كانت هذه الواو تقوم بدور العطف فـ(اثنان) إذن داخلة في مدى الإسناد الفاعلي للفعل (فاض) ؛ فيكون (الاثنان) أحد فاعلِي هذا المشهد الفيضي الذي يكرّس صورة استعارة إدراكية [الكثرة الزائدة = فيضان] ؛ الأمر الذي يجعل (الماء) حاضراً -كفضاء ضمني- في عمق المشهد المستدعى بما يسهم في تحويله إلى مشهد خصوبي ، وبما يستثير حفزاً إلى ربط إدراكي بين (اثنان) وثنائية الحب المعهودة : (عاشقان) .

ومع كل هذه المركزية التي تمثلها (اثنان/ العاشقان) فإن ورودها في نهاية المشهد ، وليس في صدارة عملية الاسترجاع الذاكرية ، يبقى بحاجة إلى تفسير . ولعله من أجل الوصول إلى ذلك ينبغي لنا أن نحدد شكل المسقط الإدراكي الذي من منظوره رأت عين التذكر التفاصيل المستدعاة . وهنا نلاحظ أن عين الرؤية بدأت حركة الالتقاط من الأعلى باتجاه الأسفل : من الفضاء ؛ أي من حيث يأتي اليمام ليحط على رواشين البيوت ، ثم إلى أعالي الشجر (الأغصان) ، ثم إلى عالم الشوارع الأرضية في المدينة (الباصات ، العربات ، الخيول ، السوق) . فمنظور الرؤية إذن يأخذ حركة هابطة من الموضع الأعلى ، فالموضع الأوسط ، فالموضع الأسفل . وكأننا إزاء ما يسمى في بلاغة الكاميرا بالحركة tilt down . وعندما تصل حدقة الاستدعاء إلى (اثنان) فإن التحديق يتوقف فيما يشبه ما يسمى في لغة التصوير أيضاً بالحركة المقتربة chariot in أو track in . ماذا يعني هذا التكوين؟ وما مصدره الإدراكي لدى الكاتب؟ وما تأثيره الإدراكي لدى القارئ؟ وفي الحقيقة نحن أمام فرضيات متعددة هنا .

= فيه ولا شائبة والذي يجسد في كثير من الثقافات ، ومنها العربية ، الطاقة الإيجابية والنقاء الروحي ، وينتمي أنثروبولوجياً إلى (الزمن النهاري) حيث يقال في العربية مثلاً (الشمس البيضاء ، وطلعت البيضاء- المرزوقي : الأزمنة والأمكنة)) وفي الشعر العربي قيل عن المحبوبة : (بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار) .

وهذا مبدئياً مما يحسب لثراء هذا النص .

فقد يمكننا أن نقول مثلاً إن وضعية (اثنان) كفضاء أخير في تسلسل الفضاءات المكوِّنة للمشهد إنما هو علامة على أن الذاكرة -وهي تطل على هذا السياق الماضي- توجهت ابتداء إلى استدعاء النموذج الاستعاري الإدراكي [الأعلى = المانح] ليكون هو خلفية المشهد الذي كان يحيط بتجربة الحب التي جمعت هذين الاثنين : وهي خلفية تضج بالحركة والحياة ؛ أي أنها خلفية تبدو محفزة لأن تشهد -كما يقول النص في مقطع تالٍ- (انفتاحَ تراتيل الصبا على المعنى) في القلب لدى (اثنين) .

وقد يمكننا أن نقول إن وضعية (اثنان) كفضاء أخير في تسلسل الفضاءات المكوِّنة للمشهد إنما هو تفسير لدلالة التفكير الاقتراني المكاني الذي بدأ به مشهد الاستهلال : فعين التذكر تحدق في عناصر المكان في رحلة بحث عن الذات/ المحور التي شكلت في الوعي وتجربة الماضي الأثرَ الإدراكي لهذا المكان . فالأماكن طريق أو معبر وتلك الذات غاية وهدف . ودائماً يشتغل تفكيرنا بمخطط إدراكي قوامه]الغاية = مكان هناك.[وإذا كانت (الغاية) في وعي تجربة الحاضر أمراً قائماً هناك ؛ أي في موضع بعيد على طريق الرغبة فإنها في وعي تجربة الماضي المستعاد بالتذكر أشد بعداً . وهكذا نجد التمثيل النصي لهذا البعد يتجسد في تأخر مثول (اثنان) في دلالة ضمنية على شعور ربما لاواعٍ بازدياد المسافة بين الذات وموضوع رغبتها .

وقد يمكننا أن نقول إن التوجه العاطفي هو المبدأ المفسر هنا . فعلاقة الذات بالأماكن لا تمثل في العاطفة كمثول االعلاقة الشعورية الرابطة بينها وبين ذات أخرى .ليس ثمة في تجربة العلاقة بالأماكن هذا البعد الأسراري الحميم المشابه لتجربة العلاقة في الحب . الأماكن ذاتها لنا وللآخرين . أما الذات التي نرتبط بها في الحب فهي (سر القلب)! وسر القلب هو آخر ما نبوح به . ومن ثم ففي هذا المقطع الاستهلالي تحرك فعل الاستدعاء ، ومن ثم البوح النصي ، وفق مخطط : (من العامِّ إلى الخاص) .

وإذا أخذنا بما تحققت منه تجارب الإدراكيين من أن العقل الأدبي -بتعريفه عند تيرنر- يفضل الترسيمات الذهنية mappings التي تعتمد على الحواس الأكثر ارتباطاً بالجسد[1] ، فهل نقول هنا إن تجربة الذات مع حسية الفضاء المكاني أكثر رسوخاً وبروزاً من تجربتها الحسية مع الذات الأخرى ، ومن ثم تحرّك الاستهلال من الأمكن حسياً إلى الأقل تمكناً؟! لو صح هذا الاستنتاج نكون أمام إشعار إدراكي مبكر لما سيتجلى فيما بعد حين يقول النص (ما كان أشبهنا بعذريّ الهوى . . .» .

وأخيراً ـــ وليس آخراً في الحقيقة ـــ يمكننا ـــ إذا استعدنا ما ذكرناه عن ارتباط الفضاء المكاني بهوية الذات ـــ أن نقول إن عبور حدقة العين على تسلسل المشهد المكاني ثم وصولها في آخر المشهد إلى (اثنان) إنما هو مشهد رحلة داخلية للوصول إلى اللحظة التي يمكن أن نسميها لحظة (أنا في عين الآخر) . ألم يقل أفلاطون «إذا أرادت العين أن ترى نفسها يجب أن تتطلع إلى عين أخرى»؟ فما البال إذا لم تكن مجرد (عين أخرى) وإنما هي (عين الأخرى/ المحبوبة)؟! وإذا كان هذا التحليل صحيحاً فإنه -مع ذلك- لا يفسر تأخر فضاء (اثنان) إلا بربط الاستدعاء الذاكري بحالة الشعور العاطفي المصاحبة لهذا الاستدعاء . يقول الإدراكيون[2] إن استدعاء ذكرى مؤلمة يصحبه مزاج مؤلم يعوق عملية الاستدعاء ، والعكس صحيح . ومن ثم يكون تأخر استدعاء صورة (اثنان) إنما هو إرجاء استدعاء الألم . ويبقى تفسير علة هذا الألم : هل هو مثول حقيقة وعي تجربة الحاضر بعدم تحقق تجربة الماضي التي عاشها (اثنان)؟! ليس ثمة احتمال آخر ما دام (اثنان) أصبحا مجرد لقطة في الذاكرة تقاوم النسيان!

---

(1) Freeman, Margaret: (2007) op cit. p.11

(2) Topolski, Richard & Daniel, Sarah R. ():The Effects of Happy and Sad Emotional States on Episodic Memory. On: csjarchive.cogsci.rpi.edu/Proceedings/2005/docs/p2563.pdf

المؤلف:

- عميد كلية دار العلوم - جامعة المنيا - سابقاً .
- أستاذ كرسي عبد العزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها بجامعة الملك سعود سابقاً .

العمل الحالي:

- استاذ متفرغ للعلوم اللغوية والأسلوب بكلية دار العلوم بجامعة المنيا .
- المدير التنفيذي لبرنامج رفع الكفاءة في اللغة العربية لطلاب جامعة المنيا في مرحلة الليسانس والبكالوريوس .

له عدد من الكتب منها:

* اللغة والفكر والعالم -دار لونجمان -القاهرة- ١٩٩٨م .
* نقل المصطلح اللساني في مطلع القرن العشرين : قاموس النجاري نموذجاً) ط١ (١٩٩٧) . (طبعة ٢ (٢٠٠١) .
* الفكر اللغوي بين اليونان والعرب : فصول من كتاب المستشرق الهولاندي : كيس فرستيغ : عناصر يونانية في التفكير اللغوي عند العرب :ترجمة وتعليق - ط١ (١٩٩٧م) . (طبعة٢ في : ٢٠٠١م) .
* علم الدلالة عند العرب : فخر الدين الرازي نموذجاً .دار الكتاب الجديد المتحدة- بيروت ٢٠٠٨م .
* انفتاح النسق اللساني : دراسة في التداخل الاختصاصي . دار الكتاب الجديد المتحدة -بيروت - ٢٠٠٨م .
* الثقافة المنطقية في الفكر النحوي . مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية- الرياض- ٢٠٠٧م .
* الأسلوبيات الأدبية . كرسي المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها . جامعة الملك سعود - ٢٠١٢م .

المحتويات

هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب خمس مقالات تتعلق جميعاً بـ (الإدراكيات Cognitive sciences). تُعنى المقالة الأولى بتقديم صورة تاريخية وإبستمولوجية عامة. ثم تنهض الثانية بتقديم معالجة مصطلحية لتلقي العربي لمصطلحي cognition وperception مع ربط القضية المصطلحية بالتحولات الإبستمولوجية التي شهدتها الإدراكيات منذ نشأتها. وتعالج المقالة الثالثة المقاربة الإدراكية لظاهرة (الاستعارة). أما المقالة الرابعة فهي عن أثر الإبستمولوجيا الإدراكية في تعميق أبعاد (ما لا يترجم) بين اللغات والثقافات. وينتهي الكتاب بالمقالة الخامسة التي تضمنت جانباً من الدور الذي تلعبه الإدراكيات في علاقتها بالدرس الأدبي؛ وهو جانب التأسيس الجديد لعلمية النقد الأدبي.





دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
www.darkonoz.com

darkonoz
darkonoz
darkonoz.almarefa

